

روايات تاريخ الاسلام

فناء القبروان

جرجي زيدان



دار الهلال

روايات تاريخ الإسلام

فناء القيروان

جسرجى زيدان

تقديم ودراسة

د. محمد حسن عبد الله



١٩٨٤

تصدر عن مؤسسة

دار الهلال

أسسها جودجي زيدان

سنة ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة

معكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الفنان

جهان كامل

رقم الايداع : ٥٦٧٨ - ١٩٨٤
التقديم الدولي: ١٢٥ - ١١٨ - ٩٧٧

مقدمة

قبل أن أتوقف عند « فتاة القروان » محاولا تنوير بعض جوانبها الفنية والفكرية ، استعيد بعض الذكريات القديمة التي تتعلق بسلسلة روايات تاريخ الاسلام ، فلقد تعرفت على هذه الروايات ، وقرأت أكثرها وأنا في منتصف المرحلة الثانوية ، على النظام القديم بالطبع ، وكنت حوالى الخامسة عشرة من العمر ، والصيف فى القرية هادئ رتيب بطيء ، ونحن الطلبة لم يكن بين أيدينا غير الراديو والكتاب والثرثرة ، وكان الكتاب طريقى الى الخلاص ، ولا أشك فى أنها مجرد مصادفة ان يكون الكتاب احدى روايات جورجى زيدان ، الذى نقلنى الى عالم جديد فى « عروس فرغانة » ، فند كان التاريخ الذى نتعلمه فى المدارس يدور فى معظمه حول الملوك والحروب والمعاهدات ، وينقسم الى أسباب ونتائج ، لا مجال فيه لخيال أو عاطفة ، ولا مكان فيه لحركة الحياة العريضة المتشابكة أو المتداخلة بطول الدنيا وعرضها ، وهكذا قادتني عروس فرغانة ، الى فتاة غسان ، والملوك الشارد ، وغادة كربلاء . . فاكسبت من قراءتها النفس الطويل فى القراءة ، وهذه حسنة افادتني كثيرا بعد ذلك ، فضلا عن تنمية الخيال وترقية الاسلوب والخبرة باهم خصائص العصور وطبائع الشخصيات التاريخية ، والموضوعية ايضا ، أى غير التاريخية ، وقد كان جورجى زيدان يجيد تصوير هذه الشخصيات التى يتندعها خياله أكثر مما يجيد تصوير الشخصيات التاريخية ، على الرغم من اعتماده على المصادر ، وتوثيق المعلومات ، وربما كان حرصه على التوثيق التاريخى سببا فى محدودية خياله ومقدرته على تحليل ، ومن ثم تصوير ، الشخصيات التاريخية كما سنرى . ومهما يكن من امر

فقد بقي لهذا الكاتب دين كبير في عنقي ، هو ديني لكل من ترك في عقل وضميري وسلوكي أثرا ناعما .

هذه أوغل ذكرياتي عن روايات الهلال - كما ندعوها - فقد علمتني الصبر على الكتاب ، وهذبت لفتي ، وجعلتني « أعيش » أحداث التاريخ أكثر مما « أعرف » عنها .

وتمضي السنون ، واستعد لاختيار موضوع للرجة الدكتوراه في الادب ، بعد أن حصلت على الماجستير ، وقد اقترحت « فن الرواية التاريخية عند جورجى زيدان » ، ولكن استاذنا فاضلا كان من المتوقع أن يكون المشرف على أطروحتي ، قال : أنا لا أوافق على دراسة هذه الروايات أو تسليط الضوء عليها ، لقد مات جورجى زيدان ، وخير ما نصنعه له أن نتركه هادئا في قبره !!

كان هذا ايماء ذكيا الى ما يثار حول « بعض » روايات عن تاريخ الاسلام ، من أنه يكتبه من وجهة نظر خاصة لا تحرص على النظرة الموضوعية للتاريخ ، وأنه يسند بعض الحوادث ذات الآثار الخطيرة الى أسباب شخصية مخترعة أو مظنونة ، ولم يثبت لها وجود تاريخي .. الخ . ويبدو أن هذا « القلق » تسرب الى نفسي ، فأنصرفت الى موضوع آخر ، وظلت القضية معلقة ، ولعل العودة الى « فتاة القبروان » تساعد على توضيح هذا الجانب .

الرواية التاريخية : علم أم فن ؟

ونقطة البدء في القضية أن نعرف بالفرق بين التاريخ والرواية ، فالتاريخ علم ، والرواية فن ، وإذا كان المؤرخ يلجأ الى الحس أو الخيال ليربط بين الحوادث الجزئية أو المقدمات والنتائج ، فإن الروائي يتوسع ويضيف ليسبغ على هذه الحوادث الجزئية قدرا من الواقعية أو مشابهة الواقع ، من جانب ، وقدرا من الاثارة والتشويق ، من جانب آخر ، وهذا يعني أنه من غير الممكن أن يظل

الروائي - أو الكاتب المسرحي - حبيس الاطار التاريخي للحوادث ، مطالباً بذكر « كل » الحقائق التي سجلتها كتب التاريخ عن شخصيات عمله الفني ، انه لو فعل لن يستطيع تشكيل عمل فني مقنع ، فضلاً عن ان ما يسمى بالحقبة التاريخية يظل مجرد احتمال ، أو احتمال راجح ، ولا يأخذ صفة « المؤكد » الا فيما لا خلاف عليه ، مثل تاريخ معركة ، أو سنة وفاة ، أما « كيف » و « لماذا » فالجواب عليهما محل اجتهد واختلاف بين المؤرخين ، فليس من حقنا أن ننظر ذلك على كاتب الرواية ، وهو - على أية حال - لم يقل لنا انه يضع كتاباً في التاريخ ، وليست الرواية أو المسرحية مصدراً تاريخياً ، ولا يصح أن تكون ، انها « رؤية » أي وجهة نظر في حدث عظيم ، أو حقبة أو شخصية .

ونضيف هنا : ان جودجي زيدان لم يحاول أن يقدم « وجهة نظر » في التاريخ الاسلامي عبر رواياته المتعددة ، فمجال ذلك في كتاباته عن الادب العربي والتمنن الاسلامي ، أما رواياته فهدفتها بين التعليم والترفيه ، وطبيعي أن التعليم يتوجه به القارئ العام الذي لا يعرف التفاصيل ولا يسعى اليها ، انه - عادة - يكتفي بمعرفة عامة بأهم الشخصيات ، واذراك عام لتسلسل الحوادث وظروفها إجمالاً .

وجودجي زيدان يقوى عنصر الترفيه بوسائل شتى - كما سنرى - لكي يسوق الى قارئه هذا القدر الاساسي من الحقائق وهنا تقترب خطوة أخرى من « فتاة القيروان » - وهي التي نعني بها الآن ، والمؤلف يصفها أو يجعل الهدف منها في كلمات قليلة تنصدها ، فهي تتضمن ظهور دولة الفاطميين في افريقية ، ومناقب المعز وقائمه جوهر الى فتح مصر واخراجها من الدولة الاخشيدية ، و « تتخلل ذلك » وصف البربر وعاداتهم ، وبيان الاسباب الاجتماعية التي انتصروا بها على الاخشيديين ، واهمها : الترف والاستبداد والانقسام عند الاخشيديين ، والاتحاد والحفاظ على مناصب البادية عند

الفاطميين . هنا نوشك أن تكون أمام « رؤية » لتفسير الصراع الحضارى والحربى بين الشعوب ، وقد تكررت الاشارة الى هذا المعنى على لسان المعز الذى كان يعيش - فى رأى المؤلف - حياة هى فى غاية البساطة ، والبعد عن الترف ، وهذا التصور ليس من ابتكار جورجى زيدان ، انه قول ابن خلدون ، وله بقية ، فإذا كانت الشعوب المتبدية تغلب فى ميدان القتال ، فإن الشعوب المتحضرة تغلب فى النهاية وتترك أثرها القوى على الغالبين . وقد اكتفى المؤلف بالنصف الاول من مقولة ابن خلدون ، ومن حقه هذا مادامت الحقيقة التى يصورها تساعد على هذا الانطباع ، ولكن ما يחדش هذه « الرؤية » أنها تظل سردية تقريرية لم تنشر أثرها على أخلاق الشخصيات وسلوكها بوجه عام ، كما أنها تقع فى تناقض حين تصور البربر من كنامة صنهاجة وهوارة أهل ترف وحضارة ، وأن كان حكامهم يقلدون فيها أهل الاندلس ، وتصور المعز بأنه الرجل الحريص على الزهد فى المظاهر ، وإيثار الخشونة ، وقد يختلف هذا الرأى مع الصورة الشائعة فى المصادر التاريخية ، ولكن الأهم من ذلك أنه يصدم حقيقة مقررة ، وهى أن الدعوة الفاطمية إنما انتشرت فى أفريقية بهذه القبائل ذاتها !! وهذا ما يجعلنا نقول ان هذه الرواية - وربما كان القول ذاته صادقاً بدرجة أو بأخرى على غيرها من روايات تاريخ الاسلام - لا تعين عن « رؤية » فى التاريخ الاسلامى بقدر ما تهدف الى تعليمه .

رواية لكل القراء

لقد اختلف المنظرون قديماً وحديثاً حول الاجابة على سؤال : لماذا يكتب الاديب ؟ وقد يتحول الى : لمن يكتب الاديب ؟ ولسنا بسبيل مناقشة هذه القضية الفنية المهمة ، وبخاصة أننا نرى ان زيدان كان يهدف الى التعليم والترفيه ، أو - بصفة معدلة : كان يتخذ الترفيه طريقاً الى تعليم التاريخ ، ويظل هذا القول بحاجة الى

تفصيل ، فتحديد الهدف لا يتضمن بالضرورة اتفاق الوسيلة أو وحدة الأسلوب ، وما دام زيدان يكتب الرواية ليعلم ، فإنه لابد أن يتوجه الى متعلم ، لابد أن يملك تصورا محددا أو قريبا من التجدد للمخاطب ، وعلى رأى البلاغيين القدماء ، اعمالا لمبدأ : مراعاة مقتضى الحال ، وهو نفسه ، أو يكاد أن يكون مبدأ : الصلوق الفني ، في لغة النقد الحديث .

فمن هو القارئ الذى توجه اليه زيدان بروايته ؟ لا نغامر اذا قلنا انه كان يكتب لمستويات مختلفة في درجة ثقافتها ، وقدرتها على التدقيق الجمالى لبناء الرواية ، ولصياغة اللغة ، وهذا واضح بدرجة كبيرة في « فتاة القروان » . ولا نشك في أن محاولة ارجاع كل عنصر فنى أوخاصية أسلوبية الى مستوى معين من القراء عمل يتطوى على تعسف ومصادرة ، فليس ثمة ما يمتنع ، بل ينبغي أن يقوم العنصر بأكثر من وظيفة ، وأن تصدر الخاصية الواحدة عن مستويات مختلفة من الادراك الفنى ، فغاية ما نطمح اليه أن نرصد الخصائص الفنية المميزة لأسلوب المؤلف في هذه الرواية ، وأن نقرب هذه الخصائص الى مستويات القراء ، لنؤكد ما نراه من أن جورجى زيدان كان يهدف الى كتابة رواية لجميع الراغبين فى التعامل مع هذا الفن . فن الرواية .

يبدأ المؤلف روايته بمقدمات طويلة عن نشأة التشيع فى المغرب، ويستدعى منه هذا أن يعود الى نشأة التشيع أصلا ، وما عاناه الشيعة فى العصرين الاموى والعباسى ، ويرصد جوانب من تاريخ الديولات التى انسلخت عن دولة الخلافة ، ثم يذهب الى القروان والمنصورية ، كما يذهب فى أثناء روايته الى الفسطاط ، ويتكلم عن ظروف استقلال الاخشيدي بمصر ، وكيف آل الامر الى كافور ، ومفترق الطريق الذى انتهت اليه أوضاع مصر بمرضه ، وكيف ساعد الصراع الداخلى على انتصار جوهر ودخول مصر فى حوزة الفاطميين . ان هذه المعلومات التاريخية المباشرة المحددة ليس لها

قائدة فنية ، بل هي ضد لغة الفن أصلا ، وقد جاءت لتزود المتعلم -
 المعنى العام - بالقدر الاساسي من المعرفة الذي يساعده على تصور
 الحقبة التي تجرى فيها أحداث الرواية ، وتجعله قادرا على تقبل
 ما يستجد - بناء على هذه المعرفة - من أحداث + غير أنه يتوجه -
 في مستوى آخر - الى القارئ الذي يمكن أن نسميه « المثقف » وهو
 يملك هذا القدر الاساسي من المعرفة ، ولديه بصر بمرامى القول ،
 وكان جورجى زيدان يحرص على ارضاء هذا القارئ المثقف ، أو على
 الأقل ، عدم اغضابه واثارة شكوكه في بعض الثعوت التي تطلق على
 بعض الشخصيات ، أو بعض الحوادث التي تنسب اليها ، فلأنه
 وضع هذا القارئ في اعتباره نجده يحرص على ذكر المصادر
 التاريخية التي نقل عنها بعض ما يجد حرجا في نسبته اليه + وفي
 صدر هذه الرواية « فتاة القبروان » ذكر أنه اعتمد على ستة مصادر
 أو مراجع ، أكثر ما اعتمد عليها في وصف الدول ورجالها ، ثم
 الامور التي اشرفنا اليها ، مثل تنزيه المعز عن شرب الخمر مثل
 ارباب الدنيا ، أو تصوير اضطهاد الشيعة في مصر اضطهادا مبالغا
 فيه ، أو وصف نفوذ الوزير اليهودى يعقوب بن كلس على شخصية
 كافور ، فالمؤلف يسارع الى ابراء ذمته بذكر المصدر التاريخي ،
 لكنه لم يحاول أن ينقد هذه المصادر ويحدد درجة نزاهتها ، وهذا
 بالطبع يناقض أسلوب الكتابة الفنية في الرواية وغير الرواية ، وهو
 ليس مطلوبا من الروائي ، لكن مجرد ذكر المصدر ليس مطلوبا منه
 أيضا بنفس الدرجة ، وهذا يعنى أنه وربط نفسه بذكر المصادر ،
 وهي مصادر ليست فوق الشبهات فيما يتعلق بالصراع الملهي بين
 السنة والشيعة ونفوذ بعض الطوائف حول رجال الحكم + ويلتقي
 المتعلمون والمثقفون في احترام المؤلف لطبائع الشخصيات ، والتتابع
 التاريخي للأحداث ، وربط النتائج الى أسبابها بطريقة مباشرة +
 غير أن الطابع العام الغالب يبقى شعبيا في صميمه ، وستتوقف
 عنده بعد أن نستوفي القول حول الجانب التعليمي .

الجانب التعليمي

قلنا ان جورجى زيدان اراد ان يعلم القراء تاريخهم من خلال الترفيه عنهم . والحق ان آثار هذه النزعة الراجفة فى التعليم طاغية جدا على جو الرواية ، بدرجة دفعت بالجوانب الفنية الخالصة الى الهامش ، فيما عدا اللغة ، التى ظلت عربية نقية الى حد بعيد . ان هذه الملاحظات التاريخية ، والاسراف فى النقل عن المصادر من اهم معالم النزعة التعليمية ولكنها ليست أشدها اضرارا بالجوانب الفنية ، أما الضرر فيتجلى فى ان المؤلف لم يستطع ان يندمج فى العصر التاريخى ويعيشه كواحد من أفرادہ، لقد ظل شديد الاحساس بذاته ، شديد الشعور بالفواصل الزمنى بين عصره والعصر الذى يكتب عنه ، فحين يصف مغارة الكاهنة البربرية يقول : « ولو زار احد علماء الآثار اليوم لتحقق ان تلك المغارة من بقايا الابنية القديمة فى العصور الغابرة ، لانها محفورة فى الصخر » ، أما تأثير ابى حامد على نفسه سالم وعقله فهو « من قبيل ما يعرف اليوم بالثنويزم المقتناطيسى » ، وقد جاء اعيان القبائل المغربية « وعلى اكتسافهم البرانس الواسعة مثلما يلبس اهل تلك البلاد الى اليوم » ، أما البستان الكافورى فهو « فى محل الازهر والسكة الجديدة من ابنية القاهرة اليوم » ، وفى الفسطاط كان المنادون يرفعون عقيرتهم فى الشوارع للاعلان عن الاخبار المهمة « مما يعلن عنه فى الصحف أو يدون فى المنشورات الرسمية فى هذه الايام » ، ان هذه العبارات المقتبسة منتشرة على مساحة الرواية ، وهى تؤكد ان المؤلف لم يكن حريصا على مغادرة الرواية أو مغادرة وظيفته ، فلا هو صورها فى اطار عصرها وحده ، ولا هو صاغها بضمير المتكلم ، وكأنه « رحالة » قطع رحلة متخيلة فى زمان مضى ، لقد ظل فى مكتبه يدار الهلال ، مرتبطا بواقعه العصرى ومشاهداته اليومية ، يكتب رواية عن عصر فاتت من خلال ارتباطه بهذا الواقع الحى ، وقد ادى ذلك الى جرح

الايهام بشكل مستمر ، مما اثر في قوة الایحاء ، وقدره القارىء على الانعماج بالعصر الذى تتعرض له هذه الرواية . وهكذا ظل جورجي زيدان موجودا فى صميم السياق الروائى ، يفرض نفسه عليه كمن حين ، للرجة انه يحيل النارىء على رواية سابقة ، فالقطائع عاصمة احمد بن طولون « كما ذكر فى رواية أحمد بن طولون » ، بل انه يفرض هذا الحضور على القارىء أيضا ، فيوجه اليه الخطاب بصيغ مختلفة : « كما علمت » ، « فند علمت » « لامر لا يخفى على القارىء » وان يكن هذا اقل انتشارا فانه من الاسباب المؤدية الى اضعاف عنصر الایهام فى الرواية . وتكتمل النزعة التعليمية بحرص المؤلف على توجيه النصائح واستخلاص العظات من الحوادث ، فلم يكن هذا مما تقوله احدى شخصيات الرواية لغيرها ، ولكنه من وعى المؤلف بالموضوع ورغبته فى اضفاء روح الحكمة والمعرفة على روايته وتقديم هذه الخدمة الاضافية مجانا الى النارىء ، فيستخلص من افشاء سالم لبعض اسراره الى لمياء ان « المحب لا يؤتمن على سر لا يبوح به الى حبيبه . فاذا شئت ان يبقى سرى مكتوبا فاحذر ان تستودعه محبا » ، وحين تغازل سالم فى صدامه مع الحسين بن جوهر ، راح يلتمس لنفسه المفاذير « وكذلك الانسان قد يصدق الخال تبريرا لعمله وردا لكرامته وحفظا لمنزلته عند نفسه » ، وفى الموازنة بين طبائع المحبين ، يتول : « ومن قواعد الحب وطبائع المحبين ان المتفانى فى حب شخص يحتمل منه ما شاء من التجنى والدلال والاعراض ، ولا يزداد الا شغفا وتفانيا .. لكنه لا يحتمل الخيانة » ، و .. « الخياء من اجمل ما تؤدان به المرأة ، بل هو اجمل اثواب زينتها الحقيقية » ، وفى اسباب الصراع بين الاخشيديّة والكافورية .. « لان انقسامهم انما وقع بسبب خوفهم من الفشل ، وهذا طبيعى فى كل زمان ومكان - لا يختصم شريكان الا اذا خسرت تجارتهم !! »

لا نزع ان هذه الاقوال الحكيمه زائده عن الحاجة بالضرورة ،

ولكن وضعها بهذه الصياغة التفسيرية ، معزولة عن مشاعر الشخصيات وحديثها مع نفسها أو مع الآخرين ، يجعلها أشبه بالتواء في طريق مستوية ، كان من الخير أن يزال حتى لا يعوق السياق .

فتاة القبروان رواية شعبية

وملامح الرواية الشعبية واضحة تماما ، لا يصرفنا عن رعايتها وتبنيها أن الرواية مكتوبة بلغة عربية سليمة ، وليس بالعامية ، وانها استندت الى مصادر تاريخية أخذت منها بعض شخصياتها وأهم حوادثها ، ذلك أن الوصف الشعبي لا يرجع في صميمه الى اللغة أو الحوادث ، بل الى بناء الحوادث ، أي تركيبها ، وإلى الجو العام ، والنزعة الشعبية واضحة تماما في هذين الجانبين . ويمكن أن نتقّى هذه الجوانب :

أولا : الاحتفاظ بأسرار والوعد بالكشف عنها فيما بعد ، وليس هذا من سمات الرواية الفنية ، بل الرواية الشعبية التي تسرف في اضفاء عنصر التشويق والإيحاء الى أن القارئ سيعرف سر ما يجري الآن فيما بعد . في مفتتح « فتاة القبروان » نعرف أن « سالم » غائب ، هو مجهول المصير عند لمياء ، مجهول المكان والهدف عند أبيها ، وبعد صفحات يظهر سالم متنكرا ، ويحتاج الى عشرات الصفحات ليكشف عن المنزلة الحقيقية التي تحتلها لمياء في نفسه ، ويتكرر في سياق الرواية الإشارة الى أسرار يعرفها شخص ، ولا يفصح عنها ، ويتنظر شخصا آخر ، أو موعدا ملائما ليظهر ما خفي . فلمياء تعرف أشياء عن سالم لا يعلم أبو حامد أنها تعرفها ، وهي تنتظر لقاء حبيبها لتناقشه - أو لتفضي إليها في الحقيقة - بهذه الأشياء ، ويشير أبو حامد الى « فج الاخبار » دون أن نعرف بالضبط ماذا به . . الخ .

ثانيا : وصف الاماكن الغريبة ، اما باثارة الخيال اجمالا مثل
الاشارة الى ما يحتمل وجوده في فج الاخبار ، أو تفصيلا مثل وصف
المفارة التي تعيش فيها كاهنة بربرية ، تقرا الطالع وتدبر المؤامرات
وهي على صلة بابي حامد ، وتعرف عنه كل ما يخفى ، ويعينه على
ما يدبر . ان وصف المفارة بدهاليزها وحرسها الغريب ، وحيوانها
وأفاعيها ، ووصف الكاهنة ، وجلستها وطريقة حوارها مع أبي حامد
هو من صميم الادب الشعبي الذى نجد نماذجه فى ألف ليلة ، وما
يعرف بالملاحم الشعبية ، بل نجد له اشباها فى الحوادث المنتشرة
فى الريف .

ثالثا : المفاجأة والمصادفة . ومعروف ان الرواية الفنية ترفض
المصادفة تماما ، الا بتبريرات قوية ترفع بها الى مستوى الاحتمال ،
وتركب الحوادث الجزئية حسب منطق السبب والنتيجة فى سياق
مستمر هو الذى يصنع الحكمة ، فيظل الرابط العقلى هو الاساس ،
اما الرواية الشعبية فان المنطق فيها يخفى مكانه للمصادفة ، والتطور
التدريجى يفسح مساحة للمفاجأة ، دون أن يشعر المؤلف بأنه يلغى
الواقع أو يضعف الاقتناع ، انه يكتفى بالتشويق والابهار واثارة
الخيال ، وهكذا نكتشف ان لابی حامد اسما آخر تناديه به الكاهنة
هو مسعود ، ونفاجأ بان الغلام الذى مسح على وجه الفرس من اتباع
أبي حامد وانه خذره بقية قتل لمياء ، ونفاجأ بان الكاس مسومة
وان حملون - والد لمياء - هو الضحية ، فقد ساقته المصادفة - وان
تكن مبردة - الى افتداء من سعى من قبل الى قتله ، ويتصادف ان
تسقط لمياء عن جودها ولا تموت ، ويأتى هذا السقوط فى مكان
تستطيع أن تسمع فيه أبا حامد وهو يحدث رجاله باخطر اسراره ،
ونفاجأ بانها - رغم اصابتها - تستطيع ان تنهض ، وأن تقتل
فارسا ، وأن تفر بنفسها ، وقد حملت رسالة الى المنز ما كان لها أن
تبلغه ، وتسعى الى أن تدخل بيت بنت الاخشىد ، فتسال ثقتها فى

أقل من يوم وليلة فنفاجاً بأنها تحضر معها اجتماعها بأبي حامد ،
كماتصادف أن حضرت مجلس كافور وراثته وسالما ، الخ ..

هذه المفاجآت والمصادفات بمثابة رفض لتحكيم المنطق والالتزام
بالواقع الموضوعي ، وهذا الرفض يترك آثاره في مواقف وحوادث
مختلفة ، مثل طريقة خروج لمياء من قصر الامارة ، وتخفيها في ثياب
غلام صقلي والسماح لها بمغادرة الاسوار دون أن يرتاب بها أحد ،
ومثل أن تجد في رسالة يعقوب بن كلسي الى المعز اشارة الى سالم
وخداعه العاطفي لها وسخريته من حبها ، وبالقسط ليس هذا مما
يكتب به الى الملوك والخلفاء ، ولكن المؤلف - اعمالا لعنصر الاثارة
والتشويق - أراد أن يضع مبررا قويا لتحول عاطفة لمياء ، ومثل
السداجة التي تعاملت بها بنت الاخشيد مع لمياء ، فقد دخلت في
حوزتها متخفية في شخص جارية ، ولكن هذه الجارية تظهر مع
الوقت - وهو لا يزيد عن يوم وبعض يوم - أنها تعرف الكثير ،
حتى تسألها بنت الاخشيد : « هل تعرفين المعز وقائده ؟ » وكأنها
عما أعدت من طعام ، ولا تجد حرجا في الاخذ بنصيحها ، بل
الاستعانة بها ، مع أن جيش المعز يحاصر المدينة ، ودون هذا السؤال
والجواب عليه تطير آلاف الرقاب !!

سنذكر - مرة أخرى - بالف ليلة وغيرها من القصص الشعبية،
وإن كانت فتاة القيروان لا تبلغ مبلغها بالطبع في المبالغة والاعراب
والاحالة ، ولكنها تقاربها في « سداجة » التصور للسلوك والحوادث
وفي الاعتماد على المفاجأة والمصادفة .

رابعا : التنكر . وهو من أهم الحيل التي يلجأ اليها القاص
الشعبي ، فالتنكر هو الطريقة المفضلة للجمع بين الاعداء في مكان
واحد ، وكشف الاسرار ، وتجنيد العملاء ، وباستثناء موقف وحيد
أنكر فيه سالم شخصه حين التقى بالحسين بن جوهر أوأوشكت
الحقيقة أن تنكشف ، وإن كان الحسين تغافل عنه عامدا اكراها

للمياء ، فان هذه الفتاة الفارسة الجميلة قامت بكل انواع التنكر
الممكنة ، بل كانت تخرج من تنكر الى تنكر . فقد تنكرت في ثياب
غلام صقلي لتغادر قصر المعز الى سراقق ابيها دون رقابة ، ولجأت
الى الحيلة نفسها حين حملت رسالة المعز الى يعقوب بن كلس في
مصر ، فنزلت الخان على انها رجل ، وساعدها الطبيب اليهودي
شالوم فتكرت في زي مساعنة ليتاح لها رؤية سالم وهو يفضي
باسراره في مجلس كافور ، وتنكرت في شخص جارية ، اطلقت على
نفسها اسم « سلامة » لتدخل بيت بنت الاخشيدي وتصبح من
جواردها ، وخرجت من هذا التنكر الى ارتداء ثياب الجند المصريين
لتتمكن من الدخول الى الحسين بن جوهر في محبسه ، ثم تنكرت
اخيرا في ثياب رسول من الفسطاط لتتمكن من مقابلة قائد جيش
المعز ابان حصاره للفسطاط .

خامسا : انتصار ارادة الخير ، فالادب الشعبي حريص على ان
يتضمن درسا اخلاقيا ، فلا ينتصر الشر في النهاية مهما ابدى من
شروب الشراسة والتحايل ، ولا ينوزم الاخيار مهما اصابهم الوهن
او انقض عنهم الانتصار . والمنزى الاخلاقي سمة مستقرة في اعماق
الاداب الشرقية بشكل عام ، ولكنها اساسية في المستوى الشعبي .
من هنا يبدأ حمدان صاحب سجلهاسة متأمرا على المعز ، ثم يتراجع
ويندم ، ويفتدي المعز في النهاية ، وتتنازع لمياء الاهواء ، ولكنها
تستقر على الوفاء ، فلا تنورط في الخيانة أو القتل ، ويظهر المؤلف
سوء احوال مصر وفقر شعبها وترف حكامها في ظل الاخشيدي
وكافور ، ليلبى الفتح الفاطمي انتصارا للحق ، وللعدالة ، وبهذا
الانتصار يقضى على ابي حامد ، وابن اخيه المزعوم سالم ، ولا يلوث
الاخيار ايديهم بدم هذين الشريرين ، بل يتولى الشر تدمير نفسه ،
فيظعن ابو حامد سالما ، ثم يظعن نفسه ، في يوم انتصار جوهر
ودخول الفسطاط ، وهو يوم تبدأ فيه لمياء والحسين الاستعداد
لاتمام الزفاف وانتصار الحب .

ان الطابع الشعبي هو اشد ملائح هذه الرواية ظهورا ، بل لعله القاسم المشترك لروايات جورجي زيدان ، ولا يفهم منه اننا ننتقص به من قيمتها الفنية ، وربما كان الامر بعكس ذلك ، ونحن نعيش عصر الشعوب ، ونرفع شعار التنوير العام حق لكل الناس ، وتعليم التاريخ وتنويره هدف نبيل ، وكتابته بهذا الاسلوب الشائق يكتسب له آلافا من القراء يمثلون القاعدة العريضة التي ينبغي ان نحرص على تنمية معارفها وبخاصة في مجال التاريخ ، وترقية ذوقها وبخاصة في تلذذ اللغة ، وهذا كله متوفر في روايات المؤلف .

الابداع في فتاة القيوان

اذا كان الناقد في كتابته عن عمل فني معين ، او عن فن كاتب ما ، ينبغي ان يحتكم الى الاصول الفنية والقيم الجمالية وحدها ، فانه مضطر - في بعض الحالات او مطالب بان يضع في اعتباره عامل الوقت ، او السياق الفني الذي ابدعت فيه الاعمال التي يتعرض لتحليلها ، فالكتاب السابق زمنيا ، او الرائد ، له فضل السبق او الريادة ، على الذين جاءوا من بعده ، سواء افادوا من تجربته او رفضوها ، حتى وان كانوا اتقن منه فنا . وعامل السبق الزمني ، والاستمرار أيضا حق لتجربة جورجي زيدان ، وبرغم اتجاهه الى التاريخ فان موهبة الكاتب الابداعي متوفرة في رواياته بدرجة تغطي أحيانا على المادة التاريخية ، أو تزاوجها ، وستتوقف عند هذا الجانب في فتاة القيوان .

لقد كان الهدف من الرواية تصوير نشأة الدولة الفاطمية في المغرب ونجاحها في ضم مصر وانتزاعها من التغلبين عليها ، الذين استأثروا بها من قبل وأخرجوها من حوزة العباسيين . وقد أشار الكاتب الى وجود صراع عباسي فاطمي، ولكنه لم يقد منه في تطوير أحداث الرواية ، كما أشار الى وجود وزير منافس لابن كلس ، لعله

الذى يمثل الوجدان المصرى الخالص وهو ابن الفرات ، ولكن هذا الوزير لم يظهر بشخصه على الإطلاق ، واكتفى المؤلف بذكر اسمه وبعض مواقفه من الجيوش الفاطمية ، وخصمه ابن كلس ، كما أشار الكاتب الى العلاقة بين ترف الحكام وضائقة الشعب وفقره ، ولكنه ظل فى موقع التقرير ، وظل الشعب المصرى فى حالة غياب كامل ، يتحدث عنه المؤلف ولا يتيح له الفرصة أن يتحدث عن نفسه ، وبهذا لم يشارك فى صنع الأحداث ، بل لعله لم يشاهدها .

هذه مأخذ أساسية توجه الى طريقة استخدام التاريخ يضاف اليها انظار الوزير اليهودى يعقوب بن كلس بمظهر المنقذ لحياة المعز والحريص على انتصاره ، واذا نطلع فى أثناء الرواية على المنزلة الرفيعة التى يحتلها هذا الوزير لدى كافور حتى أنه كان لا يوقع ورقة الا بعد توقيعه ، لا يظهر هذا الرجل فى صورة الخائن أو العميل المزدوج ، بل يضم المؤلف اليه طبيبا يهوديا ليدور الحوار بينهما ، ويعبر يعقوب من خلاله عن مخاوفه من احتمالات التغيير بعد موت كافور ، وكيف أنه اقتنع بأن مساعدة المعز على ضم مصر هو من مصلحة مصر قبل أن يكون من مصلحته الشخصية !!

وليس ثمة ما يمنع من تصوير الشخصية على هذا النحو ، ولا من سماع دفاعها عما هو اخلاقيا خيانة صريحة ، ولكن هذه الفرصة لم يتح جزء منها لابن الفرات ، أو لاي شخصية تمثل الشعب المصرى ، ونحن لا ننطلق هنا من زاوية وطنية أو قومية ، - وان كنا لا نجد فى ذلك مانعذر عنه - وانما ننطلق من أساس فنى صريح فما دام من أهداف هذه الرواية أن تصور المجتمع والحضارة ، وأن ترصد صراع الدول ، وغلبة البداوة على الترف أو على الحضارة ، فإن الفرصة كانت تستوجب أن نرى أحوال مصر ، وليس الاخشيديين فى مصر ، ولو أن ابن الفرات قد ظهر فى الرواية بالدرجة التى ظهر بها يعقوب بن كلس فإن هذا كان يعلى من درجة الصراع ، وينسج فيه ، ويكشف عن وجدان الشعب المصرى ونظراته الى ما يجرى بين

المتصارعين على أرضه ، ونوع مساهمته في هذا الصراع . لقد أهمل المؤلف هذا كله ، وان لم يهمل أكثر من مرة الإشارة الى ما يعيشه هذا الشعب من بؤس وما يخضع له من قهر ، ولكن لجعل من المعز - البدوي المتكشف - رجل الإنقاذ الموعود !!

ونحن نتناسى عبارة : « لقد مات جورجي زيدان ، وخير ما نصنع له أن نتركه هادئا في قبره » لأنها تصدر عن اقتناع بوجود « شبّهات » معنية ، لأننا لم نفتنح بوجود هذه الشبّهات ، ونعلل منحي المؤلف باهتمامه بالشخصيات التي ابتدئها اهتماما بطنى على الشخصيات التاريخية ، فلمياء هي الشخصية الاولى التي تتحرك، وتتحدث ، وتقابل. وتتكلم. وما ناله أبو حامد يضاهي ما ناله المعز نفسه - بل أن تصويره أكثر اتقاناً على المستويين العضوي والنفسى ، بل أن أم الأمراء - زواج المعز - أكثر ظهوراً وتأثيراً من جوهر قائد المعز ..

ان هذا الاهتمام بالشخصيات الموضوعة له مبرراته لدى مؤلف شعبي النزعة ، يعنى بالمفاجآت والمصادفات والغرائب ، مما لا يمكن تحقيقه من خلال الوجود التاريخي لشخصيات الرواية . ومع هذا فإن هذه الشخصيات القوية بوجودها الانساني في الرواية لم تكن صانعة الاحداث فيها ، فالاحداث تاريخية ، وصانعوها في الرواية هم صانعوها في التاريخ ، وهذه نقطة شديدة الحساسية في الرواية التاريخية ، وقد نجح فيها المؤلف نجاحا ملحوظا ، اذ تمكن من حفظ التوازن بين صدق التاريخ ، وصدق الفن ، كما حفظ التوازن بين كمية الابداع في الحوادث والشخصيات ، وكمية النقل عن المصادر فيهما .

وهكذا ترتب على اعطاء لمياء الدور الاساسى - وهى الوجه الابداعى لشخصية المعز التاريخية ، الطامح لضم مصر - أن تتصل بالذين يشاركونها ميولها ، وعلى رأسهم ابن كلس ، الذى اخذ حجما يفوق ما هو مطلوب لتصوير القلق والنزعات السائلة ، ودفع بالشعب المصرى وممثله الى منطقة الظل .

لن نجادل المؤلف فى تصويره للمعز كرجل خشن بسيط ، ولكن : هل كان يرى ضرورة اكتفاء الرجل بزوجة واحدة ؟ وهل كان هذا مما يشغله فى حوارهِ مع قائده ؟ وهل كانت مصر تنطوى على عداء للشيعية فى أى عصورها ، حتى تضع على أبواب المساجد من ينادى : « معاوية خالى » !! لقد كانت مصر دائنسا ملاذا لآل علي ، محبة لهم ، وفى عصر الرواية بالذات ورغم أنها لم تكن عباسية تماما ، فانها لا يمكن أن تكون أموية بهذه الدرجة ، ولا فى عصر بنى أمية نفسه ، ولا يغنى المؤلف أن يسجل مصدره التاريخى فهذا قصور فى قراءة العصر بشكل شامل ، وكفى فى المصادر من غايات وتزييف يستدعى الجدل فى النقل ، كما أنه ذكر شخصية زعيم مصرى شيعى مهاب له احترامه ، مما يناقض ما ذكره .

مع هذا كله ، استطاع جورجى زيدان أن يكتب رواية فنية ، فيها قدر مناسب من الإبداع ، تميز فيها الحبس الرومانسى بالروح الشعبية ، هدفت الى تعليم التاريخ الاسلامى فى خطوطه العريضة ، اتجهت به الى القارئ العادى وان تطلعت الى مخاطبة سائر القراء ، وظلت - مع هذا - محافظة على نقاء اللغة ، وطبيعية الحوار ، وصلق التحليل ، وهذه جميعا جوانب اضاءة تضاف اليها ، وتستحق التنويه ، فضلا عن دينها القديم فى عنق ، وهذا ما لا أنساه !!

د. محمد حسن عبد الله

فتاة القيروان

رواية تاريخية

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين في افريقية ، ومناقب المعز لدين الله وقائده جوير الى فتح مصر واخراجها من الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨ هـ . ويتخلل ذلك وصف برايرة افريقية وعاداتهم وآخلاقهم ، وبيان الاسباب الاجتماعية التي ساعدت على ذلك الفتح ، ولا سيما انهماك الاخشيديين في الترف واستبدادهم وانقسامهم ، واتحاد جند الفاطميين ومحافظتهم على مناقب البادية

تأليف

عرجي زريان

دار الهلال

أبطال الرواية

| | |
|---------------------------|------------------------|
| * المعز لدين الله | : الخليفة الفاطمي |
| * جوهر الصقلي | : قائد المعز |
| * الأمير حمدون | : حاكم سجلماسة |
| * لمياء (فتاة القيروان) | : ابنة حمدون |
| * أم الأمراء | : زوجة المعز |
| * الحسين | : ابن القائد جوهر |
| * سالم | : خطيب لمياء |
| * أبو حامد | : داعية ضد المعز |
| * كافور الاخشيدى | : ملك مصر |
| * زينب بنت الاخشيد | : بنت ملك مصر السابق |
| * جعفر بن الفرات | : وزير كافور |
| * مسلم بن عبيد الله | : شريف شيعى بمصر |
| * يعقوب بن كلس | : يهودى من رجال الدولة |

مراجع هذه الرواية

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية وللاطلاع التاريخية :

| | |
|-------------------|-------------------|
| * تاريخ القدس | * تاريخ اليمتوبى |
| * مجمع ياقوت | * تاريخ القرينى |
| * تاريخ ابن خلدون | * تاريخ ابن خلكان |

الشيعة العلوية في المغرب

قامى الشيعة في زمن بني أمية في الشام عذابا شديدا من القتل والصلب .. وكذلك في الدولة العباسية ، ولا سيما في أيام المنصور والرشيد والمتوكل ، فحملهم ذلك على الفرار الى أطراف المملكة الاسلامية ، فهاجوا على وجوههم شرقا وغربا ، وكان بين من جاء منهم نحو المغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى ، أخو محمد بن عبد الله الذى بايعه المنصور ثم نكث بيعته .. فأتى ادريس الى مصر وهى يومئذ فى حوزة العباسيين ، فاجتفى فى مكان حضر اليه بعض الشيعة سرا ، ومنهم صاحب البريد ، فحمله الى المغرب فى أيام الرشيد ، فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه ، فأنشأ دولة فى مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ ، على أن هؤلاء لم يسوا أنفسهم خلفاء .. أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة ، فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة الى بنت النبى ، لأن أصحابها ينتسبون اليها ، وتسمى أيضا الدولة العبديّة نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ فى الظهور فى المشرق على يد بنى بويه ، فى أواسط القرن الرابع للهجرة ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد

اشتد ساعدها في المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من مستحقها ، فأشار بعضهم على معز الدولة البويهى أن ينقل الخلافة الى العبيدين أو الى غيرهم من العلويين ، فاعترض على ذلك بعض خاصته قائلا : « ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحليين دمه ، ومتى أجلس أحد العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه .

على ان ظهور الشيعة في الشرق هوئذ على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال اليها ، وكانت عاصمتها أولا المهديبة بأفريقية ، وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن على ، وللمؤرخين في انتسابهم اليه أقوال متناقضة ، فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه ، وان السبب في وقوع الشبهة انكار العباسيين لهذا الانتساب تصغيرا لشأنهم وكان المصريون يحبون عليا منذ صدر الاسلام ، وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ، ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية لأن العلويين استتصروا أولا أهل العراق وفارس . فلما قامت الدولة العباسية وتعقبهم المنصور بالقتل والحبس ، وقتل محمد بن عبد الله الحسنى وبعض أهله من بنى حسن ، وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية ، كان في جملتهم على ابن محمد بن عبد الله ، وقد جاء الى مصر بدعوة من بعض رجال

الشيعة ، لكنه ما لبث أن حُبل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء يتقلب أحوال الخلفاء في بغداد ، فان تولى خليفة يكره العلويين ضيَّق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس . فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر ، باخراج آل أبي طالب الى العراق .. فأخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ، ولما وصلوا الى العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقى في مصر على رأى العلوية .. لأن عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفا الى الخليفة .. يحكى ان رجلا من الجند اقترف ذنبا أوجب جلده ، فأمر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلبه ، فتوسل اليه بحق الحسن والحسين أن يعفو عنه ، فما كان منه الا أن زاده ثلاثين ضربة . ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر ، فورد كتابه الى العامل أن يضرب الجندي المذكور مائة سوط فضربه . وتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين فعلم برجل منهم له دعاة وأنصار ، فقبض عليه وأرسله الى العراق مع أهله وضرب الذين بايعوه ..

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، كتب الى عامله بمصر أن لا يضمن علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من القسطنطين الى طرف من أطراف مصر ، وأن يتمتعهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قَبِل قول خصمهم فيهم بغير أن يطالب ببينة .. فقاسى العلويون بسبب ذلك عذابا شديدا ..

ولما استقل أحمد بن طولون بإمارة مصر سنة ٢٥٤ هـ ، اضطهد الشيعة لأنه تركى ، ولأنه على رأى الخليفة العباسى ، فاقتصر آثار العلويين وحاربهم مرارا .. حتى اذا ضعف أمر بنى طولون بمصر واختلت أحوال الدولة العباسية فى بغداد ، تغلب آل بويه عليها فى القرن الرابع للهجرة ، أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى ، فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ ، بقيادة جوهر الصقلى ، كانت الأذهان متاهة لقبول تلك الدعوة ، ففتح جوهر مصر فى سهولة ويسر .

- ٢ -

القيروان والمنصورية

القيروان من المدن الاسلامية التى اختطها العرب بعد الفتح ، كالبصرة ، والكوفة ، والفسطاط .. اختطها عقبة بن نافع الفهري سنة ٦٠ للهجرة فى موقع قريب من تونس ، وهو الذى افتتح أكثر المغرب . وكانت القيروان فى زمن روايتنا هذه - فى أواسط القرن الرابع للهجرة - عاصمة بلاد المغرب ، وقد تقاطر الناس من أنحاء العالم لتعميرها ، فأقام بها العرب من قرش وسائر البطون فى مصر ، وربيعة ، وقحطان ، وألوان من العجم من أهل خراسان ، وألوان من البربر ، والروم وأشباه ذلك . وكانوا يشربون من ماء المطر ينصب من الأودية الى برك عظام يقال لها المؤاجل ، فمنها يشرب السقاة .. ولهم واد يسمى وادى السراويل فى قبلة المدينة

وكان بنو الأغلب حين نزلوا الى القيروان في القرن الثالث ،
 قد ابتنوا على بعد ميلين قصورا لأنفسهم ، ثم ابتنوا محلة على
 بعد ثمانية أميال منها سموها رقادة .. فلما نزع اليها الفاطميون
 في أول القرن الرابع للهجرة ، ابتنوا لأنفسهم حصنا مستديرا
 بالقرب منها ، سموه صبرة ويسمى أيضا المنصورية ، جعلوه
 مستقرا لهم ولأهلهم .. كما فعل المنصور ببناء بغداد قبل ذلك
 بقرنين . فالمنصورية بلدة مستديرة الشكل قرب القيروان ، بناها
 اسماعيل بن القاسم بن عبد الله المهدي سنة ٣٣٧ هـ ، واستوطنها ،
 وجعل قصره في وسطها ، والماء يجري فيها ، وأنشأ بها أسواقا
 جميلة ، وجامعا ، وكان شئك سورها اثني عشر ذراعا .. وهي
 منفصلة عن القيروان بعرض الطريق . ومن أبوابها باب الفتوح ،
 وباب زويلة ، وباب وادي القصارين ، وكلها مصفحة بالحديد^(١)
 وأول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن
 جعفر الصادق ، من نسل الحسين بن فاطمة الزهراء . قام له
 بالدعوة رجل شيعي اسمه أبو عبد الله الشيعي بمساعدة قبائل
 البربر ، وخصوصا كتامة وصنهاجة ، كما قام أبو مسلم الخراساني
 في المشرق بالدعوة للعباسيين بمساعدة الخراسانيين .. ولما استقر
 لعبيد الله المهدي الملك قتل أبا عبد الله الشيعي كما قتل المنصور
 أبا مسلم^(٢)

وكان عبيد الله في أول الدعوة يقيم في المهديّة على ساحل
 تونس ، ثم نقل الى القيروان ، وتوفي سنة ٣٣٢ هـ ، فخلفه

(١) ياقوت - الجزء الثالث ، والقدس ، واليعقوبي

(٢) ابن خلدون - الجزء الرابع

ابنه القاسم ولقب القائم بأمر الله ، وتوفي سنة ٣٣٤ هـ ، فخلفه
 ابنه المنصور أبو طاهر ، وتوفي سنة ٣٤١ هـ ، فخلفه المعز
 لدين الله ، وعلى عهده فتحت مصر على يد قائده جوهر
 الصقلي . وفي أيامهما جرت حوادث هذه الرواية

— ٣ —

المعز لدين الله وقائده جوهر

خرج المعز في ليلة مقمرة ، من ليالى سنة ٣٥٧ هـ الى حديقة
 قصره في المنصورة قرب القیروان ، وفي الحديقة بركة واسعة
 يصب فيها الماء من نبع ، مهتد المعز وصول مائه اليها من جبل
 بقرب المنصورة .. وفرقه بأنابيب الرصاص الى قصور المدينة
 ومسجدها وأسواقها . وينصرف ما بقى من ذلك الماء الى
 القیروان . وقد علمت ان المنصورة خاصة بالخليفة وأهله ،
 وحاشيته وأعوانه لا يشاركون فيها أحد .. وقد أحاطوها بسور
 ضخيم عال ، فهي أشبه بالحصون منها بالمدن . وهو هناك في
 مأمن من غدر الفادرين لأنها محاطة بسور منيع ، أبوابه مصفحة
 بالحديد ثقيل وتفتح عند الحاجة

خرج المعز في تلك الليلة وهو مطمئن خاطر لا يخشى غدرا ..
 حتى اذا توغل في الحديقة ، ولا شيء فيها من زخارف المدينة ،
 أشرف على تلك البركة .. وهى ليست مما يجتذب الأنظار أو
 يستلفت الانتباه ، لكن ' : حديثا يطرب له المعز ولا يطرب له
 سواه الا قائده جوهر نبطل الص .. وكان قد أسكنه في مدينته

واختصه بقصر من قصورها ، وبألف في إكرامه ورفع منزلته
وصل إلى البركة والقمر قد تكبد السماء ، فأسرع البستاني
إلى مقعد معد لجلوس الخليفة .. وكان أهل القصر في تلك الساعة
نياما حتى الخدم .. وإنما أرقه أمر شغل خاطره وأخذ بمجامع
قلبه لم يكشف به أحدا من أعوانه ، لأنه كان حريصا على سره
لا يطلع عليه أحدا إلا إذا نصح وآذ أخراجه إلى حيز الفعل ..
شأن رجال العمل وأهل الحزم .. على أنه ضاق ذروا في تلك الليلة
عن الاحتفاظ بذلك السر ، فخطر له أن يكشف به قائده جوهر
وكان المزمع على الهمة ، عظيم الهمة ، واسع المطامع ، بلغ
الأربعين من عمره .. وقد لبس في تلك الليلة رداء بسيطا أبيض
اللون ، والتفت بالعباءة ، وجعل على رأسه عمامة صغيرة . فلما
جلس على المقعد ، صفتى ونادى « خفيف » وهو غلام صقلبي كان
قد اختصه بخدمته فحضر ، فقال : « ادع قائدنا جوهر »

فمضى « خفيف » ، وما لبث أن عاد ومعه جوهر .. وهو
كهل في السادسة والخمسين من عمره ، وقد وخطه الشيب ،
وكان طويل القامة ثابت الجأش عظيم الهمة . وكان حين ذهب
إليه رسول المزمع قد أوى إلى فراشه ، فنهض وارتدى ثيابه
وبادر إلى لقاء مولاه . فلما شعر المزمع بقدمه تحفز للنهوض ،
ورحب به وبشئ له . . . فخجل جوهر من ذلك الإكرام فأكب
على يدي الخليفة فقبلها وقبل ركبتيه ، وأوشك أن يقبل
قدميه ، فأنهضه المزمع ودعاه للجلوس بجانبه ، فجلس متأدبا
فبادره المزمع قائلا : « مرحبا بقائدنا الحازم وحبيينا الباسل »

فنادب جواهر وقال : « انى عبد مولانا أمير المؤمنين ضارب
بسيفه ، وأفديه بروحى »

قال المعز : « يله أنت سيفنا المسلول ، وجاهى دولتنا .. وانى
لا أجلس بجوار هذه البركة وأرى السيفك يسبح فيها الا
ذكرت بلامك فى سبيل الحق . ان هذا السيفك يشهد بما لك من
الإفضال على هذه الدولة . أليس هذه الأسماك من نسل ما
جعلته لنا من سمك البحر المحيط فى القلل يوم فتحت افرقيا
وأخضعت قبائلها . انى لا أنسى يوم جئنا بتلك القلل وفيها
السمك من ذلك البحر العظيم اشارة الى ما أدركته من تلك
الفتوح العظيمة التى لم يسبق اليها سواك ، فلا غرو اذا
اختصصتك بصدقتى وفضلتك على سائر بطاتى وأهلى »

فخجل جواهر من هذا الاطراء وقال : « العفو يا مولاي انى
لم أفعل شيئا الا بأسفك .. وانما نصرنى الله بك لأنك سلاله
أحق الناس بالخلافة ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم
وصهره .. أنت ابن فاطمة الزهراء فكيف يعلى عليه »

فأسكته المعز قائلا : « ان الحق لا يعلو دائما ، وكم ظيل
أجدادى العلويون يجاهدون ، وقد ذاقوا أنواع العذاب ممن
استأثر بالسيادة دونهم . ولو أتيح لهم سيف مثل سيفك
لغلبوا .. ألم تفتح هذه البلاد من هنا الى البحر المحيط ،
وأخضعت أهلها .. بارك الله فيك .. وهذا ما لا ريب فيه ، فاذا
رفعنا منزلتك فقد أعطيناك حقا .. » وسكت وقد بدا الاهتمام
فى وجهه وجواهر ينتظر ما يبدو منه ، لاعتقاده انه لم يدعه

في تلك الساعة الا لأمر هام .. فاعتدل في مجلسه وتوجه بكليته
نحوه ، كأنه يستفهم عما يريد ..

أما المعز فقد يده وأخرج من تحت العباءة قضيباً من عود
طوله شبر ونصف شبر مكسو بالذهب . فلما رآه جوهر ،
أدرك أنه قضيب الملك ، فتأدب احتراماً له .. فابتسره المعز
قائلاً : « أليس هذا قضيب الملك يا جوهر ؟ »

قال جوهر : « نعم يا مولاي .. انه قضيب الحق ، وصاحبه
صاحب الخلافة الحقة »

قال المعز : « هل يكون في الدنيا خليفتان على حق ؟ »

فأدرك جوهر انه يشير الى ان خلافة العباسيين في بغداد على
غير الحق ، وقهم ما وراء ذلك من الأمور .. فقال : « كلا
ياسيدي ، ان النبی واحد وخليفته واحد »

قال المعز : « الى متى تترك أولئك القوم في غيهم ؟ »

فأجاب جوهر على الفور : « تتركهم حتى يأمر مولانا أمير
المؤمنين »

فأكبر المعز هذا الجواب الدال على حزم جوهر وتفاويه في
سبيل نصرة العلويين ، فابتسم وقد أشرق وجهه ، وكان القمر
مواجهاً له بحيث يظهر ذلك الجوهرة وقال : « بارك الله فيك ،
هذا ما كنت أرجوه منك وقد جال هذا الفكر في خاطري منذ
أعوام . وأنا أتردد فيه ، أستطلع المنجمين ولا أبوح به لأحد
حتى اذا كانت الليلة رأيت أن أسره اليك ، وكنت أحسبه جديداً
عليك فاذا أنت أكثر تفكيراً فيه مني . أما وقد اطلمت على سرى

وأنت الوحيد الذى اطلع عليه منى ، فأرجو أن تشير على »
 قال جوهر : « ليس لهذا العبد أن يشير ، وإنما عليه أن
 يطيع .. فوالله لو أمرتني أن أركب الأسته وأذهب فى الأرض
 فاتحا لعلت لعلى انى ذاهب فى نصره الحق »
 قال المعز : « لله درك من قائد باسل وصديق حميم . ولكن
 الأمور مرهونة بأوقاتها .. فالآن اكتم ما دار بيننا واخبرنى عن
 رأيك فى قوادنا »

قال جوهر : « انهم نعم الرجال .. يتفانون فى نصره مولانا ،
 ولا سيما شيوخ كتامة ، فانهم قاموا بنصرة أمير المؤمنين خير
 قيام وعليهم الممول فى أمرنا »

— ع —

أبو عبد الله الشيعى

فسكت المعز برهة وعاد الى الاهتمام ، وأخذ يلعب قضيب
 الملك بين أصابعه وهو يتأمل ثم قال : « ولكننى أخاف عليهم
 الجنوح الى الترف ، فيأخذهم ما أخذ أعداءنا فى بغداد من
 أسباب المدينة حتى صاروا الى ما صاروا اليه من الذل ، فغلبهم
 مواليهم الأتراك والديلم ولم يتركوا لهم من الخلافة الا اسمها .
 ولا أخفى عنك انى لم أطلع فىهم الا حين بلغنى من ترفهم
 وانهماكهم واسترسالهم فى الملذات ، فاذا أصاب رجالنا ما
 أصابهم صرنا الى مصيرهم »
 قال جوهر : « ليس هذا ما أخشاه ياسيدى ، فإن توسد

بعيدون عن الترف . وكيف نخشى عليهم من ذلك وهم يرون أمير المؤمنين ابن بنت الرسول يتولى الدولة بنفسه .. يجلس في برد الشتاء على اللبود وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب ، وبين يديه دواة وكتب ، لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتقلب في الدياج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر كما يفعل أرباب الدنيا (١) .. كيف يروته في مثل ذلك لا يفضل أحدا منهم في أحوالهم ، بل هو مشغول بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب ، يجبب عنها بخطه ، لا يشتغل بشيء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحهم ويعمر بلادهم ، ويذل أعداءهم .

ثم تخشى عليهم الانغماس في الترف ؟
فأعجب المعز بما سمعه منه فقال : « ان هذا لا يكفى يا أبا الحسين .. انى أخاف على رجالى الاستكثار من النساء ، انى لأرى للواحد منهم أن يقتنى غير امرأة واحدة لثلا يتنقص عيشهم ويعود الضرر عليهم ، وتنهك أبدانهم وتذهب قوتهم . وكثيرا ما أوصيتهم بذلك ليقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب »
قال جوهر : « ان سهر مولاي على دولته ببثل ما تقدم كقول بالنجاة من الوقوع فيما نخشاه ، ولكننى أخشى .. » وسكت وهو يتشغل باصلاح عماته وخماره
فلاحظ المعز فى وجهه شيئا يكتمه ، فقال : « وما الذى

تخشاه يا جوهر ؟ .. قل .. »
قال جوهر : « أخشى الدسائس السرية »

قال المعز : « وماذا تعنى ؟ أى الدسائس ؟ »

قال جوهر : « أخشى قوما لا نعرفهم ولا نعرف نياتهم »

قال المعز : « من تعنى ؟ .. كيف نخشاهم ونحن لا نعرفهم ؟ »

قال جوهر : « لو عرفتهم لبددت شملهم ، ولكننى أتوسم خطرا من جماعة يزعمون انهم موتورون .. لا أعرف من هم ،

ولكننى أتسم رائحة ذلك من بعض الأحاديث »

قال المعز : « صرّح يا جوهر .. انك فى مأمن »

قال جوهر : « ألا تعلم يا سيدي ما أصاب آيا عبد الله الشيعى الذى قام بالدعوة فى أول أمرها ، ومهد الدولة لجدك المهدى رحمه الله ؟ »

فلما سمع اسم أبى عبد الله تغير لونه ، ولكنه أظهر الاستخفاف

وقال : « أظنك تعنى ان ذلك الرجل قتل مظلوما »

قال جوهر : « لا أعنى ذلك ولكن بين أصحابه الذين أعانوه

فى نصره دعوة مولانا الملك من يتوهم انه ظلم ، لأنه جمع القبائل لنصرة مولانا .. ولما استتب له الأمر قتله وقتل أخاه أبا العباس .

أما أنا فأعتقد انه قتل بعد أن تغيرت نواياه وطمع فى الأمر لنفسه ،

فلا بد أن يكون لأصحابه مطمع فى افساد أمرنا وان كنت لا أخشى فوزهم . ولو سألتنى عن واحد منهم لاعترفت بأنى لا أعرف

أحدا ، وانما هو سوء الظن لا بد منه فى مثل هذه الحال »

فاعتدل المعز فى مجلسه وقال : « صلقت ولكن لاخوف من

ذلك ، غير انى أسمع ان ذلك المقتول كان عنده مال خباء فى

مكان لا أعرفه .. وقد تعجل جدى فى قتله قبل معرفة موضع

هذا المال . لقد سمعت انه مال كثير .. ولا يخفى عليك شدة الحاجة الى المال في هذه الأحوال «
قال جوهر : « نعم ياسيدي ، سمعت يخبر المال المخبئ .. لكننى لا أعرف مكانه .. ولو عرفته لأخرجته ، ولا يبعد انه قد تبعر ، وسأولى البحث عنه »

قال المعز : « ومع ذلك لا يهنا المال ، وعندنا صناديق منه قد غاب عنى ترتيبها لكثرتها .. وقد ادخرتها للقيام بذلك العمل ، لعلنى ان أعداءنا قد أصابهم الفقر حتى تغيرت قلوب الناس عليهم .. »

قال جوهر : « صدق مولاي ولكننى أرى مع ذلك أن نحتاط ونسئ الظن حتى برجالنا وأمرء القبائل البربرية ، ولا سيما الذين كانوا حكاما وعرفوا الدسائس .. أخص منهم حمدون صاحب سجلماة ، فان هذا الرجل حاربهنا وهو صاحب دولة ، فأخضعناه وسلم لكننى أحسبه مكرها ، فاذا رأى مولاي أن تقيده برهن كان ذلك أقرب الى الصواب »

قال المعز : « وما هو الرهن ؟ »

قال جوهر : « لهذا الأمير ابنة اسمها لمياء ، هو شديد التعلق بها ، وشاهدت منها فى أثناء حربنا معه بسالة وأتفة لم أعهد لها فى فتاة قبلها ، فقد كانت تحارب كأكبر القواد على جواد من خير الجياد . ولم نستطع القبض عليها الا بعد جهد كبير ، وقد أراد الفارس الذى قبض عليها أن يتخذها سبية فمنعته وأتقذتها من السبي وأكرمتها .. ولا ريب ان والدها يحبها ويحب بها ، فاذا

أخذناها رهنا على تصرفه في طاعتنا لا يقدم على الحياة »

قال المعز : « قد رأيت حسنا .. وأين هي الآن ؟ »

قال جوهر : « هي في فسطاط أبيها المعروف في هذا السهل خارج القيروان »

قال المعز : « ولكنني أخشى أن تثير في نفسه الحقد إذا طلبناها منه الآن »

قال جوهر : « لاخوف من ذلك ، فاني أطلبها منه لتكون مكرمة معززة في قصر أمير المؤمنين ، في خدمة أم الأمراء (زوجة المعز) وهذا شرف لا يتأتى لأحد سواه ، وأنا على يقين ان مولاتنا أم الأمراء سترتاح الى رؤيتها .. فان في وجهها مهابة وجبالا مع تعقل وبسالة ، وقد تحققت مع ذلك انها من أشد الناس غيرة على دعوة الحق فانها تجل الامام على وتنصرشيعة ، مما لم أره في سواها من جماعة البربر كافة .. ومن جهة أخرى أرى أن نصاهره فنكتسب تأييد حزبه »

قال المعز : « وكيف ذلك ؟ »

قال جوهر : « سأجعل القصد من نقل ابنته الى قصر أم الأمراء اني أريد أن أخذها زوجة لابني الحسين . وهو بلا شك سيكون سعيدا بهذا الزواج ، فنكسب الفتاة ونكسب قلب أبيها »

قال المعز : « حسنا .. افعل بارك الله فيك ، ولا حرمننا من سعيك الحميد » وتزحزح الخليفة فنهض جوهر وأستأذن في الانصراف

حمدون

خرج جوهر من حضرة المعز .. وقضى بقية ليلته يفكر فيما سمعه ، وكان شديد الاهتمام بأمور الدولة ، كثير الغيرة على الدعوة العبيدية . وكان ما أُتِّحَ به للمعز عن الدسائس شيعة أبى عبد الله الشيعى حقيقة وليس وهما .. ولكن تلك الأحزاب لم تكن تستطيع الظهور لتغلب القوة ، فهي تتربص فرصة للوثوب على الدولة .. وكان يخاف صاحب سجلماسة على الخصوص ، لأنه صاحب سطوة وله حزب كبير ، وهو مجازف لا يقدر العواقب . فرأى من حسن السياسة أن يقوده بالرهن على تلك الصورة ، ثم يقربه بالزواج فيخطب ابنته لابنه فيكتسب ثقته ومساعدته أو يتخلص من شره على الأقل

ولم يكن صاحب سجلماسة يشعر بشيء مما فى خاطر جوهر عليه ، بل كان يحسبه فى غفلة عن حركاته وخطواته ، ففى صباح ذلك اليوم جاءه غلام جوهر يدعوه اليه فى قصره بالمنصورة فبادر الى ذلك . وكان حمدون هذا كهلا طويلا القامة دقيقها ، أسود العينين غائرها لا تستقر حدقتاهما على حال . ولم يكن عنده من الأولاد غير لمياء . وماتت والدتها فتزوج غيرها ، وترك تربية الابنة ابنى رجل من خاصته كان شديد التشيع لأهل البيت .. فحسنت على ذلك . وأما حمدون فلم يكن تشيعه الا ظاهريا .. بينما مع تيار القوة . ولم يترك لنفسه لاختر أن يكون

مهديا يدعو الناس الى نفسه ، اذ كانت مطامعه أعلى منا يخطر للبشر على بال . وكان قد هم أن يدعى المهديوه وهو في سجناسه ، ولكنه غلب على أمره وقيد أسيرا الى القيروان ، فأظهر الطاعة على غل .. وشعر جوه بشىء من ذلك كما رأيت

ولم يكن حمدون مع سعة مطامعه — من أهل الدهاء ، لكنه كان اذا خطر له أمر يادر الى تنفيذة لا يبالى بما قد يكون فى سبيله من الخطر . وكان قد نال عرش سجناسه بالارث من أجداده ، وعمل فى خدمته شيخ اسمه أبوحامد ، زعم أنه من أهل الكرامة ، نزل عليه منذ أعوام ومعه شاب جميل الصورة اسمه سالم ، قال انه ابن أخيه ، وهو فارس شجاع .. نزل كلاهما فى دار صاحب سجناسه وهو فى ابان امارته . وكان سالم يرى لمياء وهى تذهب وتجيء أو تركب الجواد ، والبربر أقل حجا لنسائهم من سائر المسلمين ، ف وقعت من نفسه موقعا جميلا وتعارفا وتحابا ، فتقدم أبو حامد الى حمدون يخطب لمياء الى ابن أخيه سالم فوافق .. وقبل أن يحين موعد الزواج أتى جوهر القائد بجيشه وفتح سجناسه ، وأسر أميرها وأهله وفى جملتهم لمياء . وأبو حامد ، ولم يقفوا لسالم على خبر فظنوه قتل فى المعركة ، فبكته لمياء وهى فى ريب من أمره

أما حمدون فكان يعتقد ان سالما قتل لالحالة ، وكان قد شاهد شبحا مثله ملقى فى أرض المعركة أثناء القتال . ولم يمض على قيامهم من القيروان أيام قليلة حتى خطر لجوهر ما خطر له ، فبعث اليه فى ذلك الصباح .. فأتى الى القصر وحده فبالغ فى

أكرامه والترحيب به ، وهو لا يعلم سبب هذا الأكرام . ثم
قال جوهر : « هل تعلم لماذا دعوتك أيها الأمير ؟ »
قال حمدون : « كلا ياسيدي .. »

قال جوهر : « أنت تعلم أننا كنا بالأمس أعداء يستغل أحدهما
دم الآخر ، فصرنا الآن إخوانا تعاون على نصرة الحق وخدمة
أمير المؤمنين ، وأجبت أن تزيد تلك الروابط متانة فأرجو أن
توافقني على ذلك »

فلم يفهم حمدون قصده ، لكنه بادر إلى الثناء على هذه
الرغبة فقال : « ان ذلك غاية منى ، وفيه شرف لى .. »
قال جوهر : « لا شرف ولا تشريف .. هل تعرف ولدنا
الحسين ؟ »

قال حمدون : « نعم أعرفه .. حفظه الله »
قال جوهر : « وأنا أعرف ابنتك لمياء .. وقد شهدت منها
في أثناء حربنا ما حجب اللى أن تكون زوجة لابن الحسين ،
وأنت تعلم مقدار حبى له .. فبهذا المقدار سيكون حبى لها »
فلما سمع حمدون ذلك الطلب أطرق هنيهة يفكر ، ثم
أبرقت أساريره .. ليس رغبة في الشرف الذى سيناله من مصاهرة
أكبر قواد المعز الفاطمى ، ولكنه توسم من ذلك عوناً على أمر
قام في نفسه فقال : « ان مثلى يامولاي لا يطمع في مثل ذلك
فكيف بأكثر منه »

فأثنى جوهر على قبوله وقال له : « لكننى زيادة في رفعة قدرها
أحب أن يكون العقد عليها في منزل أم الأمراء زوج أمير المؤمنين ،

وخصوصا لأن لمياء يتيمة الأم ، فهل ترى بأسا في ذلك ؟ »
فنهض وهو يظهر الامتنان وقال : « أى بأس أرى فيه ؟ انه
شرف عظيم »

قال جوهر : « انى مرسل الساعة غلامى اليك فى الفسقاط
فترسل معه لمياء الى دار أمير المؤمنين »

قال حمدون : « سمعا وطاعة » وخرج وقد أدهشه توفيقه الى
فرصة طالما تمنّاها .. وسار توا الى صديقه أبى حامد ، فقصّ عليه
مادار بينه وبين جوهر ، وأظهر انه يستشيريه فصاح فيه : « يعرض
عليك أن تكون لك يد وعينان فى قصر المعز وقائده وتستشيرني ؟
اقبل .. » قال ذلك وهو يحك ذقنه ليخفى ما خاخره من الفرح
بتلك البشارة ، وله فى ذلك غرض يشبه غرض حمدون

فقال حمدون : « لم أتردد فى قبول ذلك الطلب لحظّة ..
ولكننى توقفت أولا لأن ولدنا سالما أولى بها و . . . »
ققطع أبو حامد كلامه قائلا : « دع سالما الآن انه بعيد ولا
ندرى متى يعود »

فاطمأن حمدون اذ ظهر له من ذلك القول ان سالما لا يزال
حيّا وكان يحسبه قد قتل فقال : « وأين سالم الآن ؟ »
قال أبو حامد : « ليس قريبا .. وسأخبرك بمكانه . أما الآن
فلا ترفض ما عرضه عليك القائد الفاتح .. » وتنحنج

فذهب حمدون للحال وقص الخبر على ابنته وحسن لها
الذهاب ، فامتعت فى بادئ الأمر لأنها كانت تحب سالما .. فأكد
لها ان سالما قتل أو هرب ولا أمل فى رجوعه . ونظرا لما يعلمه

من تعلقها بأهل البيت ، ضرب لها على وتر الدين فقال : « انك تكونين هناك قرب أمير المؤمنين ابن بنت الرسول »
فرضيت وذهبت مع الرسول الى المنصورة حتى بلغت قصر المعز ..

- ٦ -

لمياء فتاة القيروان

وكان المعز قد بات تلك الليلة وقد هدأت نفسه ، بعد ما دار بينه وبين قائده من الحديث . وفي صباح اليوم التالي قام بفروض الصلاة ، ثم ذهب الى العمل ، وبينما هو جالس في ديوانه ينظر في أعماله ويقرأ كتب العمال ويحجب عليها بنفسه اذ جاءه غلامه خفيف الصلبي واستأذنه في كلمة فقال : « ما وراءك ؟ »
قال خفيف : « ان مولاي القائد بعث فتاة قال انها لقصر مولانا .. »

فقال المعز : « ادخلها .. أين هي ؟ »

فدخلت الفتاة وهي تنظر الى ما في القاعة من صناديق الكتب ، وليس فيها غير الخليفة وكاتب . وكانت لمياء طويلة القامة أشبه في مشيتها بالرجال منها بالنساء مع جمال وهيبة .. سراء اللون كبيرة العينين ، اذا نظرت فيهما توهمت أنهما تخاطبانك بصيغة الأمر .. مقوسة الحاجبين متناسبة الملامح ، غليظة الشفتين قليلا عريضة الوجنتين ، مما يدل على القوة .. حول رأسها عصابة تدلت منها خيوط في أطرافها كرات من الذهب ، أو قطع أخرى من المصوغات ، وقد أرسل شعرها على كتفيها متجعدا وأحاط

به رداء كالخمار ، عثقد في أعلى الصدر بعروة من الذهب ..
وحول عنقها عقود جميلة

فلما وقع نظر المعز عليها لم يتمالك عن الاعجاب بها ،
وخصوصا بعد ما سمعه عنها من قائده ، فاستدناها وهش لها
تلطفًا وقال : « تقدمي يا فتاة ، ما اسمك ؟ »

قالت : « لمياء يا أمير المؤمنين »

قال المعز : « لعلك ابنة نصيرنا صاحب سجلماسة ؟ »

قالت لمياء : « نعم يا مولاي .. »

قال المعز : « وهل سرتك أن تكوني في قصرنا ؟ »

قالت لمياء : « هذا شرف لا أستحقه » وابتسمت بامتنان

قال المعز : « بل أنت أهل لأكثر من ذلك .. لعلك متزوجة ؟ »

فلما سمعت سؤاله أطرقت ، وظهر الخجل على محياها .. ولم

تجيب ..

فعلم أنها عذراء فاكتفى بذلك الجواب ، وقال لها : « اذهبي

مع غلامنا هذا الى أم الأمراء ، فاني أوصيتها بك خيرا ، وستحسن

وفادتك .. ولكنني أرجو أن تكوني حسنة الاعتقاد بنا »

فرفعت بصرها نحوه وقالت : « اذا كنت تعنى غير الاعتقاد

بصحة خلافة آل البيت فلا .. »

فأعجب بصراحة جوابها وقال : « انك لنعم الفتاة العلوية

لولا ما أراه من كثرة الحلى على رأسك وصدرك ، فانتا

لا تؤمن بالجنوح الى شئ من أسباب الترف »

ولم يتم كلامه حتى أسرع بيدها الى رأسها وصدرها ،

ونزعت ما كان عليهما من الخلى والعقود ورمت بها الى الأرض
وقالت : « لم أكن أعلم بذلك ياسيدى .. وقد كان لى بما
شاهدته من بساطة ردائك عبرة وعظة .. هذه جواهرى أرميها
تحت قدميك »

فازداد المعز فرحا بها ، وابتسم لها ابتسام الرضا والاعجاب
وقال : « بورك فيك .. انك ستالين أضعاف ما نزعت من
الجواهر ، فضلا عن سرور أم الأمراء بك » وأشار الى الصقلبي
فخرج معها ، وعاد المعز الى عمله ..

- ٧ -

أم الأمراء

وكانت أم الأمراء امرأة عاقلة حكيمة ، ذات مبرات وحسنات ،
ولها رأى وحزم . وكثيرا ما كان المعز يباحثها ويستشيرها ، وكان
قد أخبرها فى ذلك الصباح عن لمياء وأوصاها بها

دخلت لمياء قصر أم الأمراء ، ولو كانت ممن دخل قصور
الأمراء فى مصر أو بغداد فى ذلك العهد لحسبته منزل الخدم ..
لأنه كان من البساطة بحيث يقرب من حال البداوة .. تلك كانت
سياسة المعز خوفا من عواقب الترف ، لعلمه أن الترف والرخاء
من أكبر العوامل فى سقوط الدولة .. كما علمت من كلامه لقائده
وكانت أم الأمراء جالسة فى غرفتها على بساط من السجاد
بلاوشى ولا تطريز ، وعليه مساند من الديباج البسيط .. وتد
لبست ملابس بسيطة واتشحت بمطرف ، وأرسلت شبرها

مضغفورا بأبسط مايكون .. فسرت لمياء لتسرعها في نزع حليها قبل الدخول على تلك الأميرة . فتقدم خفيف الصلبي أولا ، فأبنا أم الأمراء بمجىء لمياء .. فأمرتها أن تتقدم فتقدمت ، ولم يقع نظر لمياء على أم الأمراء حتى استأنست بها ، كأنها رببت في منزلها ، وأشارت اليها أم الأمراء أن تجلس فجلست متأدبة ، وانصرف خفيف فقالت أم الأمراء : « أهلا بالضييفة الجديدة » فقالت لمياء : « أشكرك ياسيدتى على هذا اللطف .. انما أنا جارية في قصرك »

قالت أم الأمراء : « بل أنت ضيفة مكرمة ، فان قائدنا جواهر أثنى كثيرا على أدبك وتعقلك ، وقال انه لم يرض لك بالعبودية فأطلق سراحك »

قالت وهى تنظر في البساط مبالغة في التأدب : « ان ذلك فضل كبير له ، لا أنساه طول العمر .. أما فضل مولاتى زوج أمير المؤمنين فأنى أعجز عن التعبير عنه .. » فتجاهلت أم الأمراء عند سماع ذلك الاطراء ، وغيرت الحديث فقالت : « لم أفعل شيئا بعد .. ولعلى أستطيع أن أفعله في المستقبل ، اذ يكون لك قصر مثل هذا القصر تعيشين فيه آمرة ناهية .. لأن مثلك ينبغى أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الرجال »

فهمت لمياء انها تشير الى رغبتها في تزويجها من أحد الأمراء ، فلم يعجبها ذلك لأنها متعلقة القلب بسواه .. فبدا ذلك في وجهها وتساقطت من عينيها دمعتان تدرجتا على خديها ، فمسحتهما

بكمها وهى تبسم اخفاء لما ظهر من عواطفها ، فأدركت أم الأمر ذلك فبادرتها قائلة : « يظهر انك مشغولة القلب بسوانا ؟ » فلم تتمالك لمياء عن البكاء وهى تخجل من بكائها ، فغطت وجهها بيديها ، وكأنها استضعفت نفسها وأنفت من ظهورضعفها ، فتجلدت وتشاغت بالابتسام وهى تنظر الى أم الأمراء والدمع يتلألأ فى عينيها .. فشاركها أم الأمراء احساسها ، وأرادت استطلاع حقيقة حالها لعلها تنفعها فى شئ ، فدنت منها وهى تظهر الاهتمام بها وقالت : « لايشق عليك تعرضى لك فى أمر تريدن كتمانها ، وانما أردت أن أباسطك . ونظرا لما توسمت فيك من اللطف أردت أن أكرمك بأحسن رجالنا ، والظاهر انك مشغولة الحاطر بسواه . ألا تجدينى أهلا لثقتك فتطلعينى على شرك ، وان كانت هذه أول مرة رأيتى فيها ؟ »

فغلب الججل على لمياء ، وقالت : « العفو ياسيدتى .. انك تتنازلين كثيرا فى مخاطبتى ، وما أنا أهل لشيء من ذلك »

فأحست أم الأمراء انها ضايقتهما فى الحديث لأول مقابلة ، فرأت أن تتركها على أن تعود الى هذا البحث فى فرصة أخرى فقالت : « بل أنت خير لأحسن منه .. والآن يحق لك أن تستريحى » وصفت فأتتها قيصة الدار ، فأمرتها أن تعد غرفة خاصة للضيفة ، وأن تساعدها فى تبديل ثيابها وتؤانسها .. فنهضت لمياء ومشت مع القيصة ، وقد تنبعت عواطفها وهاجت أشجانها

فأخذتها القيصة الى غرفة من القصر تطل على الحديقة التى فيها البركة من ناحية ، وعلى المسجد الجامع من جهة أخرى ، وساعدتها

في بديل ثيابها ، فألبستها ثوبا من أثواب الأميرات ، وهو مع ارتفاع ثمنه بسيط في زيّه بلا زركشة ولا تألق.. وقد أعجبت لمياء بكل ما شاهدته هناك من أدلة البساطة والجنوح انى العمل .
وقلما وجدت شيئا يراد به الزخرفة فقط . مع ان قصر أبيها في سجلماة لم يكن يخلو من الترف والرخاء يقلد بهما حضارة بغداد أو مصر أو الأندلس ، فيأتى من كل منها بأفخر مصنوعات..
وأما المعز فكان يميل الى التمسك بالبساطة والبعد عن الترف

— ٨ —

المناجاة

ولما نخلت لمياء في تلك الغرفة راحت تستعيد ما مر بها من الأحداث في ذلك اليوم.. لقد باتت أمس في فسطاط أبيها خارج القيروان ، وهى الآن في قصر الخليفة المعز لدين الله معززة مكرمة . وتذكرت أن المعز من نسل الامام على وفاطمة الزهراء ، فاختلج قلبها من الفرح لما تحقق لها من التقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم . ومشت الى شرفة مظلة على الحديقة ، ولم تكد تجلس حتى تقاذفتها الهواجس ، وتذكرت خطيبها سالما ، وكانت قد أحبتّه ووطنت النفس على أن تتزوجه .. فلما آن وقت العقد أخذت أسيرة مع أبيها ، ولم تعد ترى سالما ولا علمت أين هو.. وكانت تعلم من أسرارها ما لا يعرفه عمه ، وكان فيما أطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه ، ولا يعلم عمه أبوحامد باطلاعها على تلك الأسرار .. ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز

فأطرقت حيناً وهي غارقة في التفكير ، وجعلت تناجي نفسها قائلة : « أين أنت ياسالم .. لا .. لا أصدق انك قتلت .. لا .. لم تقتل بل أنت محتبىء أو متسكر .. أولعلك تفكر في ذلك الأمر .. ليتنى أستطيع أن أراك ، لأطلعك على أمور تهوّن عليك العدول عن عزمك .. وأتخلص مما يعرضونه على .. انى لا أحب الزواج الا بك لأنى لم أحب سواك ، ولكننى مع ذلك لا أوافقك على عزمك لأن فيه خطراً .. آه أين أنت ؟ »

وبينما هى فى ذلك ، اذ سمعت حركة وحديثاً فى الحديقة .. فتحول تفكيرها نحو ما سمعت .. وجلست تتوقع أن ترى أحداً ، وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين ، ولفّت رأسها بخمار كبير كالحبرة يغطى كتفيها وجنبها . وما لبثت أن سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة ، فتراجعت وهي لاتزال تنظر نحو الحديقة . واذا هى برجلين عرفت منهما القائد جواهر وبجانبه شاب فى مقتبل العمر ، يظهر من ملامحه انه ابنه الحسين ، وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها ، فأحست بنفور وانزوت مخافة أن يقع نظره عليها ..

أما جواهر فكان ماشياً وعليه الجبة والقفطان ، وفوق رأسه العمامة الصغيرة وحولها الحمار وقد تقلد السيوف . وفى مشيته ووثبات قدميه ما يدل على انه قائد عظيم ، وأما ابنه فكان فى مثل ملابسه ، لكنه لا يزال يانعا ، وفى محياه فضارة الشباب مع هيئة القواد ، والبسالة بادية فى عينيه وجبينه

ولاحظت لمياء ، وهي منزوية ، أن الحسين بن جواهر حين

اقترب من غرفتها ، التفت كأنه يلتمس أن يرى أحدا .. وسمعت
 أباه يقول له بصوت منخفض : « لا شك أنك لو رأيتها ما
 تماكنت عن الاعجاب بها لأنها جمعت بين مهابة الرجال ولطف النساء »
 فقال الحسين : « انى لا أراجعك فى شىء براه .. وأنت
 أعلم منى وأوسع اختبارا ، لكننى لا أثق بأبيها ، ولا أظنك
 تجهل ما فى خاطره و . . . »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان ، فلم تسمع لمياء من حديثهما
 الا تتفا فهت منها أنها يتحادثان بشأن خطبتها له ، فوقعت
 فى حيرة وخافت أن يطلب منها الزواج وهى متعلقة يسالم ، وان
 كانت لا تعرف مقره ..
 وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنها قوية العواطف ، اذا
 أحبت تمكن الحب من قلبها حتى يشغلها عن كل شاعل ، لاسيما
 وان سالما كان أول شاب عزفته وأحبته ..

ثم عادت فسمعت جوهرًا يخاطب ابنه ، وقد عادا من حيث
 أتيا وأتما الحديث ، فأصغت لعلها تسمع تنمة الكلام فسمعت
 جوهرًا يقول : « ان معاملة هؤلاء بالحسنى أولى بنا وأقرب الى
 جمع القلوب .. وصاحب سجماسة من أحق الأمراء بذلك .. »
 ثم انقطع الحديث من البعد ، فأصبحت لمياء أشد رغبة فى الاطلاع
 عليه فأصغت لسماعه عثا . فجلست وهى تصلح خمارها وتعمل
 فكرتها واذا هى تسمع لفظا فيه صوت أبيها ، فأجفلت ثم رأت
 أباه وجوهرًا ماشيين ، وجوهر يحتفى بحمدون ويلاطفه . ومن
 قوله له : « لاريب ان مولانا المزم يقدر صاحب سجماسة حق

قدره ، وطالما ذكرك في غيابك وأثني على علو همتك «
فقال حمدون : « نحن نفتخر بقيامنا بنصرة ابن فاطمة
الزهراء »

ثم بَعُد الصوت ، وعلمت لمياء من هذا الحديث أن أباهما
وجوهرا ذاهبان الى المعز في زيارة ، وربما كان ذلك بشأنها .
فاشتغل خاطرهما لئلا يعدهما أبوهما بها ، أو يوافق على خطبتها
للحسين وهي لا تريد .. فخرجت من غرفتها وهي تود أن تحضر
تلك الجلسة لتعلم ما يدور بين أبيها وبين المعز بشأنها . ولكنها لم
تجد وسيلة الى ذلك الا على يد أم الأمراء ، وكانت تسمع
بمشاركتها زوجها في الآراء أحيانا ، حتى انها كثيرا ما كانت
تحضر مجالس المداولة من وراء ستار (١)

- ٩ -

لمياء وأم الأمراء

وكانت أم الأمراء قد أعجبت بلمياء كل الاعجاب ، وأحببتها
من كل قلبها . وكذلك لمياء فانها أحبت أم الأمراء واستأنست
بها ، كأنها تعرفها منذ أعوام ، وقد هان عليها أن تكشفها بما
يكنه قلبها ، وتستشيرها في أمرها وتستعين بها في حاجتها ..
فذهبت تطلبها في غرفتها فلم تجدها فلقيت حاضنتها .. وهي امرأة
رومية الأصل أتت بها المعز من صقلية - حين دخلت في حوزته -
في جملة نساء حملهن للخدمة وتدير المنزل . وقد استلظمت لمياء

ورأت منها ميلا نحوها ، فسألتها عن أم الأمراء فقالت : « قد ذهبت في مهمة ، وستعود قريبا » ودعتها للجلوس فجلست وخطرها مشغول بمسير والدها الى المعز مع جوهر ، فأحبت أن تشغل نفسها ريثما تأتي أم الأمراء فقالت للحاضنة : « ياخاله يظهر لى من ملاحك انك لست من أهل هذه البلاد ؟ »

قالت الحاضنة : « صدقت .. انى من صقلية ياسيدتى »

قالت لمياء : « فأنت اذن رومية الأصل ؟ »

قالت الحاضنة : « نعم .. وأفتخر بأنى من نفس البلد الذى منه أكبر قواد أمير المؤمنين »

فعلبت انها تعنى جوهر القائد ، فقالت : « وهى القائد جوهر من صقلية أيضا ؟ »

قالت الحاضنة : « نعم ياسيدتى انه من نفس ذلك البلد .. ألا يحق لى أن أفتخر به ؟ »

قالت لمياء : « كيف لا ؟ وهو موضع فخر أهل هذه الدولة . نصره الله على أعدائه »

وبينما هى فى ذلك ، اذ جاءت أم الأمراء وهى تمشى بنشاط .. لا تتأقل تتأقل أهل الترف .. فتراجعت الحاضنة وخرجت . ووقفت لمياء وهى تبسم وتتنظر الى أم الأمراء نظرة شاكر مبتهج ، فأجابتها تلك بمثل ذلك وأمسكتها بيدها على غير كلفة ، ودخلت بها الى نخدعها الخاص وهى تقول : « أحب أن أراك ههنا نسين بى وأن تعتبرى نفسك ابنة لى »

فأكبت لمياء على يدها فقبلتها ، ودموع الفرح تتساقط من

عينيها وقالت : « لقد غمرتني بفضلك ياسيدتي .. فلم يعد في امكاني القيام بواجب الشكر..كفى ، ان ذلك فوق ما أستحقه او يخطر ببالي .. »

قالت أم الأمراء وهي تقربها من وسادة في صدر الحجرة وتجلسها بجانبها : « انك أهل لأكثر من ذلك يا لمياء ، ولا فضل لي اذا أحببتك فاني لم أسمع أحدا ذكرك الا أعجب بك وبكمالك وهيتك .. هذا قائدنا جوهر شديد الاعجاب بك ، وقد رغب في تقرب والدك من أمير المؤمنين اكراما لحظارك . وقد جاء به الآن وسيدخلان اليه ، ولاشك ان المزمع سيحل أباك عملا رفيعا اكراما لقائده » وسكتت وبلعت ريقها وهي تنظر الى لمياء وتتأمل ملاعبها وما يبدو منها ، فرأتها مصغية لا يبدو على وجهها شيء من الاضطراب . فعادت الى اتمام حديثها فقالت : « وبلغ من افتتان قائدنا بك انه أحب أن يأخذك اليه ويجعلك ابنة له »

فظهرت البغمة على لمياء وأطرقت حياء ، فابتدرتها أم الأمراء قائلة : « لا أعنى أن تصيري ابنة له دون أهلك ، بل هو ينوي أن يخطبك الى ابنه الحسين . هل رأيت هذا الشاب ؟ لا ينبغي أن تخجلني مني .. اتخذيني أما لك .. »

فتصاعد الدم الى وجنتي لمياء وأبرقت عيناها من التفكير وقالت : « أشكر لك هذا الاحسان ياسيدتي . نعم اني يتيمة الأم ولكنني في حزن أم تمنى كل فتاة أن تكون أمها .. نعم ينبغي لي أن أخطبك بحرية ، أما من جهة رؤية الحسين بن جوهر فاني لم أره الا في هذا النهار مصادفة وهو مار في الحديقة مع أبيه »

فقطعت أم الأمراء كلامها قائلة : « لم يكن مجيئه عرضا ، ولكنه جاء عبدا ليرى الفتاة التي حدثه أبوه عنها .. وماذا تضرين بعد ذلك ؟ »

فتنهدت لمياء وهمت بالكلام .. ولكن الحياء أسكتها ، فأدركت أم الأمراء انها تخفى شيئا من قبيل الحب .. والنساء يتفاهمن بلغات القلوب أسرع من تفاهم الرجال .. فقدمت لها مذبة كانت في يدها تروّح بها على سبيل المؤانسة ، وقالت لها : « لا ينبغي لك أن تستحي مني يا لمياء بعد ما أظهرته من جبي لك .. ويكفى دليلا على هذا الحب أن أسعى في زواجك بأحسن شاب في القيروان بعد أبناء الخليفة ، وهؤلاء يا لمياء لم يبلغوا سن الزواج بعد » وضحكت

فازدادت لمياء خجلا من هذا التلميح المزوج بالتقريع على الكبرياء ، ولم تعد ترى باعثا على الحياء ، فتناولت المذبة من يدها ثم أعادتها اليها بلطف وشكر وقالت : « لا تظني ياسيديتى انى أجهل حقيقة قدرى ، أو انى لم أدرك مقدار فضلك فيما تعرضينه على » ، فاسمحي لى أن أصرح لك بحقيقة حالى .. انى ياسيديتى مخطوبة » وصبغ الحياء وجهها

لم تستغرب أم الأمراء قولها لأنها لاحظت ذلك عليها من قبل ، لكنها تجاهلت لتسمع منها هذا التصريح .. فأجابتها وهى تبسم : « من هو ذلك الخطيب السعيد الذى حظى بك وما اسمه ؟ »

فخجلت من هذا الاطراء وقالت : « انه ياسيديتى شاب من

أصدقاء والذى عرفته في سجنه ، وله عم كثير التودد
لأسرتنا ، فخطبني اليه واسمه سالم ..
فقلت : « أين هو ؟ »

فأجابت لمياء وهى تهز كتفها الى أعلى اشارة الانكار :
« لا أدري أين هو ، ولكننى أعلم انه كان فى جملة من شهد
المركة الأخيرة التى قادونى فيها ووالدى أسيرين .. ولست
أعلم أين ذهب سالم .. »

فضحكت أم الأمراء وقالت : « يظهر انك تحببته كثيرا حتى
انك مع شكك فى وجوده لا تزالين ثابتة على محبته ! »

فتنهدت تنهدا عميقا وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ولم
تجب ، فتشاغلت أم الأمراء باصلاح ضفائر الشعر المرسلة على
صدرها من الحمار وقالت : « قد يصح ذلك ، ولكن هل تحببته
ثابتا على حبك لا يفكر فى سواك ؟ ان هؤلاء الرجال لا يتركن
اليهم .. ولا تظننى أن الحسين بن قائدنا جوهر يتأتى العصور
على مثله فى جيل من الناس ، ومع ذلك فالرأى لك .. وأنا
انما أردت أن أخبرك لأننى أحبيتك و . . » قالت ذلك وبدأت
مظاهر العتاب فى عينها ..

- ١٠ -

التصريح

وقد أثمر ذلك التوبيخ فى نفس لمياء تأثيرا شديدا ورات
قولها معقولا ، ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به ولا طاعها

عقلها على الرفض . وهى مع ذلك لا تعلم أين هو سالم .. ميتا أو حيًا ، ولم تر منفذا من تلك الحيرة الا بالبكاء ، فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء ، ثم أمسكت عواطفها تجلدا وسكتت وهى تبلع ريقها وتغالب نفسها ، وقد أطرقت لا تبدى حراكا .. وتظاهرت بأنها تنفرس فى جلد أسد مفروش هناك

فلم تبال أم الأمراء بسكوتها ، فأتمت كلامها قائلة : « ومع ذلك فقد سمعت أن قائدنا جوهرًا يطرئ شجاعتك وثباتك فى حومة الوعى .. فمالى أرى فىك هذا الضعف الآن ؟ »

. فلم تعد لمياء تستطيع التماسك ، فتتهددت تنهدا شديدا ورفعت عينيها الى أم الأمراء والدمع يتلألأ فيهما ، وجلست جثوا على سبيل التأديب وقالت وهى تغص بالكلام : « لقد غمرتني بلطفك ياسيدتى .. انى لا أستحق هذه العناية ، نعم لا أستحق النعمة التى تعرضينها علىّ ، ولكننى .. آه .. لا أملك قياد قلبى .. ساعينى على التصريح لك . لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولنى الدالة عليك ، وإن خالفت العادة والطبع ، فانى يامولاتى لا أملك من قياد نفسى شيئا . نعم انى شجاعة فى الحرب لا أهاب لقاء الأبطال ، ولكننى مع سالم ضعيفة . لا أذكره الا وأشعر بانحلال عزيمتى وخفقان قلبى .. لعل ذلك ما يعبرون عنه بالحب ! وقد سألتنى اذا كان يحبنى ، فكيف يمكن أن لا يكون كذلك وأنا لا أرى للحياة قيمة بدونه » وعندما أتمت هذه العبارة اتبعت لنفسها وأحست انها تورطت فى التصريح بما لايجوز لمثلها ، وانما غلبت عليها عواطفها فلم تملك امساك هواها .

وخجلت من أم الأمراء فحوّلت وجهها نحو الحائط ، وأخذت في البكاء ، وقد بكت هذه المرة أسفا على ضعفها وتطلعا الى رؤية جيبها سالم وهي لا تعلم أين هو ..

أما أم الأمراء فاستغربت تعلق لمياء بخطيها ، ولم تكن تتوقع أن ترى منها ثباتا وشغفا الى هذا الحد . فلما آمنت منها ذلك قالت : « يسرنى يابنية انك تخين خطيبك الى هذا الحد فان المحبة من أكبر النعم . وأطلب الى الله أن يجعلك به ، واذا رأيت انى قدرة على مساعدتك فى ذلك فقولى لى . أما الحسين فانى أستمله لترى ما يكون .. اذ لا يعلم ما فى الغيب الا الله »

فهمت لمياء بتقيل يدها شكرا على صنيعها ، فأبت عليها ذلك وقبلتها من رأسها ونهضت وهي تقول : « قد تعودت أن أذهب فى مثل هذه الساعة الى مقعد لى يشرف على قاعة أمير المؤمنين التى يقابل الناس فيها ، أطل عليها من وراء حجاب فأشهد مجلس الأمراء وأسمع ما يدور بينهم .. فانى كثيرة الاهتمام بشئون الدولة » فأعجبت لمياء بعلو همتها ، وقالت : « سمعت بذلك عنك » ومالت الى مرافقتها فقالت : « وهل ترين بأسا من أن أكون معك ؟ »

فقالت أم الأمراء : « كلا .. بل بالعكس ، فانى أستاذس بك » ومشتا فى الدهليز الى غرفة فى أحد جدرانها مقعد على دكة ، يصعد اليه بوضع درجات ، وخلفه ستار يحجبه .. وفى الستار ثقوب اذا شاء الجالس أن يشرف على من فى القاعة من الكبراء رأيهم وسمع أقوالهم .. فأمسكتها أم الأمراء بيدها حتى

أجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها : « أنظري من هذا الثقب » فنظرت فإذا هي تشرف على مجلس الخليفة من أعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها .

رأت قاعة واسعة قد فرشت أرضها باللبود البسيط ، وقد جلس المعز لدين الله في صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة ، وهو في ملابس بسيطة بالنسبة الى سواه من الملوك والخلفاء .. على رأسه العمامة وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطي أثوابه .. وقد التفت به ، وجلس جلوس من أتعبه العمل ، فترجّع وألقى كوعه على فخذه .. وإلى جانبه حسام مغمد ، وفي يمينه قلم ، وفي يساره ورقة من الكاغد ينظر إليها ، وكاتبه واقف أمامه ينتظر أمره ، فبعد أن تأمل الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه ودفع الورقة الى الكاتب وأشار اليه أن يذهب . ثم تنفس الصعداء وقال : « اذا شاء الأمراء والمشايخ الدخول فليتفضلوا »

فلما سمعت أم الأمراء قوله قالت للنبياء : « انه يدعو مشايخ كتامة وصنهاجة وهوارة ، وهم رجال دولته من أمراء البربر ، لعله يريد النظر في أمر هام »

فسرّت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يعقد مجلس الملوك .. على انها ما لبثت أن رأت جماعة من المشايخ والأمراء دخلوا وألقوا التحية بصوت عال كالعادة . وأشار اليهم المعز فجلسوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة . وجعلت لمياء تنفّس فيهم ، فرأت وجوها تعرفها من قبل ، ولما استقر بهم الجلوس جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال : « قد تكبدتم المشقة في

المجئء الينا ، وانما دعوتكم لأريكم حالى من العمل .. اذ قد يتصور بعض الذين لا يعلمون أن الامامة من أسباب الراحة والتنعم والاقطاع عن العمل . نعم هى كذلك لمن شغلوا بالترف عن مصالح الدولة كما يفعل صاحب بغداد وصاحب قرطبة وأمراؤهم فى الأطراف ، لأن الدنيا شغلتهم عن الامامة الحققة .. فانغمسوا فى الملذات ، وتقلبوا فى الدياج والحرير والسمور والمسك والخمر مثل سائر أرباب الدنيا ..

« وأما أنا فقد أحببت استقدامكم لأريكم كيف ينبغي أن يكون الامام ، فانظروا الى هذا الكساء ولجبة ، وها أنا ذا جالس على اللبود ، وهذه الأبواب مفتحة تفضى الى خزائن الكتب ، وأنا أشتغل بمكاتبة الأطراف بيدي لا ألتفت الى أمور الدنيا الا بما يرضى نفوسكم ويقمع أعداءكم .. فافعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم »

فتصدى شيخ منهم ، هو أكبرهم سنا ، وقال : « ان أمير المؤمنين قدوتنا .. ونعم المثال هو »

فقال المعز : « اذا فعلتم ذلك يقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب .. انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فوقفوا وحيوه وخرجوا وقد امتلأت قلوبهم هبة ، ولياء تعجب لسرعة صرفهم .. وأدركت ذلك أم الأمراء ، فقالت : « لأبد لسرعة صرفهم من سبب ، فقد تعودت أن أجلس هنا ساعات أسمع مباحثاتهم فى أهم الأمور »

ولم تتم كلامها حتى سمعت المزم يصفق وهو يقول : « خفيف »
فحضر غلامه فقال : « ذكرت لى منذ هنيهة ان قائدنا يجب أن
يرانا على حدة ، فأسرعنا فى صرف شيوخ كتامة لنتفرغ له .. ادعه »
فخرج الغلام وهمست أم الأمراء قائلة : « هذا هو السبب فى
سرعة صرفهم .. ان جوهر ا قادم اليه .. فله دره من رجل باسل »
فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت انها رآته فى ذلك اليوم فى
الحديقة مع أبيها ، وخطر لها انها رآته أيضا مع ابنه الحسين ،
فخفق قلبها لأنها أصبحت تخشى أن تراه بعد أن دار ما دار
بينها وبين أم الأمراء بشأنه ، وتخاف اذا تكرر الترغيب فيه أن
يخونها قلبها فتميل اليه وهى لا تريد أن يكون لأحد نصيب
من فؤادها غير سالم ..

- ١١ -

الخطبة

وما كادت تفكر فى ذلك حتى رأت جوهر فى وسط القاعة ،
وقد أمسك أباهما حمدون بيده كأنه يقدمه الى المزم وهو يقول :
« أقدم لمولانا أمير المؤمنين الأمير حمدون صاحب سجل ماسة
صديقنا الجديد »

فنظر المزم اليه وابتمس ابتسام الملوك وقال : « أهلا بصديقنا .
أرجو أن لا يكون فى خاطره شيء منا »

فأسرع حمدون وترامى بين يدى المزم كالمستغيث .. وقد فعل
ذلك مبالغة فى التزلف ، وقال : « لقد أسعدنا الحظ بهذه الصداقة

وهي شرف لنا ، ولوعرفنا مناقب الامام من قبل الجئناه بغير حرب»
فأنهضه المعز بيده وأشار اليه أن يجلس بجانبه على وسادة
وهو يرحب به ويبتسم . وأشار الى جوهر أن يجلس فجلس
وهو مسرور من نجاح مهمته في مصلحة الدولة بتقريب هذا
الأمير للطاعة لأنه صاحب جاه واسع وحزب كبير
جلس حمدون وهو يظهر التأدب في حضرة المعز ، لكن عينيه
كادت تجولان خلسة في أطراف القاعة لا تستقران على حال
كأنهما عينا لص .. على انه كان في وجهه هيبة الأمراء .
أما لمياء فلما رأت والدها هناك سرعت لتقربه من المعز لأنها
كانت تعلم ما في نفسه عليه ، وانه لم يكن أثقل على قلبه من ذلك
الأسر.. فسررها أولا انه رضى بارسالها الى بيت الخليفة وزاد
سرورها انه تقرب منه ، وهي ترغب في ذلك لعدة أسباب.. أهمها
اعتقادها في كرامة المعز لأنه من نسل فاطمة الزهراء ، وهي حسنة
الاعتقاد بالشيعة . ولقد كان ههنا بعد ذلك أن يأتي سالم ويتقرب
الى المعز فيتم لها السرور.. وان كانت بالقطرة عزيزة الجانب مبالاة
الى الاستقلال ، وقد حاربت في سبيله ولم تسلم الا قهرا . لكنها
لم تكن راضية عن أعمال والدها فان بين أخلاقها وأخلاقه بونا
عظيما .. وقد لقيت من المعز وزوجته كل رعاية واکرام ، فوطنت
النفس على التفاني في مصالحتهما ، وانما ينقصها العثور على
سالم واقناعه بالتسليم معها . ومع علمها بصعوبة تسليمه فإنها
كانت تعتقد أنها تستطيع أن تتغلب عليه بالدالة والبرهان
أما المعز فالتفت الى جوهر لفتة صديق معجب بصديقه وقال :

« يسرنى كثيرا أن تجتمع كلمة شيعتنا على المطالبة بحقوقنا »
 فقال جوهر : « إن ذلك هين بتوفيق مولانا أعزه الله . وأنا
 أعد تقريب أمير سجداسة الباسل فألا مباركا .. لأنه رجل
 حرب وله أعوان يتفانون في نصرته ، فيمثل به يمز الملك »
 فقال حمدون : « انى أفاخر سائر الأمراء بهذه الخطوة بين يدي
 أمير المؤمنين ، وقد أصبحت الآن سيفا من سيوفه أناضل عنه
 الى آخر نسمة من حياتي .. أقول ذلك عنى وعن رجال قبيلتى »
 فابتسم المزم وقال : « انك اذا فعلت ذلك فاننا تنصر الحق
 كما أنصره أنا . وإن امامتى على رجالى لا تميزنى عنهم بشيء
 من مرافق الحياة .. بل أنا أكثرهم تعباً وسهراً كما ترى مما بين
 يدي من الأعمال .. انى أعمل يدي ما لا يعمل صاحب بغداد
 ولا صاحب قرطبة . أنظر فى كل شيء بنفسى .. لا أقول ذلك
 افتخارا ولكننى أقول الحق ، فما أنا إمامكم الا بما خصتنى به الله
 من النسب الطاهر ، وأما فيما خلا ذلك فأنا واحد منكم »
 فقال حمدون وهو يظهر الاخلاص : « انى أحمد الله بما من
 على به من نعم أمير المؤمنين ، وسيرى منى ما تقر به عينه
 وتبسط نفسه »

فأبرقت امرأة جوهر فرحا بنجاح مسعاه ، ونظر الى المزم نظرة
 فهم المزم مراده منها ، فالتفت الى حمدون لفته تودد وقال : « وما
 أنا راض لأمر سجداسة بما أردته لغيره من الأمراء المقربين .. بل
 أنا أحب أن أختصه باكرام لم ينله سواه . فأنت تعلم منزلة قائدنا
 جوهر حامى حمى هذه الدولة . انه صاحب المنزلة الأولى عندنا ،

فنجب أن نزيد أسباب القربى بينك وبينه . وهى قبرى لنا أيضا
فأدرك حمدون غرضه ولكنه تجاهل وقال : « ان أمر مولانا
مقبول على الرأس والغين .. فليأمر بما يراه »

قال المعز : « نجب أن نخطب ابتك لمياء الى الحسين ابن
قائدنا جوهر وهو من خيرة الشبان .. فهل توافقنى على ذلك ؟ »
فبادر حمدون الى الجواب بلهفة وقال : « ان هذا شرف عظيم
لنا ياسيدي .. ان لمياء لا تستحق هذه النعمة لأن جوهرًا — حفظه
الله — قدوة القواد . وان لمياء جارية أمير المؤمنين يضعها خيشما
شاء .. لأمير المؤمنين الأمر وعلينا الطاعة »

وكانت لمياء ، وهى تسمع كلامهم من وراء الستار ، تخشى أن
يفضى الحديث الى هذه الغاية .. فلما سمعت اتفاقهما على الخطبة
أجفلت وارتبكت والتفتت الى أم الأمراء لفظة مستغيث . فوضعتها
الى صدرها ولم تزد .. فرفعت لمياء رأسها لتتظر فى عينى أم الأمراء
لعلها تفهم مرادها من ذلك التجنب ، فرأتها تضحك ضحك من
ظفر بغنيمة . فاشتبه عليها أمرها وهى لا تدري ماذا تعمل ،
وأخذتها الرعدة وترقرق الدمع فى عينها

فهمست أم الأمراء فى أذنها قائلة : « لم تقبلى ذلك الطلب
منى فما قد اتفق عليه والدك وأمير المؤمنين ، فهل من سبيل
الى الرفض ؟ »

فأجابتها لمياء بهز رأسها هزة الانكار ، ولسان حالها يقول :
« انى لا أزال على عزمى »

فأشارت أم الأمراء بسبابتها على فمها : « أن اصبرى الآن
وسبرى »

فسكتت واذا هى تسمع المعز يقول : « بارك الله فيك انى
أهنئ ابن قائدنا بهذه الفتاة ، كما أهنتها به لأنه من خيرة
الشبان ، فعسى أن تكون راضية بذلك »

فقال حمدون : « انها لاشك راضية .. كيف لا ترضى بما
رضى به لها أمير المؤمنين ووافق عليه والدها ؟ »

فلم تعد لمياء تصبر على سماع ذلك ، فنهضت تريد الانزواء
نفورا من ذلك الحديث فأمسكتها أم الأمراء وأجلستها ..
فأطاعت وسكتت وهى تكاد تتميز غيظا ولا تعلم ماذا تعمل

أما المعز فترشح عن مجلسه اشارة للانصراف .. فوقف جوهر
وحمدون واستأذنا فى الانصراف فأذن لهما وهو يقول : « تترك
تحديد وقت العقد لقائدنا .. ونحب أن يكون ذلك فى حضرتنا
اكراما للعروسين »

انصرفا وتركا لمياء على مثل الجمر ، وقد جمد الدم فى عروقها
وتولتها الدهشة ، وحق لها ذلك فانها مع شدة تعلقها بسالم
لا ترى مندوجة عن طاعة والدها وأمير المؤمنين ..

- ١٢ -

الخيرة

نهضت أم الأمراء وأخذت لمياء بيدها تخفيها عنها .. وقد
شعرت بما هى فيه من الارتباك ، فمشت لمياء معها وهى مستغرقة

في الهواجس لا تنبس بينت شفة

حتى اذا وصلت الى حجرة أم الأمراء استأذنت لمياء في الانصراف الى الغرفة التي أعدت لنومها .. وكانت الشمس قد مالت الى المغرب ، فدعتها أم الأمراء الى البقاء عندها فاعتذرت بأنها تشعر بصداغ شديد لا ترى وسيلة للتخلص منه بغير النوم .. فأذنت لها حبا في اطلاق الحرية لها لئلا يؤثر الضغط على نفسها ، وأضمرت أن تنفقدها بعد هنيئة

سارت لمياء وهي تتعثر في أذيالها ، ولم تكد تصل الى غرفتها حتى أحست بانها في قواها ، فاستلقت على فراشها وقد انقبضت نفسها وزادها غروب الشمس اقباضا . وأخذت تفكر فيما هي فيه من الضيق ، فرأت انها لو لم تكن تحب سالما لكانت في سعادة لا مثيل لها ، لأنها ستخطب لابن أكبر القواد على يد أحسن الخلفاء في دار الملك . وقد تقربت من أم الأمراء وتصادقتا . وهي تشعر ان هذه الملكة تحبها حقيقة . فلم يكن من هو أسعد حالا منها لولا تعلقها بسالم ، وأرادت أن تقنع نفسها بتركه والرضى بتلك النعم ، فلم تستطع .. وحين خطر لها ذلك الحاطر أحست بشيء انقبض له قلبها

وأخذت تغالب عواطفها وتخطب نفسها ، وهي جالسة على الفراش قائلة : « لعل أم الأمراء مصيبة في قولها عن الرجال انهم لا يحفظون ذمما كالنساء ، ولكن سالما ليس مثله أحد .. كيف أفكر في غيره وقد تعاهدنا .. لله ما هذه الأفكار الشيطانية ، ليس في الدنيا أكبر نقسا وأجمل خلقا من سالم .. ليست السعادة

بالمال ولا في الجاه ، ان السعادة في الحب .. مهما عارضتني
صروف الدهر ، وعاندتني ، وتراكت عليّ ، فاذا تذكرت سالما
وانه يحبني شعرت بلذة وراحة لا مثيل لهما .. ما أجمل الحب
وأحلاه .. ولكن . . . هل سالم يحبني كما أحبه ؟ »

وبينما هي في ذلك طرق الباب فأجفلت ، فرأت صقليا يحمل
مصباحا وقف بالباب وهو يقول : « ان مولاتني أم الأمراء
أمرتني أن أنير لك هذا المصباح ، وأن أضعه على رف في الحائط مصنوع
لهذه الغاية » ثم قال : « ألا تريد مولاتني أن أعد الطعام للعشاء ؟ »
قالت لمياء : « كلا .. اني لا أشعر بالجوع وأرجو أن تبلغ
مولاتنا أم الأمراء شكري الجزيل على أفضالها »

فانحنى وهمّ بالخروج .. فاستوقفته وقد خطر لها خاطر
جديد ، فقالت : « هل أنت من خدم هذا القصر ؟ »

قال الخادم : « نعم ياسيدتي .. هل تحتاجين الى شيء ؟ »

قالت لمياء : « أحب أن أعرف أين هي مولاتنا .. »

فقال الخادم : « هي هنا ياسيدتي » .. وتحنى ..

فاستغربت قوله .. واذا بأم الأمراء بالباب ، فبغت لمياء
لوجودها هناك وقالت : « كيف حضرت ياسيدتي .. وأين كنت ؟ »
فضحكت وأشارت الى الخصى فانصرف وضمت لمياء الى
صدرها وقبلتها وقالت : « أتظنين اني غافلة عما أنت فيه ؟
أذنت لك بالانصراف الى نخدمك وقلبي يراكَ ، ولم أتمالك
عن أن أجيء بنفسى لأرقب حركاتك .. وانما أرسلت الصقلي
قبلي ليري هل أنت نائمة .. »



وأخذت ليلاء ثياباً فوق ثيابها وتغلبت نفسها ، وهي جالسة على الأرض قائلة :
يا أمي يا أمي يا أمي لا يظلمون زينة يا أمي

فلما سمعت كلامها أكبت على يديها وجعلت تقبلها قائلة :
 « بالله ياسيدتى ما هذه النفس الكريمة ، ما هذه الأخلاق
 العالية ، ما هذا الحنان العجيب .. هل أستحق منك هذه
 العناية ؟ .. ان شعورك معى فى هذه المشاكل قد خففها »
 وسكتت وهى تدعو أم الأمراء للجلوس على فراشها
 فأجابتها : « قلت لك انى أحبيتك ، وأنا لا أقول ذلك
 جزافا .. ثم انى أعلم الناس بما يكنه قلبك ، فقلت فى نفسى لعلى
 اذا جئتها وكانت مضطربة أستطيع أن أخفف عنها شيئا »
 فتهدت لمياء وسبقتهما العبرات وهى تقول : « لقد خففت عنى
 كثيرا ولكن .. »

ففسحت أم الأمراء دموع لمياء بمنديلها وقالت : « انك
 يا بنية حملت نفسك التعب باختيارك .. ان الشاب الذى عرض
 عليك لو عرض على أحسن نساء العالمين لفرحت به ، وأنت
 لا .. » وبلغت ريقها ، واستغنت عن التصريح بالإشارة ..

فقالت لمياء : « هذا كله أعلمه وقد حاولت أن أقنع نفسى فاذا
 أنا عاجزة عن ذلك .. انى ضعيفة مسكينة ، آه من الحب ..
 سامحيني ياسيدتى على هذه الجرأة فى حديثى . أردت أن أقنع
 نفسى ان ما سيدعونى اليه والذى سعادة لا ترد ، فשמرت
 بشعريرة ارتعدت لها فرائضى .. لا أستطيع .. لا أستطيع أن
 أتسلط على نفسى .. انى لا أملك رشدى ، يظهر انى مجنونة »
 فضحكت أم الأمراء على سبيل المداعبة وقالت : « هل تشكين
 فى ذلك ؟ ألا تعلمين ان العلماء يسمون الحب الشديد جنونا »

قالت لمياء : « مهما يكن فاني عاجزة عن التخلص من هذه الهواجس .. بالله أشفقى على وارقى بى .. »

قالت أم الأمراء : « انى مستعدة لما تريدن .. نعم أحب أن تكونى من نصيب الحسين بن جواهر ، ولكننى أفضل راحتك .. فاذا كنت تظنين أننى أستطيع أن أساعدك فى شيء قولى .. »

فأطرقت وسبابتها على شفتها السفلى وهى تفكر ، وأم الأمراء تنظر اليها وتنتظر ما تقوله ، فاذا هى قد رفعت بصرها اليها وقالت : « انى أطلب منك أمرا لا يصعب عليك .. انى أحب أن أذهب الى والدى لأراه وأباحثه فى الأمر الذى عرض عليه اليوم ، لعله اذا علم بما فى خاطرى يعفينى منه .. وأنت تكملين فضلك فى ارجاع أمير المؤمنين عن عزمه »

ففكرت أم الأمراء لحظة وهى تعلم ان زيجة لمياء للحسين يراد بها تحقيق هدف سياسى ، لاكتساب قلب حمدون .. فضلا عن التوافق بين العروسين ، فلم تشأ أن تعدها باقناع زوجها .. لكنها طيبت خاطرها ، وقالت : « لك على ذلك .. متى تذهبن الى والدك ؟ »

قالت لمياء : « الآن ياسيدتى .. انى لا أستطيع النوم ان لم أراه وأباحثه »

قالت أم الأمراء : « كيف تذهبن الآن وقد داهمنا الظلام ووالدك فى معسكره خارج المنصورة وقد أقفلت الأبواب ؟ .. ومثلك لا يؤذن بخروجها من هذا القصر »

قالت لمياء : « أخرج متكررة وأنا لا أبالى بالظلام انما أطلب

إليك أن تأمرى بثوب أحد الصقالبة ، خدم القصر ، كى ألبسه وأخرج بحجة رسالة أحملها من أمير المؤمنين الى صاحب سجن ماسة « ففكرت أم الأمراء لحظة ثم قالت : « ذلك هين على ، ولكننى أخشى أن يشك فى أمرى الحراس على الأبواب »
قالت لمياء : « لا تخافى »

فكانت أم الأمراء : « ها أنا ذاهبة الى حجرتى .. وبعد قليل تعالى الى تجدى الثوب متعدا .. »
فأكبّت على يدها لتقبلها شكرا على هذا الصنيع .. فمنعتها أم الأمراء من ذلك وتركها وخرجت

- ١٣ -

مفاجأة ١

فمشت لمياء برهة ، ثم مشت الى أم الأمراء ، فرأتها قد أعدت الثوب فلبسته وأصلحت من شأنها ، حتى لا يشك من يراها فى أنها غلام صقلبى وودعتها .. فأرشدتها الى أقرب طريق يؤدى الى باب البلد ..

فمشت وهى ثابتة القدم لا يعترضها خوف .. فمرت فى الحديقة لا يشك فى أمرها أحد ، وأهل القصر مشغولون فى مهامهم حتى وصلت الى باب البلد .. فإذا هو موصد والحراس وقوف عنده بأسلحتهم . فطلبت اليهم أن يفتحوا لها الباب لأنها ذاهبة فى مهمة عاجلة الى معسكر صاحب سجن ماسة .. ففتحوه ، ولم يشك أحد منهم فى أنها رسول صقلبى

ففرحت بانطلاء حيلتها ، وخرجت فاذا هي في الخلاء .. ونظرت نحو معسكر والدها فعرفت مكانه من النار الموقدة عنده ، فمشت بسرعة والظلام حالك. والمكان خال وكل شيء هادئ . فلم تمش قليلا حتى رأت شبحا طويلا يدنو منها وعليه عباءة سوداء قد التفت بها ، ومشى نحوها بهدوء ، فتحولت عن وجهه لئلا يعترضها .. فاذا هو قد وقف لها ونادى : « من الرجل ؟ »

فقالت لمياء : « رسول من أمير المؤمنين الى هذا المعسكر فقال الرجل : « قف عندك »

ولما سمعت الصوت اقشعر بدنها لأنها تذكرت صوتا تعرفه ، لكنها تجلدت وتجاهلت وقالت : « دعنى .. انى سائر لأمر عاجل » ..

فناداها قائلاً : « لا يخرج الرسل من هذا القصر ليلا .. » قالت لمياء : « انها رسالة هامة مستعجلة ، وقد رأى الحرس بالباب ولم يعترضوا سبيلي .. »

قال الرجل : « أنا أعترضك .. قف عندك أو تعال معى الى النور لأرى وجهك .. انى أعرف غلمان القصر جميعا .. »

فتحيرت في أمرها ، وتفرست فيمن كان يخاطبها .. وأخذت تفكر فيمن عساه أن يكون وصوته يشبه صوت الحسين بن جواهر ، واستبعدت أن يكون هو هناك وليست الحراسة من شأنه .. فتجاهلت وظلت ماشية وهى تقول : « انى ذاهب فى مهمة سرية لا يجوز للحرس أن يطلع عليها ولا أن يعرف من أنا » قال الرجل : « اذا كان ذلك لا يجوز لسواى فهو جائز لى »

قال ذلك ومد يده يريد أن يمسكها فنفرت منه ، وخبأت يدها وراء ظهرها وقالت : « قل لى من أنت أولا » ..

قال الحسين : « أنا الحسين بن جوهري »
فلما تأكدت انه هو بعينه ارتج عليها ولم تخف على نفسها منه ، ولكنها خافت أن يعرف سرها .. فحوّلت وجهها عنه ، ومشت وهى تقول : « لا نعهد الحسين ابن أكبر القواد يتحل مهنة الحرس ليتعرض لرسول أمير المؤمنين .. دعى وشأنى ، والا فان تأخرى تعود عاقبته عليك »

فاعترضها وهمّ أن يمسك يدها فأفلتت يدها منه بجسارة ، فقال لها : « ليس من شأنك أن تعين لكل انسان مهمته .. نحن جميعا نخدم مصلحة أمير المؤمنين .. نضرب بسيفه ونحرس قصره ، دع عنك ذلك واتبعنى .. واذا كنت رسولا كما تزعم فلا خوف عليك ، بل أكون لك عوناً فى ابلاغ الرسالة »

فلم تجد لمياء بدا من الطاعة فقالت : « ها أنا ذا واقف .. ما الذى تريده منى ؟ .. اكشف اللثام عن وجهك أولا ثم خاطبى .. »

فأزاح اللثام فاذا هو الحسين بعينه ، فحفق قلبها واستغربت تلك المصادفة وقالت : « نعم أنت مولانا الحسين بن القائد جوهري ، فما الذى تريده منى ؟ »

قال الحسين : « انى لا أرى وجه صقلبى ولا أسمع صوت صقلبى ، انى أسمع صوت امرأة »

فضحكت استخفافا وقالت : « أرايت كيف انك نخدوع ؟ .. فحسبتنى امرأة وأنا غلام »

قال الحسين : « اذا كنت غلاما صقلييا فاصدقنى ولا تخف »
فتماسكت لمياء ، ولم تجد بدءا من التصريح ، فقالت :
« تأمل فى وجهى جيدا »

فتفرس فيها على شعاع النور وقال : « أنت فتاة .. وكأنى
رأيت هذا الوجه فى صباح هذا اليوم ، ألسنت لمياء بنت صاحب
سجلماسة ؟ »

فلم تطاوعها نفسها على الإنكار فقالت : « نعم أنا هى ، وما
الذى تريده منى ؟ »

فتنهدها وبتمسم ثم قال : « ان ما أريده منك ليس هنا محل
الكلام فيه يا لمياء . ولكننى أطمئنك أن لاخوف عليك منى
لسبب سوف تعلمينه ، ولكننى أعجب لخروجك فى هذا الليل
متكررة ومثلك لا يؤذن لها بالخروج من قصر أمير المؤمنين ..
كيف خرجت ؟ »

قالت لمياء : « ألم أقل لك انى خارجة فى مهمة لصاحب
سجلماسة ؟ »

قال الحسين : « هل أنت ذاهبة الى أبيك ؟ »
قالت لمياء : « نعم .. ها قد قلت لك ، فأنت وشأنك .. »
قال بنعم التودد : « ان شأنى شأن المأمور المطيع يا لمياء ..
ولو كان الخارج فى هذا الليل سواك لكانت حياته فى خطر .
وأما أنت فانى فى خدمتك حتى ترجعى الى أمائك .. انما أرجو
أن تذكرى هذا لى اذا ذكرت به .. »

فشعرت انه يحملها فضلا سيطالبها به يوما ما ، فقالت : « لم

أخرج من هذا القصر في هذا الليل وحدى وأنا خائفة من أحد .
فاذا شئت أن تبقى على اعتراضك فانى لا أبالى »

وكان الحسين قد علم في ذلك النهار ان أباه وأباها قد زارا
المعز ، وانه خطبها له من أيها فوافق على الخطبة . . ولكنه كان
على يقين انها لم تطلع على شيء من ذلك بعد . وتوسم في
اجتماعها بوالدها في تلك الساعة خيرا لنفسه ، اذ يبلغها أبوها
ما كان من طلب أمير المؤمنين لها باسم الحسين ، فقال : « قلت
لك ان شأنى معك أن أكون في خدمتك حتى تبلغى مأمرك
وتشاهدى والدك . ولعلك وأنت راجعة تتغير لهجة خطابك معى »

فأدركت كل ما جال في خاطره ، وفهمت ما يشير اليه لكنها
تجاهلت وقالت : « انى لا أستطيع أن أذكر ابن القائد جوهر
بعد هذه المكارم الا بالشكر والثناء على كل حال . فهل تأذن
في انصرافى الآن ؟ »

قال الحسين : « نعم.. ولكننى أكون في خدمتك لئلا يعترضك
سواى ، فإن في هذه الطرق حراسا آخرين أقامهم والدى سرا
لزيادة الحرس على سلامة أمير المؤمنين . ولا أحب أن يعرف أحد
منهم ولا سواهم بخروجك ، ولا أريد أن يخاطبك أحد ولا أن
يقول لك كلمة ولو كانت سلاما واحتراما . انى أكثر حرصا عليك
منك » قال ذلك بنعمة الحب

فظلت لمياء على تجاهلها وقالت : « بارك الله فيك فأنا واقفة
من مروءتك ، وأحب أن تكتم ما رأيت.. وكأنك لم تشاهد أحدا »
فأسأنس بهذه الوصية واستدل بها على ميل نحوه وقال :

« قلت لك انى أحرص منك عليك .. وهذا يكفى »
فلم تجبه ومشت .. ومشى هو فى أثرها عن بعد حتى دنت
من معسكر أبيها ..

- ١٤ -

أبو حامد

وكان ذلك المعسكر خياما مضروبة أكبرها فسطاط الأمير .
فلما دنت من الفسطاط صاح بها رجل من الواقفين للحراسة :
« من القادم ؟ »

فظلت على تنكرها وقالت : رسول من أمير المؤمنين الى
الأمير حمدون ..
فنظر الى ثيابها فحسبها غلاما صقلييا .. فدخل ليستأذن لها
بالدخول ..

وكان حمدون قد عاد الى الفسطاط ، بعد مثوله بين يدي
الخليفة ، وصدره مملوء بالأمانى ، واختلى بصديقه أبى حامد
مدة طويلة ودعاه للعشاء معا .. فقضيا ساعات وهما يشيران لا
يؤذن لأحد بالدخول عليهما ، فلما دخل الحارس يستأذن لرسول
من عند أمير المؤمنين قال حمدون : « ماذا عسى أن يكون من
أمر هذا الرسول ؟ .. فليدخل »

فدخلت لمياء ، ولم تقع عين أبيها عليها حتى عرفها .. فهم أن
يناديها ، فأشارت اليه بالسبابة على فمها أن يكتم أمرها . فأشار
الى الحاجب أن يخرج ويبعد سائر الحجاب عن الفسطاط

وكان فسطاط الأمير حمدون خيمة كبيرة من الجلد المدبوغ بلون أحمر .. وقد فترشت بيساط كبير حمله معه من سجلماسة ، وهو في الأصل مستورد من أسبانيا مما كان أمراء الأندلس يفرشونه في قصورهم .. لأنه كان وهو أمير يقلدهم في أسباب المدنية . والخيمة قائمة على ستة أعمدة علقوا عليها الأسلحة والدروع ، وأثيرت أطراف الفسطاط بالمصاييح

فدعا لمياء للجلوس على وسادة بجانبه ، وأخذ يرحب بها وأبو حامد الى جانبه الآخر.. وهو كهل قصير القامة دقيق العضل كبير الرأس بارز الجبهة خفيف اللحية ، قد برز فكاه وتأت سنانه المتوسطتان من فكه الأعلى تنوءا كبيرا واقتربتا . وله عينا غائرتان متقاربتان ، تبرقان دهاء ومكرا ، كأنهما مصباحان متجاوران قد اختلط نورهما .. وفي أحدهما انحراف الى أعلى ، وبينهما أنف كبير أعقف كأنف النسر .. وقد أرسل شاربه على شفتيه ليخفى سنيه البارزتين . وأهمل لحيته الخفيفة بلا تمشيط . وكان قد تخفف بملابس الليل وغطى رأسه بعراقية سوداء زادت تلك السحنة غرابة .. وكان اذا لقيه الرجل استخف به واجتقره ، فاذا خاطبه تهيب منه لقوة عارضته وفصاحة لسانه

فلما رأى حمدون يرحب بلمياء شاركه في الترحيب ، وهش لها وسبق والدها الى مخاطبتها فقال : « بارك الله فيك لقد جئت في ابان الحاجة اليك . ولكن ما الذي جاء بك في هذا الليل ؟ » فضحك أبوها وقال : « يظهر أن روحنا خاطبت روحها عن بُعد ، فلبت الطلب .. »

فقلت لمياء والاهتمام باد في عينها البراقتين : « جئت ياسيدي لأمر أهني كثيرا »

قال وهو يتسم : « لعلهم أنباؤك بما دار بيننا وبين المعز في هذا الصباح »

قالت لمياء : « لم ينبؤوني ولكنني سمعت الحديث بأذني »
فتصدى أبو حامد للكلام قائلا : « أهنتك يا لمياء بهذا النصيب الحسن » فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت : « وأنت تقول ذلك أيضا ؟ »

قال أبو حامد : « كيف لا أقوله ؟ » ونظر الى أبيها كأنه يستشير ..

فقال حمدون : « نعم يحق لنا أن نهنتك يا بنية فان هذا النصيب لا يتأتى لأحد من أهل القيروان »
فالتفت الى أبي حامد وقالت : « وسالم ؟ » وهي تتوقع أن تتمحبه بذلك الاعتراض ..

فقال أبو حامد : « سالم ؟ حتى سالم يفرح لك بهذا النصيب »
فدهشت لهذا الجواب وقالت : « سالم ؟ .. لا .. لا .. لا أظنه يفرح ولا أنا فرحت به »

فالتفت أبوها اليها لفتة الاستغراب وقال : « وأنت لم تفرحي به ؟ .. يا لله ما الذي تتوقعينه أحسن من هذا ؟ »

قالت لمياء : « أتوقع أن .. » وغلب عليها الحياء فسكتت
فقال أبو حامد : « ان كنت ترفضين هذه النعمة ابقاء على سالم فانا أضمن ارتياحه اليها »

قالت لمياء : « سالم لا يرضى أن أكون لسواه .. كلا »
فضحك أبو حامد ملء فمه ، وهز رأسه باستخفاف ، وقال :
« يظهر أنك تنظرين الى هذا الزواج من وجه واحد فقط »
فاستغربت هذا التعبير وقالت : « وهل ينظر في هذا الأمر من
عدة وجوه ؟ »

فأخذ حمدون وأبو حامد ينظر كل منهما الى صاحبه
ويضحك . وأغرق أبو حامد في الضحك حتى كاد يستلقي على
قفاه ، وقد برز سناه من بين شعر شاربه .. فشق ذلك على لمياء
فابتدراها أبوها قائلاً : « ألا يكفي لقبولك هذا النصيب أن
يكون قد تم الاتفاق عليه بين أبيك وأمير المؤمنين ؟ وإذا كنت
لا تبالين بارادة والدك ، ألا تهاين أمر الخليفة ؟ » قال ذلك في
لهجة عتاب وتوبيخ ..

فخرجت من هذا التعريض لكنها لم تقتنع ، فسكت وأطرقت
وفي سكوتها انكار لما يطلبونه منها . فتصدى أبو حامد وهو
يظهر التلطف والاهتمام ويتشغل باصلاح طاقيته وقال لها :
« أنا لا أشك في تعقلك وحكمتك ، ولذلك فأنا أخاطبك
بصراحة . أؤكد لك لو كان سالم هنا الآن لأمرك أن تطيعي
والدك وتقبلي ما عرض عليك .. ليس لأنه لا يحبك ، ولكن
لأنه يرجو من ذلك خيراً لنا جميعاً »

فلما سمعت قوله استغربت ما فيه من التلميح ، ولم تفهم ما
يريد وهي تعلم ان سالماً اذا كان يحبها كما تحبه لا يرضى أن
تكون لسواه ولو أعطى مال العالم كله . ولم تفهم ما هو النفع

الذى يرجوه من قبولها .. فوقعت فى حيرة وظلت ساكنة ، وقد ظهر الارتباك فى عينيها ، فتنحى أبو حامد فنهض والدها وخرج من الخيمة وهو يتظاهر أنه يريد حاجة عرضت له.. فبقيت لمياء مع أبى حامد ، فتوجّه نحوها باهتمام ، وقال : « أرجو أن تكونى قد فهمت مرادى »

فرفعت بصرها اليه وقالت : « كلا ياسيدى .. أعترف لك انى لم أفهم مرادك . وأنا أعلم ان سالما اذا كان يجبنى كما تقولون لايمكن أن يرضى بهذا الأمر .. أقيس ذلك على نفسى » وأطرقت وقد توردت وجنتاها من الحجل ، وأخذت فى اصلاح المنطقة جول خصرها كأن ثوب الصقالبة قد ضايقها لأنها لم تعودده فقال أبو حامد ، وهو يخفض صوته، كأنه يسرّ اليها أمرا هاما : « انى أجل ذكائك عن أن يخفى عليك مرادنا .. أم هل أنت الآن راضية بالبقاء أسيرة كالجارية فى بيت ذلك الأمير المغرور ؟ » قال ذلك وفى صوته لهجة الاحتقار .. فتذكرت لمياء ما كانت تعلمه من قمته على المعز قبل أن يتغلب عليه .. ولكنها كانت تحسب أنه غير عزمه واقتنع بما صار اليه لعجزه عن مناهضته ، وأحسّت حين سمعت أسلوبه فى التعبير ، بغيره هبت فى صدرها للدفاع عن نفسها وعن المعز فقالت : « لم أكن أتوقع منك يا عماء ما سمعته ، فما أنا جارية ولا المعز مغرور »

فقال أبو حامد : « لله ما أطيب سريرتك .. انهم خدعوك فحولوا قلبك عن والدك وأهلك .. وصرت تجدين الأسر عزا والذل سعادة . أين انفة لمياء راعية الجواد الأدهم سليمة

آل مدرار أصحاب سبلماسة ؟ .. أم غرك ما فاله أولئك من
الظفر مصادفة ؟ انهم غير أهل للملك والتحكم فى الرقاب . ألم
ترى منازلهم لا تتميز عن منازل العامة ، يجلس أميرهم على اللبود
ويلبس كسائر الناس ؟ أين أبته الدولة التى كانت لوالدك
وأجدادك ؟ ان آل مدرار وحدهم أهل للسيادة وبهم وحدهم
يليق الملك . أقول ذلك وما أنا لسوء حظى منهم ، ولكننى أعرف
منزلتهم ولا غرض لى غير الانتصار للحق .. ولو كان والدك
هنا لحاطبك بمثل ما خاطبتك به .. »

- ١٥ -

حيرة ١

وكانت لمياء تسمع وتعجب ، ولم تستطع صبرا على السكوت
فقالت : « أراك يا عماء قد بالفت فى التفرع ولا أرى حاجة الى
ذلك .. ان المعز لدين الله لم يبلغ ما بلغ اليه من سعة الملك الا
لأنه أحق بهذا الأمر بما له من النسب الشريف ، انه من أبناء
الرسول وقد جاربنا وحاربناه ، ولو كان الحق فى جانبنا لاتصرتنا عليه .
لقد كنت فى مقدمة المحاربين المدافعين ولا أزال أحب الاستقلال ،
ولكننى لا أجد اليه سبيلا . وهذا أمير المؤمنين قد أكرم وفادتنا
وأحسن الظن بنا ، وأخلصنا النية له .. فلا ينبغي أن نخونه »
فضحك ثم قطع ضحكته فجأة وقال : « لم أستغرب من قولك
الا اعتقادك أن النسب الذى يدعيه هؤلاء لأنفسهم صحيح .. أنا
أعلم الناس بأنسابهم ، ولكن الانسان اذا تغلب اتحل النسب

الذى يريدہ . أما قولك انهم تغلبوا ، وان ذلك دليل على حقهم في الخلافة فهو منقوض لأنهم لم ينالوا هذا الأمر ببطشهم ، وأنت تعلمين أن أبا عبد الله الشيعي هو الذى سلم اليهم هذا السلطان وأنصاره هم أهل هذه البلاد .. ثم كافأ هؤلاء الخلفاء بالقتل ، أليس كذلك ؟.. وتقولين مع هذا انهم أكرموا وفادتنا وأحسنوا الظن بنا ؟ ما الذى أكرموكم به وقد سلبوكم سلطانكم واغتصبوا أموالكم ونهبوا منازلكم ، يكفى ما أخذوه من قصرک من التحف والأثاث والرياش .. أين جوادک ؟ بل أين مرآتک الذهبية التى كانت فى غرفتك ؟.. أين حاضنتک التى كانت تعنى بملابسک وتدير شئونک ، أين ماشطتک ومرييتک ؟.. ألم يكن الخدم عشرات فى منزلک ؟.. واذا ركبتم وقفوا ، واذا مشيت تظامنوا ، واذا أمرت أطاعوا .. وكنت الملكة الآمرة الناهية ، لا يسمع فى القصر غير أمرک ونهيک .. نسيت كل ذلك وأعجبتک أن تكونى رهينة عند هذا الرجل وتقولين انه أكرمک وأحسن وفادتک ؟.. انهم لم يكرموا أحدا مثل اكرامهم أبا عبد الله المأسوف عليه ، ثم قتلوه غدرا » قال ذلك وغص بريقه ، وكاد يشرق بدموعه ..

فتأثرت لمياء من قوله .. وكانت تعلم غدر الفاطميين بأبى عبد الله ، لكن تعلقها بطهارة نسبهم كان يحجبهم اليها ، فضلا عن اعتقادها بعجز والدها عن التغلب عليهم ، وخاصة بعد ما شاهدته من لطف المعز وزوجته وقائده وسائر أهل ذلك القصر.. على أنها حين سمعت ما يذكرها بسابق عزاها ومجدها وشرف أسرتها وفخامة ملكهم ، تنبعت فيها شهوة الملك ونعرة السيادة ، فضعف

حماسها للمقاومة .. وأرادت أن تباحث أبا حامد في الأمر وهي لا ترى بأساً من ذلك فقالت : « ان ما قلته صحيح لاشك فيه ، لكن ما الفائدة منه ونحن لا حول لنا ولا طول و ... »

فقطع كلامها قائلاً : « هذا شيء آخر سنبحث فيه ، وقد سرني انك رجعت الى ما هو جدير بك من المحافظة على شرف أهلك وعز الملك .. أتم آل مدرار توارثتم السيادة كإبراهيم عن كابر ، وأحرزتم الملك بحد السيف لا بالحيلة وادعاء النسب الشريف » فتحيرت لمياء لما سمعته من التناقض فقالت : « اذا كان الأمر كذلك فما بالكم ترغبونني في ابن ذلك القائد وهو مولى بن مولى ، وعنتموني على تردددي في أمره ؟ »

فابتسم وقال : « ان شعرة من رأسك تساوي ملك هذا الخليفة وكل قواده .. ان ذلك الشاب لا يساوي قلامة من ظفرك » فاستغربت قوله وفلته يمزح فقالت : « لم أفهم مرادك ياسيدي ! »

فقال أبو حامد : « مرادى ؟ .. ألم تفهمي مرادى ؟ وعهدي بك الذكاء ، أو لعلك تتجاهلين ؟ أتظنين أن سالماً يرضى أن يحظى بك أحد من العالمين وهو على قيد الحياة ؟ » فازدادت دهشتها وقالت : « قلت لكم ذلك - فغضبتم علي » انني لا أزال أجهل ما تريد »

فضحك ونظر نحو باب الخيمة ، وهم كأنه يتحفز للنهوض . فالتفتت ورأت أباها داخلاً ومعه رجل ملثم ملتف بعباءة لا يبدو منه إلا عيناه ، فلم تعرفه .. وابتدرها قائلاً وهو يهش لها :

« لعلك لا تزالين على تمسكك بالرفض ومقاومة أمر الخليفة وإرادة والدك » قال ذلك وهو يتقدم حتى جلس في مكانه والرجل المثلث واقف بجانب أحد أعمدة الخيمة كأنه متكئ عليه.. فشغل خاطرهما به وخشيت أن يكون في الأمر دسيسة ، لكنها لم تشك في والدها .. ولما سمعته يطرح ذلك السؤال عليها قالت : « ولكن ألم أبا حامد يقول انكم تبخلون بى حتى على الخليفة ، ولا تضحون بشعرة منى بكل ملكه »

فضحك ضحكة تهكم ، وقال : « هل قال لك ذلك ؟ .. هل صدقته ؟ .. لا .. لا .. كيف نخرج من أسر أمير المؤمنين ؟ .. كيف تنكر فضله علينا ؟ .. انا مدينون له بحياتنا » قال ذلك وتضحخ .. ونظرت لمياء في وجهه فرأت في عينيه معنى غير الذى نطق به لسانه . والعين أصدق تعبيراً من اللسان ، فعلمت انه يتهمك ولكنها تجاهلت وقالت : « لقد حيرتمونى فد امرى .. فأصبحت لا أدري من أصدق »

ونظرت الى والدها فرأت الغضب في عينيه ، وهما تكادان تقدحان شررا ، وشاربه يرقص في وجهه . وقد تعودت ذلك فيه اذا اشتد غضبه ، فتملكتها الهية وأحزم منظره فيها.. وثوقعت أن تسمع جوابه فرأته قد نهض مسرعا وهو يتعثر بحمايل سيفه وأردان جبهته.. ومشى على البساط مشية ملك يخطر تيهها وعجبا ، وليس في قدميه نعال ، وكان قد نزعهما بباب القسطنطين كالعادة . فالتفتت نحوه وهى ترقبه وتنتظر خلسة الى الرجل المثلث .. وقد ازدادت دهشة ولبثت صامته ، ووقع نظرها على أبى حامد فرأته

ينظر اليها ويشير بسبابته على شفته السفلى أن « اسكتي لنرى »

- ١٦ -

عز الملك

أما حمدون فبعد أن خطر مرتين ذهابا وإيابا وهو يلعب شاربه ،
وسيفه يجر على البساط ، وقد انحرفت عمامته من مكانها ولم
يتبه لها من الغضب ، وقف بين يدي لمياء وقال : « لمياء يالمياء ..
الى متى تتجاهلين ومثلك لا يحتاج الى ايضاح ، هل تصدقين أن
أباك أمير سجلماسة سلالة آل مدرار السادة الفاتحين يرضى
بمصاهرة عبد صقلى يباع أمثاله فى الأسواق بدنانير قليلة ؟ هل
صدقت اثنا نعيم طلب صاحب القيروان التفاتا » . وانما قد وافقناه
حتى يتيسر لنا ما نريد .. لا تكونى ساذجة وأنت ابنة حمدون
صاحب سجلماسة قائدة الجند فى ساحة الحرب . ما أسرع ما
نسيت مجدنا وملكننا نحن أصحاب سجلماسة السادة الفاتحين ؟
لا يعرفك ما أتيج لهم من النصر ، انها فلتة لا تستمر الا ريشما
توافقيننى على ما أطلبه منك .. فيذهب ملكهم ونسترجع ملكنا ،
ونخضعهم لسيوفنا » .. قال ذلك وهو يرتعش من الغضب ..
فتحمست لمياء وعادت اليها روح السيادة وحج الرئاسة ،
وتأثرت مما ظهر من تحمس والدها ، لكنها أعملت فكرتها فلم
تجد كلامه مبنيا على شئ واضح ثابت ، لعلها انهم هناك كالأسرى
عند المعز لدين الله ، وان جند والدها وان كثر لا يعد شيئا الى
جانب جند المعز وأتباعه . ولكنها أذعنت لقوله بنفوذ الأبوى ،

فان الولد كثير التصديق لما يسمعه من والده ومعلمه ولو كان مستحيلا . ومع ذلك فهي لم تفهم حقيقة ما يريدونه من ذلك التناقض فقالت : « صدقت يا أبتاه .. وهل ترى وسيلة لارجاع ما كان الى ما كان ، انى أبذل روحى فى هذا السبيل »

فلما سمع قولها أكب عليها ، وضمتها الى صدره ، وقبل رأسها ، وابتسم ابتسام من فاز بضالة كان يبحث عنها وقال : « بورك فيك من ابنة عاقلة .. انك جديرة بأن تكونى ملكة سجناسه ، والملك سيثول طبعاً اليك اذ ليس لى أبناء سواك »

فأخذتها عزّة الملك ، وشغلته عن انعطافها الى المزم وأهله ، وتذكرت ما كانت فيه من الرفعة والكلمة النافذة ، وكيف كانت الرءوس تطأطئ لها واللى ترتجف تهيباً منها .. فنهضت عن تحسس ووقفت بين يدى والدها قائلة : « انكم تخاطبونى بالالغاز والأحاجى . ما معنى هذا التناقض ، قل يا أبتاه ما الذى تريدونه منى ؟ .. وقبل كل شئ أحب أن أتحقق من عدولك عن الرضا بطلب المزم لدين الله »

قال والدها : « أما هذا فلا .. لا أعدل عنه . انها فرصة

لاينبغى أن نضيعها .. انها فرصة ثمينة لتحقيق أهدافنا » فلم تفهم قصده فقالت : « كيف تريدون أن أكون ملكة فى سجناسه وتطلبون الى أن أتزوج أحد أتباع صاحب القيروان ؟ » فقطع كلامها قائلاً : « لا أعنى أن تتزوجيه .. ان باعه أقصر من ذلك كثيرا .. كيف تتزوجينه وسالم حى ؟ .. لو بلغ ذلك سالماً ماذا يقول عنا ؟ .. بل ماذا يقول عنك وأنت راعية الجواد

صاحبة السيف حامية حمى آل مدرار .. أنا لا أعنى حقا ،
قبولك أن تزوجى ذلك الرجل .. ولكننا نريد أن يكون قبولك
لاسترجاع ملكنا بطريقة سأشرحها لك ، وانما أريد أن أعلم قبل
كل شيء هل فهمت مرادى ؟ »

قالت لمياء : « لم أفهمه بعد »

قال والدها : « ان مرادى أن تتخلص من صاحب القيروان
وقائده . واذا تخلصنا منهما لا يبقى في افريقيا كلها من يقف في
سبيلنا أو يمنع سيادتنا .. »

قالت لمياء : « وكيف تتخلص منهما ؟ »

قال ، ويكده على قبضة خسامه ، كأنه يستكته : « قتلها »
فأجفلت وتراجعت واستغربت هذا التصريح ، وهى تعرف
تهور والدها واندفاعه ، ولم يكن يخطر لها انه يتصور قدرته
على هذا العمل ، ولكنها اعتقدت انه لا يقول ذلك الا وهو على
ثقة من قدرته عليه .. فالتفت الى أبى حامد ، وكان لا يزال جالسا
ويدها متشابكتان وقد أطرق كأنه يفكر باهتمام . ثم حولت نظرها
الى الرجل المثلث بجانب العمود وقالت فى نفسها : « من عساه أن
يكون هذا المثلث الذى شهد هذا التصريح الخطير .. لا بد أن يكون
من الأقرباء » وخطر لها أن يكون سالما نفسه .. وحين خطر لها
هذا الخاطر خفق قلبها ، ولم تعد تستطيع صبرا على استطلاع
الحقيقة ، فنظرت الى والدها وكان قد عاد الى التمشى .. فسارت
نحوه حتى قبضت على يده ، وقالت بصوت ضعيف : « أراك
تقول ما تقوله على مسمع من هذا المثلث .. فمن هو ؟ »

قال والدها : « ستعلمين حالا.. ولكن بعد أن توافقيني على ما قلته لك ، انى لم أعد أستطيع صبرا على الذل .. بكلفوننا اذا دخلنا على صاحب القيروان أن نجنيه تحية الامارة ، وأن تؤمن على كل ما يقوله ، وأن ندعوا له بطول البقاء ، وأن نقول له بأننا عبيده الطائعون ، واننا سنضرب بسيفه ونجاهد فى سبيله ، وانه صاحب الحق فى الخلافة .. وانه من نسل فاطمة الزهراء .. و.. ان ذلك فوق طاقة البشر . نحن أصحاب سجلماسة من أجيال متوالية ، وقد تأصلت السيادة فى عروقتنا فلا نستطيع احتمال هذا الذل .. فاما النصر ، واما الموت .. »

فازدادت لمياء حمسا بهذا القول ، وتناست كل شىء فى سبيل العودة الى مجدها وعزها .. وسرها فوق ذلك انهم لا ينوون اكرامها على قبول ابن جوهر بدلا من سالم حبيها . فافتنعت بهذه النتيجة وفرحت ، ولكنها لم تفهم سر ذلك التناقض .. اذ يريدونها أن تقبل الزواج بالحسين وهم لا يسمحون بشعرة منها له ، فكيف يتفق ذلك .. فقالت لوالدها : « ان ما تطلبه ياسيدى هو غاية مرادى ، ولا بد من أن تتحين الفرص لتحقيقه .. أما الآن فأرجو أن توافقنى على التخلص من طلب المعز ليطمئن بالى .. »

فقطع كلامها قائلاً : « لن تسنح لنا فرصة أفضل من هذه »
قالت لمياء : « وأية فرصة تعنى ؟ »

قال والدها : «قبولك لما طلبه صاحب القيروان . وقبل اتمام الزواج تذهب روحه وروح قائده وابن قائده .. والسلام» قال

ذلك بعجلة ومشى مسرعا الى مجلسه ، وجلس وهو يقتل شارببه وتركها واقفة متحيرة .. فأدركت بعض مراده ولاحظت انه يريد أن يتخذ العقد عليها ذريعة للفتك بالمعز وقائده وابن قائده ، ولا يكون ذلك الا غيلة.. فأجفلت ولكنها تجاهلت، ولم تشأ أن تباحثه في التفاصيل ، وانما وافقها على التخلص من الزواج بغير سالم .. وعادت الى التفكير في ذلك الملمم وهو واقف كالصنم لا يتحرك ، فاقتربت منه وتفرست في عينيه ولم يكن ظاهرا من وجهه سواهما ، وقد وقع نور المصباح عليهما فأبرقتا .. ولم تبفرس فيهما الا قليلا حتى اختلج قلبها في صدرها وصاحت : « سالم .. » فمد يده الى اللثام وأزاحه فاذا هو سالم بعينه .. فلما ظهر وجهه خجلت وأطرقت وتسارعت دقات قلبها ، وخارت قواها على عاداتها معه ، وغلب الحياء عليها وأخذتها البغنة لأنها لم تكن تحسب أن سالما في تلك الديار .. فتراجعت وأطرقت

١٧ -

التحريض

وكان سالم شابا جميل الخلقة متملىء الجسم، وكانت قد أحبتة كثيرا فهي ترى فيه - طبعاً - كل الحسنات ، ولا ترى في الدنيا أجمل منه.. وكانت قوية الارادة مع كل إنسان الا معه ، فانها كانت أطوع له من بنائه . فلما كشف عن وجهه وأطرقت قال لها : « بورك فيك يا ملياء .. كنت أعتقد انك تحبيننى ، ولكن ليس الى هذا الحد . ولا فضل لك فانى أحبك مثل هذا الحب وأكثر .

ولكن حبنا لا فائدة منه ان لم نسترجع مجدنا أو بالحري مجد والدك وسلطانك .. بعد تنفيذ الخطة التي يرسمها لك « فلم تتمالك أن صاحت فيه : « وأنت أيضا تريد أن أرضى بما عرضوه على .. لقد عرضوا على أن أكون لرجل سواك .. » قالت ذلك وهي تتوقع منه أن ينكره ويعترض عليه ، فإذا هو يقول : « أريد ذلك مؤقتا .. نعم أريد أن تظهرى قبورك له ونحن ندبر ما يلزم في حينه » ومشى حتى جلس بجانب عمه أبي حامد وأشار الى لمياء أن تجلس أما هي فشغلها فرحها بتلك المقابلة عن كل خطر تتوقعه .. ودهشة اللقاء تنسى المحيين كل شيء لاشتغال عواطفهم بالحاضر عن سواه ..

ورأى أبو حامد أن الثمرة حان قطافها فبادر الى اتمام معداتها ، فتزحزح من مكانه كأنه يستعد للحديث طويل ونظر في أطراف الخيمة ولسان حاله يقول : « هل يسمعنا أحد ؟ » فقال حمدون : « انت في مأمن يا أبا حامد لأنى أمرت الحرس بالوقوف بعيدا ، وأن يمنعوا أيا كان من الوصول إلينا »

فمسح شاربه ولحيته بأنامله ، ونظر الى لمياء باهتمام وقال لها : « قد وصلنا الآن الى الذروة يا لمياء .. هذا هو سالم صاحب الشأن ، وقد سمعت قوله — أنا غريب عن آل مدرار وان كنت صديقا لهم — ولكننى مستعد أن أبذل حياتى فى سبيل نصرة الحق ومقاومة أولئك الخونة الذين نالوا هذه السيادة بالقدر والنفاق كما تعلمين .. فلا يغرك ما يبذونه من التقشف بالملابس

والأثاث ، فإن الذهب عندهم بالقناطير وانما يموت هون على الناس
ليكسبوا عطفهم ، ثم يفتكون بهم كما فتكوا بأبي عبد الله
الشيعي وتنهذ ثم عاد الى الكلام فقال : « وهذا والدك صديقي
الأمير حمدون أولى الناس بالامارة ولا حاجة به الى دعوى كاذبة
مثل دعواهم من الاتساب الى فاطمة الزهراء ، وانما يكفيكم
الاتساب الى آل مدرار وشرفهم معروف لا يختلف فيه اثنان ..
لاتظني أن هذا التفكير وليد الساعة عندنا ، ولعل والدك لم يصرح
لك به .. ولكننا بحثنا فيه ونحن في سجداسة ودبرنا المهمات
اللازمة للتغلب على افرقية كلها ، ففسد تديبرنا لأسباب قهرية
وأفلح ذلك الصقلي وتغلب علينا ، ولكن فوزه لا ينبغي أن يضعف
عزمنا عن طلب حقنا .. وقد توهمين ان رجالنا أضعف من أن
يستطيعوا محاربة جند القيروان ، ان ذلك صحيح بحسب الظاهر
وقد ينخدع به غير العارف ، أما أنا فأؤكد لك ان هؤلاء الأمراء
والمشايع من كتامة وصنهاجة الذين يظهرون الطاعة لهذا الرجل
انما يفعلون ذلك تملقا له ، وهم يتوقعون فرصة للخروج عليه ،
ولا بد من واحد يبدأ بهذا العمل فيتبعه سائر الأمراء وتكون
السيادة له . فأحب أن يكون ذلك الشرف لوالدك فانه أعرقهم
حسبا ونسبا فلا يكاد ينهض حتى ينهضوا معه .. فكيف اذا دبرنا
وسيلة لقتل المعز وقائده وهما روح تلك القوة الوهمية .. ان
القوم كلهم سوف ينضمون إلينا حتى أهل الخليفة أنفسهم ،
لأنهم ناقمون متحاسدون » وتنحج ومسح شاربه بمنديله ،
وتشاغل بذلك لحظة وهو ينتظر ما يبدو من لمياء

أما هي فكانت قد غلبت عليها شهوة الشرف ، وجب الاستقلال وتذكرت ما كان لها من السيادة والأبهة في زمن والدها..
فغشى ذلك على احترامها للمعز وجبها لأم الأمراء .. وكان أبو حامد صاحب نفوذ في حديثه ، وسلطان في برهانه ، فأقنعها كلامه ورأت الحق في جانبه وتأثرت به حتى شغلها عن وجود سالم هناك .
لكنها ظلت ترى صعوبة ذلك العمل .. فبقيت صامتة لتسمع بقية الحديث وترى ما يراه سالم .. وأدرك أبو حامد ما في خاطرها فقال : « انى أوجه الكلام لك يا لمياء لعلنى انك عاقلة وعليك المعوئل في هذا الأمر.. فلا تغررك كثرة جند القيروان للأسباب التي ذكرتها .. وعندنا مع ذلك جند يظهر عند الحاجة ، وعندنا أموال مدفونة لو أخرجناها لدهش العالم من كثرتها ، وهي معدة قبل ولادتك ، وولادة سالم ، لمقاومة هؤلاء الغادرين وارجاع الملك الى أصحابه. وليس في إفريقية أولى به من والدك»
فظهر لها من كلامه أمور كانت قد عرفت بعضها من أحاديثها مع سالم قبل الأسر .. والمحجب لا يؤمن على سر لايوح به الى حبيبه ، فاذا شئت أن يبقى سرك مكتوما فاحذر أن تستودعه محبا.. لكنها تظاهرت أنها لم تكن تعلم بشيء من هذا القبيل الا في تلك الساعة ، ونظرت الى والدها فرأته ساكنا، والتفتت الى سالم فاذا هو ينظر اليها كأنه يتوقع أن يسمع رأيها فقالت : « انكم تسعون في أمر هام تقطع دونه الرقاب وتزهق النفوس ، ولكن بذل الحياة في هذا السبيل لذيذ.. انى ياعماء أبذل حياتى اذا كان في بذلها مصلحة لوالدى . على انى أستمحكم عذرا في كلمة

أقولها وان كنت فتاة ضعيفة العقل.. ان ما تسعون اليه من جمع كلمة القبائل تحت سلطان رجل واحد ، لم نسمع انه تم لغير الخلفاء أصحاب النسب في قریش. ان الناس لا يخضعون لسواهم ، حتى صاحب القيروان لم يصل الى ما وصل اليه الا بهذا النسب ، سواء كان صحيحا أو غير صحيح.. وبغير ذلك لا يتم شيء و .. »

فقطع أبو حامد كلامها وهو يضحك ضحك الاعجاب بتعقلها وسداد رأيها وقال : « بورك فيك من حكمة عاقلة . قد أثرت ناحية لم يفتن اليها أحد سواك .. ولا ينتبه لها غير العقلاء الدهاة . صدقت ان الأمراء لا تجتمع كلمتهم الا باسم الدين ، وهذا أمر قد دبرناه وخبرنا بشأنه خلافة أرسخ قدما وأصدق نسبا من هذه .. كوني مطمئنة ، لم يبق الآن الا خطوة واحدة ، وهى أن تتخلص من هذين الرجلين وثالثهما اذا أمكن ، وهذا لا يتم الا على يدك . لا أطلب اليك أن تباشري ذلك بنفسك وانما يطلب منك أن تظهرى انك رضيت بأبن جوهر ، ونحن ندبر ما بقى ونقول ما ينبغى »

فأطرقت هنية تفكر فيما رأته من الغرائب فى تلك الليلة ، وكيف أتت وصدرها مملوء بالاعجاب بالمعز والاخلاص له ولأمراته ، وما لاقاها به الحسين بن جوهر فى الطريق من دلائل التعفف وصدق المودة .. وهى الآن تكاد تتأمر على قتلهم . فأجفلت وظهر التردد فى عينها ، فبادرها سالم بالحديث قائلا : « لم أكن أشك انك لو طلب منك أن تقتلى ذلك الرجل بيدك فى سبيل ارجاع سلطة والدك لفعلت ، فكيف وهم لا يطلبون سوى

سكوتك ورضاك .. أطيعي لتلا يقال انك وقفت حجر عشرة في طريقهم ، وأنا على يقين انهم ظافرون . وسترين ان ما يبدو لك من مظاهر القوة عند هؤلاء العبيدين انما هو سحابة صيف .
وكان لكلام سالم وقع خاص على أذني لمياء ، ولو طلب منها أن ترمي نفسها في النار لفعلت . فلم تجد بدا من اظهار الرضى واعتقدت انهم على صواب — ومع ذلك تركت الأمر للمستقبل فان الوقت يفعل ما تعجز عنه حيل الرجال — فقالت لسالم :
« انما كنت أتمنع رغبة فيك عن سواك ، فاذا كنت تريد ذلك فأنا فاعلة »

فقطع كلامها متحدثا بلغة الحب وقال : « لا أعنى أن تقبلى الى النهاية .. ولكن اقبلى فاذا لم أستطع أن أقطع الجبل قبل أن يمسكوا به فما أنا أهل للظفر بك .. وتكونين قد ظفرت بأعظم شاب عندهم .. » قال ذلك وتنحنح وابتسم ، متظاهرا بالمداعبة .. وهو في الحقيقة يعنى ما يقول .. وهو الواقع

— ١٨ —

العودة

فتصدى والدها عند ذلك ، وقد سره اقتناع ابنته فقال :
« بورك فيك يا ابنة صاحب سجلماسة .. انهضى الآن وارجمي الى قصر المعز اذا شئت ، ومتى سئلت عن الرضى بالخطبة فقولى انك رضيت لأن أباك وأمير المؤمنين رضا .. أفهمت ؟
هل أرسل معك من يوصلك الى المنصورية .. قصر المعز ؟ »

فنهضت وهى تقول : « لا أحتاج الى أحد »
 فاعترض سالم على ذلك ، وقال : « كيف تذهبين وحدك في
 هذا الليل ؟.. سوف أرافقك الى هناك »

فتذكرت انها لا تلبث عند خروجها من معسكر أبيها أن تلتقى
 بالحسين بن جوهر ، فكيف تجمع بين المتافسين ؟.. فألحقت على
 سالم أن لا يرافقها لا هو ولا سواه لأنها أتت وحدها وتعود
 وحدها ، وهى متكرة بملابس خدم القصر ولا يثير مظهرها
 الشك . فقال لها أبوها : « ومع ذلك لا بأس من ارسال بعض
 الحرس في أثرك ولو عن بعد لأتينا لا نعلم ما يحدث »

فاستحلفت أن لا يفعل فسكت وقبلها وودعها ، وودعت سالما
 والعلم أبا حامد ، ولكل منهم وداع خاص بصورة معينة ،
 وأصلحت هندامها وخرجت ، وقد اشتد الظلام والأرض خالية
 بين المعسكرين لا أنيس فيها .. فمشت حتى خرجت من معسكر
 والدها ، فما لبثت أن رأت. شبطا يقترب نحوها عرفت انه
 الحسين ، كان في انتظارها وجاء لمرافقتها الى المنصورة ..
 فأحست عند رؤيته بوخز في ضميرها واحتقرت نفسها لأنها كانت
 منذ ساعة صادقة للهجة شريفة النفس ، لا يخامر ذهنها غش أو
 خداع ، وهى الآن تخادع وتغش . وهذا الشاب ينبغي أن تظهر
 له انها تريده مكرًا وكذبًا ، وأصبحت تعد نفسها كالمثأمرة على
 قتله وقتل والده والخليفة المعز الذى يسهر على سلامته ويشديه
 بروحه .. مرت هذه التصورات في ذهنها مرور البرق والحسين
 يمشى نحوها .. فلما اقترب منها حيّاها باحترام ، ولم يزد على

أن مشى بجانبها كالخادم الموكل بمرافقة مولاه الى مقصد .
فأكبرت منه هذا التلطف ولم تتمالك أن قالت : « لقد أتعبت
نفسك ياسيدى فى الانتظار طويلا فى هذا الليل »

قال وهو يماشيناها على مهل : « لم أتعب نفسى ياسيدتى فان
ذلك فرض على بل هو من بواعث سرورى .. كيف وجدت
والدك الأمير ؟ .. عساه أن يكون بخير ؟ » قال ذلك وهو يشير
الى ما كان يتوقعه من أن يطلعها على خبر خطبته إياها ، ولم
يكن يشك فى انها ستفرح به وتحسب نفسها سعيدة

وأدركت هى غرضه من ذلك السؤال ، وأثر فيها تليفه كثيرا
فقالت : « ان والدى بخير والحمد لله » وكانت تريد أن تزيد على
ذلك انه شاكر راض وانه مشمول برضى أمير المؤمنين .. فلم
تشأ أن تكذب ، فاقترعت على هذا الجواب المختصر .. فحمل
ذلك منها محمل الحياء وعمد الى مداعتها فقال : « يسرنى أن يكون
والدك مسرورا ولكن يهنئ أن تكونى أنت مسرورة أيضا »

فهمت مراده وشعرت بصدق طويته وخلوص نيته فى حبها ،
وكيف تضمر هى غير ما تقول ، فعظم ذلك عليها وشعرت بصغر
نفسها وتلجلجت ، لكنها تجللت وأجابت : « وأنا أيضا مسرورة
لما حدثنى به من اهتمام أمير المؤمنين وأم الأمراء .. انها فى
الحقيقة قدوة الأميرات حفظها الله »

وأراد الحسين أن يعتنم تلك الفرصة لمخاطبتها بصراحة فى .
أمر الخطبة ، وليس هناك من يسمع .. ومهما يكن من تحجب
الفتيات عن طلابهن أمام الناس ، فاذا خلت احداهن بخطيبها

يرتفع الحجاب ويتشاكيان . ولم يجد الحسين فرصة آئمن من هذه ، ولا أوفق منها وهما في غفلة عن الرقباء . ولم يكن يشك أبدا في أن أباهما قد فاتحها في شأن خطبته ، وإنها رضىت ولكن الحياء يمنعهما من التصريح ، فعمد الى تشجيعها فقال : «أنشعرين يا لمياء بالسرور الذى أشعر به أنا ؟ »

فشق عليها أن يفاتحها بالمناجاة وأحاديث الغرام ، وهى فيما علمت من التردد والارتباك فقالت : « لا أعلم مقدار سرورك ولا نوعه ولكننى أعلم انى مسرورة من حسن وفادة أمير المؤمنين وأم الأمراء » وأظهرت البغته وهى تقول : « أظننا صرنا على مقربة من المنصورية ، فانى أرى أنوارها .. أشكرك شكرا جزيلا على تنازلك ياسيدى فقد أتعبتك » وهبت بفراقه

فقال الحسين : « لا نزال بعيدين عن تلك المدينة ، وإن كنت ترين أنوارها ، فلا تتعجلي في الفراق .. الا اذا كنت قد أثقلت عليك في الحديث ، ولعلنى اتجهت الى ما هو أبعد مما يجوز لى .. ساعينى » قال ذلك بلهجة العتاب

فخجلت لمياء وودت لو أنها لم تقابل أباهما في تلك الليلة لأنها كانت تعرف ماتحيب به على تلك الأسئلة في صراحة. فربما أجابت أنها تحبه وتحترمه ولكنها مخطوبة لسواه . أما الآن فمع اعتقادها أنها كذلك فهم يطلبون منها اظهار رضاها به . وقد يسهل عليها الجواب اذا سألها الخليفة أو أم الأمراء ، وأما هو فيصعب عليها الكذب عليه ، وهى تشعر بأنه يحبها من كل قلبه ، فكيف تخادعه ؟.. ولما سمعت عتابه غلب عليها طيب عنصرها فقالت :

« العفو ياسيدى .. انك تبالغ فى توبيخى ، فهل أسأت الأدب فى خطابك ؟ .. أو كان ينبغى لى أن أعرف حدى فأقف عنده »
فغلبته فى العتاب ، وأحسن انه أساء اليها وجرح احساسها بكلامه ، فقال : « انى لا أستحق هذا التقرير يا لمياء .. وانما أنا أحتال فى سماع كلمة تدل على رضاك وكفى »

— ١٩ —

مصادفة غريبة

فلم تجد لمياء خيرا من السكوت .. لأن الكلام يجز الكلام وهى لا تعرف ما تقول ، وسكت هو تهيأ من سكوتها .. وبينما هما فى تلك الحالة ، اذ سمعا وقع حوافر فرس مسرع وراءهما ، فالتفتت فرأت فارسا قادما من معسكر أبيها ، ولم يقترب منها حتى علمت انه سالم ، فأجفلت من ذلك الاتفاق الغريب ، وخافت على سالم أن ينكشف أمره لأن أهل قصر المعز يعلمون أنه غائب. والمعز يجب أن يقبض عليه .. وهو لم يلحق بها الا مبالغة فى اكرامها لتثبت فى وعداها ، وهم ينون على ذلك الوعد القصور ، ولكنه أظهر انه جاء ليحرسها . فلما رأى الحسين بلباس الحرس ، وهو يمشى فى خدمتها ، فلنه من الحراس ولم يخطر له مطلقا أنه الحسين بن جوهر نفسه.. فوقعت لمياء فى حيرة ، لكنها تجاهلت.. أما الحسين فالتفت الى الفارس وصاح فيه : « مر أنت ؟ » فقال سالم : « وما يعينك من أمرى ؟ سر فى طريقك » فقال الحسين : « بل يعينى .. قف حالا »

وكان سالم قد وصل الى لمياء فلم يجبه ، لكنه خاطب لمياء
 قائلا : « لمياء من هذا الرجل الذى تسارينه ؟ »
 فارتبكت فى أمرها ، وهى لا تعلم : هل يريد الحسين أن يذكر
 اسمه ، أم يجب أن يبقى خافيا .. فتلجلجت فى الجواب لحظة ،
 وهى تنتظر الى الحسين كأنها تنتظر أن يكون الجواب منه
 أما هو فاستغرب خطاب الرجل بهذه الدالة على لمياء مما
 لا يكون الا بين الأقرباء ، فتبادر الى ذهنه انه من أقاربها
 الأقربين ، فخف غضبه اكراما لها وسألها قائلا : « من هذا ؟
 لعله من بعض أهلك ؟ »
 قالت لمياء : « نعم ياسيدى انه من أبناء عمى ، ويظهر انهم
 رأوني ماشية مع رجل لا يعرفونه .. فجاء أحدهم لنجدتى »
 فوجه الحسين خطابه الى سالم قائلا : « لاتخف يا صاحبي انى
 صديق محب ، وأنا فى خدمة ابنة عمك حتى أوصلها الى مأمنها »
 فلم يرض سالم بهذا الجواب لأن لمياء متسكرة بلباس
 الصقالبة ، فكيف تأتى لهذا الرجل أن يعرفها ويسير معها على
 انفراد ؟ .. فسبق الى ذهنه سوء الظن فقال : « من أنت يا صاحب ؟
 لعلك متسكر مثلها .. ومن أخبرك أنها فتاة ، وأنها لمياء ؟ .. »
 فتقزز الحسين من لهجته فى خطابه ، وهم أن يخبره عن حقيقة
 حاله ، لكنه فضل الكتمان حفظا لكرامة لمياء ، فقال : « أنا
 أيضا فى خدمة قصر أمير المؤمنين ، وعرفت بخروجها فى مهمة
 الى والدها الأمير فجئت لمرافقتها فى ذهابها وانتظرت عودتها ،
 وها أنا ذا معها الى مأمنها كما قلت لك »

فاستحسنت لمياء منه هذا الأسلوب وتوقعت أن ينتهى الجدل
لكنها ما لبثت أن رأت سالما قد ترجل عن جواده ، وهو
لا يزال ملثما ، ووقف بين لمياء والحسين ، وولتى وجهه نحوها ،
وقال لها : « لا حاجة الى مماشاة الخدم ، انى أسير فى خدمتك ..
ألم أقل لك انى مزعم على مرافقتك فأيت ؟ »

فتجلدت وهى تخشى أن يغضب الحسين لهذه الجسارة ، وقالت :
« لم أرض أن يأتى أحد معى منكم لأنى على يقين من وجود
هذا الرفيق » قالت ذلك ومشت فمشى سالم بجانبها بينها وبين
الحسين وهو يقول : « لماذا لم تقولى لى عنه من هناك ؟ »

فاستثقلت ذلك الاعتراض ، وتحيّرت فى أمرها ، وقالت :
« لم أجد حاجة الى ذلك »

قال سالم : « كيف ؟ انك بنت الأمير حمدون صاحب
سجلماسة ، ولا ينبغى أن يستهان بك .. وأن يكون رفيقك فى
هذا الطريق المظلم أحد العلمان ، قولى له أن ينصرف وأنا أسير
معك »

فارتبكت فى أمرها وخشيت أن يغضب الحسين ، ويؤدى الجدل
الى القتال أو الى كشف أمر سالم .. وأخذت ترتعد من التأثير
وهى لا تدرى ماذا تعمل ، فأجابه الحسين برزانة ولطف قائلا :
« ان مسيرك معها لا يخلو من الخطر عليك ياسيدى لأن حراس
المدينة سوف يشكّون فى أمرك ، وربما آذكوك أو قبضوا عليك »

فضحك ضحكة الاستهزاء وقال بتهكم : « لا .. لا يقبضون على » ، فأنت لا تعرف من أنا .. سر في طريقك ودعني »
 قال ذلك ومشي وهو يقود الجواد وراءه ، وأوماً الى لمياء أن تتبعه .. فأغضبها عناد سالم ، ولم تعرف كيف تتخلص من هذه الورطة ، وهي تتوقع أن يغضب الحسين ويفتضح أمرها . فرائته ظل ساكتا ، فعلمت انه سكت اكراما لها وصيانة لشرفها لئلا يقال انهم رأوه معها في ذلك الظلام .. فتراجعت وقالت لسالم :
 « لا حاجة بي الى من يحرسني ، وخاصة لأنني صرت على مقربة من السور .. بالله الا رجعت وتركتني أسير وحدي »

فلم يجبها بل ظل ماشيا ، وظل الحسين واقفا مكانه لا يبدى حراكا .. ولم يمشيا قليلا حتى سمعا دبدبة وقرقعة ، واذا بكوكبة من الفرسان خارجين من السور مسرعين نحوهما فقالت : « لماذا فعلت بنا هذا يا سالم ؟ انني أخاف عليك .. لأن الأوامر مشددة في القبض على من يرونه خارج السور ، وأنت تعلم ان القوم يطلبونك فلا أحب أن تفتح بابا للقليل والقال .. أقسمت عليك أن ترجع من هنا .. اركب جوادك الى معسكر والدي »

فعظم عليه قولها واستخف بانذارها وقال : « انهم لن يدركوا مني وطرا »

قالت لمياء : « ولكنهم ربما آذوني بسبيك .. بالله ارجع .. ارجع .. رباه ما هذا العناد .. ! »

- ٢٠ -

الشهامة

والتفتت نحو الحسين فلم تره ، فظنت أن الظلام قد حجبه
 لبعده ، فوقفت وأعدت التوسل الى سالم أن يرجع فأبى خجلا
 من نفسه أن يفر .. فازدادت حيرتها ، وقد ذهبها الوقت لأن
 الترسان وهم عشرة أصبحوا على مقربة منها . وتقدم واحد منهم
 وصوب سنان رجمه نحوهما ، وقال : « من أتىنا ؟ »
 فتصدت لمياء لهم وقالت : « انى رسول أمير المؤمنين كما
 تعلمون .. »

فقال الفارس : « ومن هذا ؟ » وأشار الى سالم
 فقالت لمياء : « هو أحد فرسان الأمير حمدون جاء لمرافقتى
 فى هذا الطريق »

قال الفارس : « قد ذهبت بالرسالة بلا حارس .. وكيف
 يحتاج غلام أمير المؤمنين الى من يحرسه فى بلده . وقد يكون
 هذا الرفيق جاسوسا فلا بد من القبض عليه » قال ذلك وأشار
 الى رفاقه الفرسان فأحاطوا بسالم وقد صوبوا الأسنة نحوه ،
 وأمروه أن يمشى أمامهم . وتقدم اثنان منهم ليأخذوا الفرس منه
 أما سالم فأملت منهما وصاح : « اخصأوا .. لن يقترب منى
 أحد الا أرديته » وهم أن يستل سيفه .. فصاح فيه كبيرهم
 قائلاً : « لا تتعب نفسك فى المحال ، انك فى قبضتنا ولا نريد بك
 سوءا وانما نطلب اليك أن تدخل معنا وتمكث عندنا الى الصباح ،

فنعرضك على القائد جوهر ، فاذا أمر بإطلاقك أطلقناك »

فوقع الرعب في قلبه وندم لأنه لم يصنع لنصيحة لمياء ورفيقها ، ولكنه أكبر الرضوخ وهو يخشى أن يكون في القبض عليه خطر على حياته فوقع في حيرة . والتفت الى لمياء لفتة استغاثة فتقدمت نحو الفارس وقالت : « ألا تعرفني أيها الفارس ؟ أنا أضمن ما تريدونه .. احبسوني مكانه الى الغد وقدموني الى القائد ، وأنا المسئول لديه عن هذا الفارس »

فقال : « قد كان ذلك ميسورا لولا ما أبداه من الوقاحة وهو ملثم ، ويظهر من كلامه انه من أهل سجلماسة فلا بد من القبض عليه » قال ذلك وأشار الى سالم اشارة التهديد أن يمشى أمامهم فقال سالم : « لن أمشى »

فترجل بضعة منهم وهموا أن يوثقوه ، ولمياء تتوسل اليهم أن يتركوه ، ولعلها لو كانت على جوادها ومعها سلاحها لم تبال بهم .. ولكنها كانت راغبة في التستر، ولعنت الساعة التي جاء فيها سالم. وبينما هي في ذلك وعيناها نحو الجهة التي تركت الحسين فيها اذ يشبح يتقدم من تلك الجهة نحوها مسرعا . فعرفت انه الحسين ، فلبثت صامته لتري ماذا يكون ، وخشيت أن يتعمد البحث عن سالم ويكشف وجهه .. لكنها رأته حين وصل الى المكان يصيح في الفرسان قائلا : « دعوا هذا الفارس ، فانه من الأصدقاء » فأجفلوا والتفتوا اليه وقالوا : « ومن أنت ؟ »

فتقدم خطوة أخرى حتى صار بينهم وقال : « اتركوه أنا أعرفه » فلما دنا منهم عرفوه من صوته فتأدبوا وتراجعوا ،

وتقدم رئيسهم وتفرس في وجه الحسين وهو ملثم فلم يعرفه ،
وان كان قد عرف صوته . فلما رآه الحسين يتفرس فيه أزاح
اللثام عن وجهه وقال : « اتركوه »

فصاحوا جميعا : « مولانا الحسين بن القائد جوهر .. أنت
هنا يا مولانا ؟ » وابتعدوا عن سالم ، ورئيسهم يخاطبه قائلا :
« أرجو المعذرة ياسيدي .. لم أكن أعرف ان ابن قائدنا الأكبر
يعرفك » وأكب على يد الحسين يريد تقييلها وهو يقول :
« العفو ، اننا تجاسرنا .. »

فقطع الحسين كلامه قائلا : « لا حاجة الى الاعتذار فقد
أديتم الواجب ، وستالون الجوائز على سهركم .. ولكن اتفق
انى أعرف هذا الفارس ، وهو من الأصدقاء .. فأطلقوا سراحه »
واقترب من سالم وهمس في أذنه قائلا : « ألم أقل لك انى
أخاف عليك من حرس المدينة ، لأنهم لا يعرفونك .. ولا أنا
أعرفك ، ولكننى صدقت شهادة هذا الرسول .. سر فى حراسة
الله » ومد اليه يده ليصافحه مصافحة الصديق

- ٢١ -

القبيل

فمد سالم يده وقد غلب على أمره ، وأخذ الحجل منه مأخذا
عظيما . واستغرب تلك المقابلة وكيف التقى بالرجل الذى كانوا
يتحدثون عنه ، ويدبرون المكيدة له ، وخامرته الغيرة من جهة
أخرى .. ولم يفهم سببا لوجود الحسين مع لمياء غير تواطؤهما

على ذلك . وكيف يتواطآن على الاجتماع سرا في ذلك الليل هناك وهي تزعم أنها لا تريده خطيبا لها ، فدارت الهواجس في رأسه لكنه لم يستطع غير اظهار الامتنان من محاسنة الحسين وكبر نفسه ، وخصوصا لأنه لم يسأله عن اسمه ولاطلب منه أن يكشف وجهه ، فودعه ورجع ولم يصدق انه نجا قبل انكشاف أمره وأشار الحسين الى الفرسان فرجعوا الى السور وتقدم الى لمياء وقال لها : « أفلت صاحبنا بلثامه وهو يعتقد اننى لم أعرفه .. وانما أطلقتة اكراما لك وحرصا على كرامتك » فأجفلت من قوله ، وأرادت أن تعالطه ، فابتدورها قائلا : « أليس هذا سالما الذى يطلبه أمير المؤمنين .. انهم يبحثون عنه ، ولو علم والدى بوجوده لبعث الجيوش للقبض عليه ، ولكننى رأيت فيك ميلا الى كتمان أمره ، فأطعته وأخليت سبيله رغم ما أبداه من الوقاحة . لا يخامرك شك فى انى عرفته .. وكيف أجهله وقد رأيته فى حربنا مع والدك ، وتبارزنا فى سجالماسة ، وفرّ منى .. وها قد نجا الآن من أجلك ، ولكننى أطلب اليك أن تكتفى أمره .. وأحب أن لا يطلع أحد على ما جرى » فنظرت اليه نظرة اعجاب وامتنان ، وقالت : « لقد غمرتى بفضلك ياسيدى وأشكرك على مروءتك وكرم أخلاقك .. انها أخلاق كبار القواد .. وقد قدّرت ذلك فيك » فدعاه نحوها وهو يقول : « انها أخلاق المحبين .. أتأذنين لى أن أصفحك وأودعك ؟ » فلم تستطع الرضى بعد أن غمرها بفضلها مع ما أبداه من

الأريحية وسعة الصدر وكبر النفس ، رغم ما كان من عجرفة سالم وخشوته ، فاحتمل منه الإهانة وصفح عنه وأقنذه من الموت ، وهو مع ذلك يطلب من لمياء كتمان الأمر حرصا على كرامتها وكرامة رفيقها . فمدت يدها نحوه وهي لا تبدى غير الاحترام ، ولكنها شعرت عند المصافحة شعورا جديدا تمشى في مفاصلها .. فأسرعت في جذب يدها منه وأظهرت انه قد آن وقت انصرافها ، وأشارت برأسها إشارة الوداع ، وتحولت نحو المنصورة فودعها هو بقوله : « في حراسة الله يا لمياء »

فارقته ومشت وهي تأتأة الأفكار من هول ما شاهدته . وقد قدرت مروءة الحسين حق قدرها ، وأحست نحوه بشيء غير الاعجاب والامتنان .. أحسعت بميل وعطف لم تشعر بهما من قبل لكنها غالطت نفسها ، وكذبت عواطفها ، لأنها لا تريد أن يكون في قلبها موضع لغير سالم حبيبها الأول

دخلت باب السور ، فوسّع لها الحراس لاعتقادهم انها غلام صقلبي ، من غلمان القصر، يحمل رسالة الى أمير المؤمنين . وما زالت حتى دخلت القصر وسارت توا الى غرفتها وقد انقضى معظم الليل.. فدخلت الغرفة وأغلقت الباب وراها كأنها تفر من شبح يطاردها . فلما خلت بنفسها لم تشأ أن تثير المصباح مبالغة في الانزواء والتستر — ولا باعث على التستر وهي في مأمن ، ولكن هواجسها حدثتها بذلك — وقد وجدت نفسها تحاول عبثا لأنها تريد الفرار من شعور داخلي لا يحجبه الظلام ولا تمنعه الأقفال.. بل رأت الظلام يضاعف من هواجسها ويجسم خوفها .

لأنها لم تكذب تجلس على الفراش حتى بدا لها سآلم بأقبح الصور.. رأته دنيآ غادرا خائنا وقحا جبانآ ، ورأت الحسين شهما فاضلا واسع الصدر كبير النفس . فاقشعر بدنآ وتوهمت أنها ارتكبت ذنبا بذلك التصور.. لأن سالما حييها الأول ، وقد أحبتة وتركت كل شئ لأجله ، وعرضت نفسها لغضب أبيها والخليفة جبا فيه .. فكيف ترى فيه تلك الحسة التي جعلته يحملها على التواطؤ معه لقتل أعظم الناس قدرا وأفضلهم نسبا ومروءة . وتذكرت كيف رجع سالم في تلك الليلة مرذولا بعد أن عرف أن خصمه هو الحسين بن جوهر . وبماذا عساه أن يعلل وجودها مع الحسين في ذلك الليل هناك . وراجعت ما دار بينها وبين والدها وأبى حامد من الحديث ، فأظلم قلبها وودت لو أنها لم تذهب في تلك المهمة ولكنها صبرت نفسها الى الغد لترى ماذا يكون ، وأخذت في تبديل ثيابها طلبا للنوم .. وكيف تنام وهى في تلك الحال وقد تراكت عليها الهواجس وأحست بصدمة عنيفة زعزعت أوتار قلبها ، واضطربت لها أفكارها . وأصبحت لا تجد راحة الا في النوم لعلها اذا أفاقت في الصباح وجدت ما مر بها حلما مزعجا .. وكثيرا ما يتخلص الانسان من أمثال هذه الاضطرابات في نومه وتظهر له في الصباح أضغاث أحلام .. فتوسدت الفراش وتغطت الى مافوق رأسها ، وقضت تلك الليلة في أشد الاضطراب والقلق أما سالم فلما انقرب بنفسه بعد رجوعه أحس بصغر شأنه ، وعظم عليه ما أصابه من الفشل بين يدي خطيئته وخصوصا مع منافسه عليها . وكان منذ ساعة يحرضها على احتقاره واحتقار والده

وخليفته . وزعم انه قاتلهم على أهون سبيل ليعيد الملك الى والدها فتصير هي الملكة .. وغير ذلك مما دار بينها وبينهم في تلك الليلة .. فضلا عما أظهرته هي من التفاني في جبه والثقة بيسالته ..

كل هذه الهواجس خطرت له ، وهو عائداً على جواده يمشي الهويني ويتوهم لفرط خجله أن الحسين يتبعه .. وأخذ يفكر فيما دار بينهما في ذلك الموقف ، ويزن أقواله ليرى هل فرط في كرامته وهل له عذر مقبول في رجوعه غير الكريم؟ وأخذ يقول ماقاله أو ما سمعه ، ويتنحل الأعذار، ويهيج الأسباب ، ويقدر العواقب لو أنه ظل على جسارته. فافتنع انه أحسن بالرجوع محافظة على كرامة لمياء ، وانه لو تمسك بقوله وأراد تخليصها من أيدي أولئك القوم لافتضح أمرها.. وهي قد توسلت اليه أن يكف عن ذلك ويعود فارتاح لهذا العذر الموهوم — وكذلك الانسان قد يصدق المحال تبريرا لعمله وردا لكرامته وحفظا لمنزلته عند نفسه — ولما اطمأن خاطره من هذه الناحية ، عاد الى التفكير في سبب تلك العلاقة بينها وبين الحسين، حتى يصطحبها في ذلك الليل على موعد وتواطؤ. فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وهبت الغيرة في بدنه — والغيور سيء الظن ، ويتعاطم سوء ظنه كلما تعاطم خبه . فقد يرى أحد الرجال رجلا يخاطب امرأة في ريبة ، فيغار منه وتحدثه نفسه أن يعترضه ، وقد يسيء الظن به لكنه لا يلبث أن يلتبس عذرا ويحسن الظن . أما اذا كان الخطاب مع فتاة يحبها فانه يبنى الأوهام على ما رآه أو سمعه ، ويتعاطم سوء ظنه كثيرا ولا يقبل

عذرا - وكان سالم يحب لمياء ، ويعجب ببسالتها وجمالها ، ويرتاح الى الزواج بها ، ولكنه لم يكن يعشقها كما كانت تعشقه هي . وانما صبحم على خطبتها لغرض سياسى سيظهر بعد قليل ..

- ٢٢ -

الحقيقة

دخل سالم معسكر حمدون وتجاوز فسطاطه وهو لا يشعر . وكان فى عزمه أن يعود الى ذلك الفسطاط ليقص ما رآه على أبيها .. فما شعر الا بأبى حامد قد خرج من تلك الخيمة ، وأشار اليه أن يدخل فترجّل ودخل . فرأى أبا حامد وحده هناك ، وقد احمرت عيناه وظهر الاهتمام على وجهه . وكان قد تعود أن يرى ذلك فيه اذا أطلال التفكير فى أمر عظيم

فلما دخل ابتدره أبو حامد قائلاً : « قد وصلنا ياسالم الى الغرض المطلوب اجلس » وأشار الى وسادة على البساط ، فجلس وجلس أبو حامد الى جانبه وهو يقول له : « أين كنت ؟ » قال سالم : « ذهبت لمرافقة لمياء الى المنصورية .. وليتنى لم أذهب » ..

قال أبو حامد : « ولماذا ؟ »

فقص عليه ما جرى من لقاء الحسين هناك .. وكيف كان فى انتظار لمياء ، وقد رافقها على غير كلفة ولم يذكر شيئاً عن فشله ..

تقال أبو حامد : « وهل ساءك ذلك ؟ »

قال سالم : « كيف لا ؟ وقد كنا منذ ساعة نحاول أن نقنعها بقبوله وهي تتظاهر بأنها لا تريده .. فكيف تكون على موعد معه ، وترافقه في هذا الليل ؟ »

فضحك أبو حامد ضحكة مصطنعة لا تنفق مع ما كان فيه من الاهتمام وقال : « يظهر أنك لا تزال تهتم بهذه الصغائر . هل يحول ذلك الاجتماع دون غرضنا الذي أوقفنا حياتنا عليه ؟ كلا بل هو يهون علينا » وخفّض صوته ، ثم قال : « أم هل نسيت الغرض الأصلي من علاقتنا بهذا الأمير المغرور ؟ »

فسكت سالم وأطرق .. كأنه يفكر في حديث دار بينه وبين أبي حامد من عهد بعيد

فقال أبو حامد : « لا أنكر أن لمياء فتاة شجاعة وجميلة وهي تجتلك .. ولكن هل خطبناها لأننا لم نجد بين نساء هذه القبائل من يليق بك ؟ انك ستجد خيرا منها ولا سيما بعد أن نال بغيتنا وتتخلص من أولئك الحائنين .. كن رجلا واسلك كما يسلك الرجال . وانظر الى الغاية التي نحن سائرون اليها . يكفي أننا أقنعنا هذه الفتاة بأن تمهد لنا السبيل لقتل ذلك الرجل وقائد .. فاذا قتلناها فلا يبقى لهذا الغلام حظ من الحياة فتكون لمياء لك ، وعند ذلك .. » وسكت وهو يتقلب يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وقال : « ألا تعلم أنك متى تزوجت لمياء بعد ذلك كنت أنت صاحب القبروان ؟ »

وكان لأبي حامد سلطة عظيمة في توجيه أفكار سالم .. فاذا قال قولاً صدقه ولو كان مستحيلاً ، لكنه رغب في مزيد من

الايضاح فقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال أبو حامد : « ما الغرض الذى كرس حياتى من أجله ؟ »

قال سالم : « الأخذ بثأر أبى عبد الله المقتول ظلما .. »

قال أبو حامد : « وهل نكون قد أخذنا بالثأر ان لم نخرج

هذا السلطان من أيدي هؤلاء الخونة ؟ »

قال سالم : « أنت أعلم »

قال أبو حامد : « أنا أقول لك ان عظام أبى عبد الله - رحمة الله

عليه - تناديننا من ظلمة القبر أن نأخذ بثأره ، ونخرج الملك من

أيدي هؤلاء الخائنين .. وأنت تعلم اننا كنا ندبر ذلك قبل أن

يؤخذ صاحب سجنه أسيرا.. وكنت أحسبه رجلا يعول عليه

في العظام ، فاذا هو ثرثار مغرور بنفسه يقول ما لا يفعل ، وليس

أهلا لغير الادعاء الفارغ.. ولا يفكر ما سمعته من اطرائى أجداده

ومبالغتي فى مدحه.. فلو كان رجلا لما صار الى الأسر واضطر

الى طاعة هذا الرجل . وانما أنا أداجيه لنستخدم ابنته فى تمهيد

السييل لقتل المعز وقائده فنجعله صاحب القيروان . واذا تزوجت

أنت بابنته .. وليس له ذكر يرثه ، صارت الامارة اليك ، أو

تجعلها اليك قبل موته بما أعدناه من الأحزاب والأموال وسائر

المعدات ، وعند ذلك نكون قد اتقمنا لذلك المقتول ظلما .. »

ورغم ما غرس فى ذهن سالم من مقدرة أبى حامد العجيبة ،

لم يقف ما يحول دون الوصول الى تلك الغاية من العقبات

فقال : « اسمح لى ياسيدى أن أستفهم عن أمر »

فقطع أبو حامد كلامه قائلا : « لا تخف ياسالم ، انى لا

أخطو خطوة قبل أن أقدر ما وراءها ، انك تقول في نفسك كيف تنتهى مهمتنا بقتل ذينك الرجلين ، وهذه قبائل البربر من كتامة وصنهاجة وهوارة كلها من أنصارهما وهم يعدون بمئات الألوف ونحن ليس عندنا غير رجال صاحب سجلماسة .. ان تلك القبائل يا ولدى لم تدعن للمعز الا لتخاذل أمرائها ، وتفرق كلمتهم ، مع اعتقادهم بصحة اتسايء الى الامام على .. وهذا على تدييره ، ألا يكفيك أنى أعرف كل هذه الحقائق ؟ أم أنك تخشى أن أسوء التدبير ولا أحسن الحيلة .. ألا يكفى هؤلاء الأمراء من هذه الغنيمة أن يعود كل منهم أميرا مستقلا بحكومته ، وأن من يفوز بقتل صاحب القيروان يكون له الحق فى امتلاكها ؟ وهى ستكون حصّة صاحب سجلماسة . وهل تظن أن أهل القيروان يرمون نبلا علينا بعد قتل خليفتهم ؟.. ان رجال سجلماسة معنا ، وهم أشداء قادرون على أخذ القيروان وان لم يساعدهم أحد من سائر القبائل .. فكيف اذا ساعدوهم ؟ ! »

فازداد إعجاب سالم بدهاء عمه ، وقال : « لله درك من ملك قادر .. انك والله أولى بهذا الأمر منى ومن سواى »

فأسرع أبو حامد فوضع كفه على فم سالم يريد اسكاته عنوة وقال : « لا تقل ذلك .. ان هذا الملك مقدر لك ، هذه وصية اماننا المرحوم وكفى » قال ذلك ونهض وهو ممسك بيد سالم لينهض معه ، فنهض وقد تهيّب ، وودّ لو يستزيده بيانا لأنه مع طول صحبته لم يسمع منه التصريح بالوصاية . وأمّا أبو حامد فقال وهو يصلح عمامته : « لا حاجة بى الى أن أوصيك

بالتكتمان .. حتى الحديث الذى ذكرته لك عن لمياء والحسين ..
وكن كأنك لم تر شيئا ، ثم سكت وظهر الاهتمام على وجهه ،
وقال : « أما أنت فلا ينبغي أن تبقى هنا بعد هذه المقابلة ، لا بد
من سفرك الى مصر باكرا فى صباح الغد لمهمة مثل التى أتيت
منها بالأمس .. فتقابل ذلك العبد الأسود أميرها «كافور» وتعتقد
معه عهدا على هؤلاء الفاطميين ، فانه يخاف منهم كما تعلم ..
وسيكون عوننا لنا فى تأييد دولتنا مع صاحب بغداد ، اذ لا بد
من خلافة ثابتة تتأيد بها دعوتنا .. أظنك فهمت مرادى ، ولا ينبغي
أن يعلم حمدون بهذه المساعى ولا غيرها .. هل فهمت ؟ »
فأشار بعينه أنه فهم ، وهم بالخروج فاستوقفه ، وقال : « لا بد
من سفرك فى الصباح خلصة ، فانى أخشى من دسيئة عليك »
قال سالم : « سأسافر »

ثم وقف أبو حامد فجأة وقد تذكر أمرا هاما ، ونظر فى عيني
سالم ، وحدق فيهما طويلا ، كأنه يستطلع ما يجول فى خاطره ..
فأطرق سالم تهيبا ، فقال أبو حامد : « أخشى أن تكون قد
بحث لأحد بما أعددتاه فى فجج الأخيار . فان هناك فى فجج
الأخيار قوتنا التى سيتم لنا بها الأمر ، فننشئ دولة تخفق
أعلامها على ضفاف النيل وضفاف الفرات »

فلما سمع قوله اختلج قلبه فى صدره لعلمه انه لم يحافظ
على ذلك السر ، لكنه أسرع يطمئنه بأنه يستحيل أن ييوح
بذلك السر .. فhez رأسه وقال : « كيف أبوح به وعليه معولنا ؟ ..
كن مطمئنا »

فصدقه أبو حامد وقال : « اذهب الآن الى فراشك ..
ولا تثق بأحد سوى »

فهم بتقبيل يده وخرج .. وظل أبو حامد وحده ، وقد أصبح
بعد هذا الحديث كالجمل الهائج . وازداد احمرار عينيه حتى صارتا
مثل عيني المحموم من شدة ماهاج في خاطره من البواعث . فلما خلا
بنفسه جعل يخطر في الغرفة ذهابا وايابا ، وهو يقضم أطراف
شاربته بأسنانه .. وقد جعل يديه متصلبتين وراء ظهره ، وأخذ
يناجي نفسه قائلا : « رحمك الله يا أبا عبد الله .. قد آن لى أن
أنتقم لك من هؤلاء الغادرين .. فجع الأخيار .. فجع الأخيار في جبل
ايكجان .. هناك دار الهجرة التي جعلها أبو عبد الله هجرة للأحزاب
التي نصر بها العبيدين .. هي الآن هجرتنا وفيها الأموال التي
ضربها أبو عبد الله عند أول الفتح .. هناك قوتنا » وضحك ضحكة
الظافر وقال : « أحب أن يثبعت أبو عبد الله ويرى نجاحنا ..
ولكن .. » وسكت وبلغ ريقه وأخذ في تبديل ثيابه للنوم

— ٢٣ —

وخز الضمير

أما لمياء فانها قضت تلك الليلة وهي تتقلب ، كأنها على
فراش من شوك القتاد ، ولم يغمض جفناها الا في الفجر ،
فنامت وتوالت عليها الأحلام المزعجة ، واستغرقت في النوم من
شدة التعب حتى الضحى ، حين سمعت قرعا على الباب ،
فاستيقظت مذعورة وتحركت عيناها ، وتذكرت حالها أمس

فأسفت على أنه لم يكن حلما.. وبادرت الى الباب ففتحته ففأرت
حاضنة أم الأمراء ، ولما وقع بصرها عليها قالت : « كيف
أم الأمراء ؟. عساها أن تكون بخير »

قالت الحاضنة : « قد استبطأتك فأرسلتى للسؤال عنك »
فأحست بوخر ضميرها من ذلك التلطف ، لعلها بما دبروه
لزوجها من المكائد .. لكنها تجللت وقالت : « كان ينبغي لى
أن أسرع اليها فى ساعة مبكرة ، لكننى استغرقت فى النوم »
قالت الحاضنة : « لأبأس ياسيدتى، فانى ذاهبة لأطمئنها عليك »
قالت لمياء : « وقولى لها انى مسرعة لتقيل يدها حالا »
فعدت الحاضنة وعمدت لمياء الى تبديل ثيابها ، وخرجت
تطلب غرفة أم الأمراء ، ولاحظت وهى تمشى فى الدهليز أن أهل
القصر فى حركة غير عادية ، كأنهم يتأهبون لاحتفال .. ثم علمت
انهم يتأهبون لصوم رمضان ، فتذكرت انهم دخلوا فى شهر
رمضان وقد أصبحوا فى ذلك اليوم صائمين

وصلت غرفة أم الأمراء ففأرتها جالسة على مقعد . ولما دخلت
لمياء نهضت لها وهى تبتسم ، كأنها تستقبل احدى بناتها .. فلم
تتمالك ، وقد سبقتها العبرات .. فدهشت أم الأمراء لبكائها ،
لكنها ظلتها تبكى لأمر يتعلق بخطبتها للحسين ، وهى انما تبكى
أسفا لما فرط منها فى حق الخليفة من المؤامرة ، فضمتها أم الأمراء
الى صدرها وقالت : « ما بالك تبكين يابنية ؟ »

فأغرقت فى البكاء ، وغلبت على أمرها ، حتى لم تعد تستطيع
امساك نفسها .. فجعلت تخفف عنها ، وقالت لها : « أرجو أن

تكونى قد أخفقت فى مهمتك » وهى تشير بهذه المداعبة الى
رغبتها فى زفافها الى الحسين

فتماسكت وتجلدت وقالت وهى تمسح عينها : « نعم ياسيدتى
انى لم أنجح ، والظاهر ان الله قد أراد ما أراده أمير المؤمنين »
فظهر السرور على وجه أم الأمراء ، وأجلست لمياء الى جانبها
وقالت : « أذلك تبكين يا لمياء ؟ .. لا ينبغي أن تحزنى وسوف
تتحققين من انك نلت نصيبا حسنا . وأحمد الله لأنه قدر لك أن
تكونى زوجة لهذا الشاب النادر المثال .. وبرهانا على سرورى
بذلك ، فانى سأجعل لك مهرا لم تنله فتاة من أهل القيروان لأنك
عزيزة علينا . ومتى علمت أنى سأقوم بتأدية مهرك يطمئن خاطرك
على انه سيكون مهرا يليق بك .. وسأجعل أمير المؤمنين يهيك
قصرا من قصوره الفخمة ، أزوده بأفخر أثاث وأملأه بالتحف
والجوارى،كى تنسى ذلك الرجل الذى كاد يسبقنا الى الظفر بك »

فلم يرددها هذا الكلام الا غيظا من نفسها وندما على ما فرط
منها ، ولكنها تجللت وقالت : « أشكرك ياسيدتى على هذه
النعم .. انى لا أستحق شيئا من ذلك » وهى تعنى حقيقة
ما تقوله . ولكن أم الأمراء حملت قولها على محمل التواضع
فقالت : « بل أنت أهل لأكثر منه ، ولكن لابد من الانتظار الى
انقضاء شهر رمضان ، لأننا دخلنا فى هذا الشهر المبارك من
صباح اليوم ، وأظن أن أمير المؤمنين سوف يؤجل الزفاف الى
عيد الفطر أو ما بعده ، وسنتظر فى ذلك »
فسرها أن يطول أجل الزواج ، لعلها تتمكن خلال هذه الفترة

من تدبير طريقة للتخلص من هذه الورطة .. فظهر الارتياح على
حياتها وقالت : « انى أمثك ولسانى عاجز عن أداء حق
شكرك .. جزاك الله خيرا »

فقال أم الأمراء : « انما يهمنى يا لمياء أن تكونى مسرورة ،
وأحب أن يكون قرانك بالحسين سعيدا لأفرح أنا أيضا . وقد
أخذت أشعر منذ الآن انك صرت من أهلنا ، وأصبح والدك
يفضل سائر أمرائنا بحقوق القربى من قائدنا . وأنت تعلمين منزلة
جوهر من نفس أمير المؤمنين فانه يفضل على كثيرين من آله
وذوى قرابته . وسترين فى هذا المساء متى جلسوا للافطار عند
الغروب ، كيف يجلسه بجانبه ويقربه اليه دون سائر العبيدين .
ولاريب فى انه سيقرب الأمير خمدون والدك أيضا اكراما لك »
فلم تعذ لمياء تستطيع سماع هذا الاطراء ، وودت لو أنها
تسمع عكسه عسى أن يخف بعض ما بها من وخز الضمير ..
فأجبت تغيير الموضوع فقالت : « سندخل الليلة فى شهر
رمضان ، جعله الله شهرا مباركا عليك ، وزادك من نعمه ،
ومتعك بأبنائك .. ما هى العادة فى تناول الافطار عندكم ؟ »
قالت أم الأمراء : « ان أمير المؤمنين يهتم اهتماما خاصا بهذا
الشهر .. يأمر أصحاب المطابخ باعداد طعام الافطار لأهل القصر ،
تشم الأسمطة للخليفة وأهله وقواده وأمرائه ، وسائر رجال
حكومته حسب درجاتهم فيأكلون معا . وتمد الموائد أيضا
للنساء من أهل هذا القصر ، فأتولّى أنا تدبير الطعام على أيدي
الجوارى . وستكونين أنت بين من يفطرن معى .. وسأجعل

مجلسك بالقرب منى لأستأنس بك، وكذلك فعل فى طعام السحور أحيانا ، وأما أنت فستكونين معى طوال هذا الشهر فى السحور والفقور ، وسأريك فى ساعة الغروب كيف تمد الأسطة وكيف يجلس الخليفة والأمراء عليها ، وسترين والدك معهم »

فشكرت لها فضلها ، وأحببت أن تستأذن فى الذهاب الى غرفتها ، فرارا من ذلك الحديث ولكى تريح نفسها .. اذ أحست بألم فى رأسها بسبب ماقاسته من الانزعاج . وزادها حديث أم الأمراء انزعاجا فتظاهرت بالتعب ، ولم تكن تحتاج فى اظهاره الى تكلف لأنه كان باديا على وجهها وقالت : « ألا تأذن مولاتى فى انصرافى ، فقد شغلتنى عن شئوننا .. وأنا أحس بحاجة الى الراحة » قالت أم الأمراء : « انى أقرأ ذلك فى عينيك وهو طبعى فى مثل هذه الحالة ، ولكننى أرجو أن تنسى ذلك بعد قليل .. » وصفت فجاءت حاضنتها فقالت : « أحب أن تكون عزيزتى لمياء فى غرفة قريبة من غرفتى .. قولى لقيمة القصر أن تهيب لها الغرفة بما تحتاج اليه ، فانها ذاهبة بعد قليل للراحة فيها »

فأشارت مطيعة وخرجت ، ولم تفرح لمياء بهذا الاكرام لأنها كانت تود البقاء بعيدة على افراد ، خوفا من أن يظهر شئ منها على حين غفلة فيفتضح أمرها .. لكنها لم تجد بدا من الشناء على ذلك التكريم ، وبعد قليل جاءت الحاضنة وقالت : « ان الغرفة مهية »

فنهضت لمياء وودعت أم الأمراء ، فقالت لها « سنلتقى هنا قبل الغروب » فأومأت لمياء مطيعة ومشت الى غرفتها الجديدة «

وهي تعرف طريقها اليها ، لكنها لا تدري ماذا تعمل .. فلما وصلت الى الغرفة رأتها أحسن أثاثا وفرشا . من تلك ، وفيها مرآة جميلة من الفضة الثقيلة مستديرة الشكل . وهناك منضدة عليها المكحلة والمشط والسواك وسائر ما تحتاج اليه المرأة في اصلاح شأنها . وسريرها من الأبنوس ، وهو مع بساطته ثمين .. وكل ما في الغرفة ثمين وبسيط

على انها لم تنتبه الى شيء لفرط قلقها .. وحين دخلت الغرفة أغلقت بابها ، وتوسدت الفراش ، واستغرقت في الأفكار .. وقد سرها تأجيل الزفاف شهرا كاملا يتيح لها فرصة للتفكير والتدبير . وأخذت تفكر في استنباط طريقة تريح بها ضميرها .. فتقضى هذه النعمة لها وتعرف حق الميز وامراته وفضلهما عليها فلا تخونهما . ومع ذلك فهي تريد أن تحفظ كرامة والدها .. أما سالم ، فحالما تمثلت لها صورته خفق قلبها لما تذكرته من أمره بالأمس ، وكيف عاد خائبا .. وما أظهره الحسين من المروءة وكبر النفس في شأنه ، وأحست بعطف نحو الحسين .. فكذبت نفسها وأخذت في تحويل فكرها ، وصورته لا تغيب عن مخيلتها ، كما رآته في آخر لحظة وهو يودعها ويوصيها بكتمان ماجرى لسالم . وقدرت تلك الأريحية حق قدرها ، وجعلت تقنع نفسها بأن ما تخص به من الانعطاف نحوه انما هو من قبيل الامتتان ، لأنها لم تكن تريد بدلا من سالم ، وهو أول من طرق حبة قلبها وهي صغيرة اذ تسرب حبه اليها تدريجيا لأنهما تعارفا منذ الصغر ، فلم يأتها الحب فجأة كما أصابها هذه المرة . ولذلك لم تقتنع بأن شعورها

نحو الحسين من قبيل الحب الذي لا يلبث أن يتمكن ، وأخذت
توحى لنفسها بأنه عاطفة طارئة .. وخاصة لأنها أصبحت تنتظر
ساعة الافطار بفارغ الصبر ، لكى تراه جالسا على السباط في
جملة الجالسين كما قالت لها أم الأمراء ..

- ٢٤ -

افطار رمضان

على أن التعب غلب عليها ، فنامت واستغرقت في النوم ..
ولم تستيقظ الا على أصوات المؤذنين في العصر ، فنهضت
وأصلحت من شأنها ، ونظرت الى وجهها في المرآة ، فاذا هى
قد امتنع لونها قليلا وذبلت عيناها .. فأجبت أن تتشاغل عن
تلك الهواجس فخرجت للقاء أم الأمراء ، فرأتها في انتظارها ..
فهشئت لها وسألتها عن صحتها . فقالت : « اثنى بخير » فأشارت
اليها أن تتبعها لتطلعها على ما يعدونه من أسمطة الافطار ..
فمشت معها حتى دخلتا روشنا يشرف على ساحة بعيدة الأطراف ،
في جانب الحديقة ، قد نصب فيها سرادق كبير ، وأخذ الخدم في
مد الأسمطة والموائد . فأشارت اليها أم الأمراء فجلست على
مقعد أمامه ستار فيه منافذ صغيرة ، تسمح للجالسين هناك
برؤية كل حركة في تلك الساحة دون أن يراهم أحد من أهلها .
وجلست أم الأمراء الى جانبها ، وجعلت تقص عليها ما تعودوه
في الافطار . وهى ترى الخدم يهيئون الأسمطة على شكل خاص ..
أعلاها في الصدر سباط يسع بضعة عشر رجلا يجلسون حوله

على الوسائد ، وقد وضعت عليه أنواع الأطعمة والفاكهة .. ونحو ذلك في أسطة أخرى بين يدي ذاك هنا وهناك ، وعليها الأطعمة من اللحوم والأفاويه ، وقد تصاعدت منها روائح البهارات وغيرها .. وكانت رائحة الند المحروق ما تزال في أطراف الحديقة غالبية على سواها ، حتى تكامل وضع أطباق الطعام فتغلبت روائح الأطعمة وبهاراتها . واشتغل جماعة من الخدم السود في ائارة المصاييح المعلقة في أعمدة السراقق .. أما الصقالبه البيض ، فكان أكثر اشتغالهم في حمل أطباق الأطعمة .. ووقف جماعة منهم يحملون الأباريق الفضية ، والأقداح الزجاجية حول الأسطة ، يسكبون الماء لمن يريد حسب الطلب .. أعد كل شيء قبل الغروب ، ولياء تتشغل برؤية الخدم يذهبون ويجيئون في ترتيب الموائد ، وهى صامتة .. وشاركتها أم الأمراء فى الصمت ثم قالت : « اذا شئتِ أن تذهبي الى مائدتنا فهلئى اليها فانهم يعدونها .. »

فأظهرت أنها تفضل البقاء فى مكانها ، حتى يجلس الخليفة والأمراء على المائدة ثم تنصرف .. وبعد قليل أصبح أهل الحديقة فى هرج واهتمام ، يتسابقون الى التأدب فى مواقفهم استعدادا لاستقبال أمير المؤمنين . ثم أطل الخليفة ماشيا الهوينى وبجانبه القائد جوهر ، ووراءهما ابنه الحسين ، ثم أولاد الخليفة وأهله ، ثم جماعة الأمراء والقواد .. فتمرقوا الى مقاعدهم على الوسائد حول الأسطة ، فجلس المز فى صدر السماط الأول وأوماً الى جوهر أن يجلس الى يمينه ، ونادى الحسين فأجلسه بجانب أبيه .. ثم

جلس أبناء الخليفة وأهله حول ذلك السماط . وجلس سائر
 الأمراء والقواد حول الأسطة الأخرى . وبعد قليل علت أصوات
 المؤذنين فأخذ القراء يتلون الفاتحة وضج المكان بتلاوتها. وجعلت
 لمياء تنفّس في الوجوه فرأت والدها في جملة المدعوين ، وقد
 دعاه المنزى الى أقرب الأسطة اليه ، وهو ييشئ له ويرحب به .
 وظنت أم الأمراء أن لمياء لم تنتبه الى ذلك فقالت لها : « هذا
 والدك قد جاء .. ويسرنى ما أراه من اكرام أمير المؤمنين له »
 وكانت لمياء مشغلة الخاطر بالترس في الوجوه ، ولا سيما
 في وجه الحسين . وحين وقع نظرها عليه خفق قلبها وتصاعد
 الدم الى وجهها رغم ارادتها . ومع رغبتها في رؤيته ، وبرغم أنها
 أتت الى هناك لتراه ، فانها حين أحست بخفقان قلبها ندمت
 وحوّلت نظرها عنه ، وأخذت تغالب عواطفها .. ونهضت
 وأظهرت أنها مستعدة لمرافقة أم الأمراء الى مأدعتها متى شاءت .
 فأظهرت أم الأمراء أنها تود البقاء ، وقالت : هذا الحسين أراه
 جالسا بجانب والده .. ان هذا المنظر يغنينى عن الافطار .. كيف
 أنت ؟ » قالت ذلك على سبيل المداعبة . فسكت لمياء وصبغ
 الحياء وجهها .. ولم يصبغه الحياء وحده بل الارتباك أيضا . ولم
 تجد سبيلا الى اخفاء عواطفها الا بالتحول عن ذلك المكان ،
 فأطاعتها أم الأمراء .. فتحولتا الى قاعة مد فيها سماطها الخاص ،
 فجلست اليه وأجلست لمياء الى جانبها وتناولتا الافطار على نحو
 ما وصفناه من افطار الخليفة وأمرائه ..
 ولاحظت أم الأمراء أن لمياء تسرع في تناول الطعام ، وهى

ساكنة والاهتمام باد في غينيتها .. فأدركت أنها تود الرجوع الى
الروشن ، فاختصرت في الأكل حتى اذا فرغت منه قالت لها :
« هيا بنا الى الروشن لنسمع ما يدور من الحديث هناك »

- ٢٥ -

حديث الزفاف

فنهضت ومشت معها وتناست تدمها .. وانما سيقت الى هناك
بدافع لا سلطان للعقل عليه ، يدفع المحب دفعا برغم ارادته ،
وقد يرتكب في سبيل ذلك أمورا يوبخ نفسه عليها ، ولكنه
لا يرى مندوحة له عنها .. جلستا فرأتا الأسمطة قد رفعت
وانصرف معظم المدعوين ، وجلس من بقى منهم بين يدي المعز ،
وفيهم جوهر وحمدون والحسين . وقد جلس حمدون بقرب
جوهر وهما يتحدثان كأعز الأصدقاء . ويتخلل حديثهما ضحك
وتودد . فأصاحت لمياء بسمعتها لتسمع ما يدور.. فسمعت الخليفة
يقول لأبيها : « وقد سرّني ما تجدد بيننا من روابط القرابة
بخطبة لمياء الى ابن قائدنا ، وانهما لنعم العروسين ، وسرور أم
الأمراء لا يقل عن سروري ، وهى تود أن تختص غرونا لمياء
باهتمام هى أهل له.. وستدفع لها المهر عن قائدنا ، وستقدمه لكم
قريبا. وستخص العروسين بقصر من قصورنا فيكونان مثل بعض أهلنا »
فأسرع جوهر الى مقابلة هذا الانعام بالنهوض ، ثم أكب
على يدي المعز ليقبّلها علامة للشكر ، فمنعه المعز وقال : « ان
الحسين ابنتا ولمياء بنتنا ولا موجب للشكر ، وانما يهنا أن



« فسمعت الخليفة يقول لابيها : قد سرني ما تجد بيننا من
روابط القرابة بخطبة ليأخذ الي ابن فائدنا جوهري »

يكون زفافهما سعيدا مباركا »

فقال حمدون وهو يظهر الامتنان : « ان نعم مولانا فوق ما نستحق ، ويكفى شرفا لنا أن يكون ذلك العقد على يده . فهو لاشك سيكون مباركا ، ويزيده بركة اذا تنازل مولانا بحضور حفلة الزفاف .. وان كان ذلك مما لا يطمع فيه أحد ، ولكنني تجرأت عليه لما ظهر من تلطفكم في محاسنتنا »

فلما سمعت لمياء هذا القول أكبرته ، وخشيت أن يكون أبوها قد تجاوز في طلبه الى ما لا يمكن تلييته .. ورأت مثل هذه الدهشة من جوهر أيضا . أما المعز فابتسم وقال : « ان ذلك هين على ولا مانع عندي منه ، فان قائدنا «جوهر» أهل لما هو أكثر من ذلك .. ولكنني أخشى أن يكون في ذلك انتقال عليكم »

فترامى جوهر على ركة المعز وقبلها وهو يقول : « قد غمرني أمير المؤمنين بفضله واحسانه . وكان الأمير حمدون قد خاطبني في هذا الأمر فلم أجبر على عرضه أو التماسه ، فكان هو أحسن مني تقديرا للطف أمير المؤمنين »

فأسرع حمدون الى الكلام قائلا : « لم أقل ما قلته الا وأنا أعرف منزلة القائد جوهر عند مولانا أعزّه الله .. وقد جرأني على ذلك أن أمير المؤمنين جعل نفسه بمنزلة والد الحسين ، وخطب له جاريته ابنتا لمياء .. فسبق الى ذهني انه لا يرفض طلبنا ، ولاشك في أن ذلك تنازل كبير منه .. أما ما أشار اليه من الانتقال علينا ، فأى انتقال فيه ؟ .. ونحن لو بشينا على رؤسنا بين يديه لا نكافئه على انعامه »

وكانت لمياء تسمع هذا الحديث ، وقلبها يفيض سرورا لما
توسمت فيه من تغير رأى والدها فى المعز ، وقد حسبت انه
سيعدل عن الفتك به .. وحين تصورت ذلك اعتصرها شبح
سالم ، كأنه يوبخها على رضاها بالحسين دونه ، لأنه اذا تم
الزفاف دون أن تتم المؤامرة صارت عروسا للحسين .. فاضطرب
تفكيرها ولبثت صامتة ، وأم الأمراء ترقب حركاتها.. فلاحظت
ارتباكها ، لكن لم يخطر لها شئ مما كان يجول فى ذهنها
ولما فرغ حمدون من قوله أجابه المعز وهو يتسم قائلا : « ان
ظنك فى محله أيها الأمير . ولكن قائدنا لم يعرف حقيقة منزلته
عندنا.. اتنا سنحضر حفلة الزفاف معه ، ولا بد أن يكون ذلك فى
معسكركم حيث تقيم العروس قبل زفافها الى عرسها » وسكت
فأجاب حمدون : « أينما كنا فنحن فى ظل أمير المؤمنين ،
وليس لأحد منا معسكر ولا قصر الا من نعمه . واذا تنازل المولى
وأذن بأن يكون ذلك فى ظاهر المنصورية أربناه عادة
السجلماسيين فى الاحتفال بزواجهم ، وسيجى الفرسان هناك فى
حلبة السباق ويلعبون على ظهور الخيل.. ولعله يشر أن يرى رجاله
وعبيده يتسابقون على الجياد بين يديه . ولو كان فى المنصورية
متسع لهذه الألعاب أو لو أمر سيدى بذلك فانا مطيعون »
قال المعز : « بل نذهب الى معسكركم ونشاهد احتفالكم .
انى كثير الشغف برؤية الفرسان يتسابقون ، ولا سيما فرسان
سجلماسة المشهورين بالقروسية والمهارة فى ركوب الخيل ..
فمتى ترى أن يكون ذلك ؟ »

فقال حمدون : « ليس لأحد منا رأى ، فان الأمر فى ذلك لمولانا »

فنظر المعز الى جوهر كأنه يستشير ، فبادر الى الجواب قائلا : « الأمر لمولاي .. »

فقال المعز : « أما وقد دخلنا فى شهر رمضان المبارك فلا أرى أن يتم الزفاف قبل انقضائه .. واذن فلنحدد له موعدا فى عيد الفطر تبركا به ، ويكون احتفالنا بالزفاف فى جملة احتفالنا بالعيد »

فظهر البشر على وجهى حمدون وجوهر بعد هذا التصريح ، وأخذوا فى تنميق عبارات الثناء .. أما لمياء فلم يكن ذلك جديدا عليها ، وكانت قد سمعت من أم الأمراء ، ولاحظت من خلال تلك الأحاديث أن المعز عمل بما أوصته اليه زوجته ، فتأكدت حينئذ من اهتمامها بأمرها وشدة حبها لها .. والتفت إليها لفتة ملؤها الامتنان والشكر ، ففهمت أم الأمراء من تلك اللفتة ما لاتقوى الألسنة على التعبير عنه .. وكان جوابها إنها ضمتها الى صدرها وقبلتها ، فأكبت على يدها لتقبلها فمنعتهما وقالت : « تأكدى يا بنية من أن فرحى بتمام هذا الأمر يكفينى .. ولكنهم أطالوا أجل الزواج ، أليس كذلك ؟ » قالت ذلك على سبيل المداعبة فاطرقت لمياء حياء ، فابتدرتها أم الأمراء قائلة : « أعنى أنهم أطالوه على أو على الحسين .. ألا ترينه ساكنا مطرقا لا يكلم أحدا ؟ .. تأكدى أنى أعتبر هذا الشاب من أولادنا وأنت ابنتنا . ولذلك أرى ألا يأخذوك الى بيت أهلك الا قبل الزواج ببضعة أيام .. فأتنى أريد أن أشبع منك »

وكانت لمياء في أثناء ذلك قد عادت اليها هواجسها.. وأصبحت شديدة الرغبة في لقاء والدها لترى هل تغير رأيه بعد ما صادفه من اكرام المعز ، أو انه يقول ما قاله خداعا .. لكن سبق الى ذهنها انه لا بد انه يظهر ما يعتقدده .. ذلك لأن الصادق الحر لا يستطيع أن يتصور نفاق الكاذبين ، ثم هي من جهة أخرى شق عليها أن تقبل الحسين ، وتعد ذلك خيانة لنداء قلبها . وبينما هي في ذلك ، اذ رأت الخليفة يتحيز للنهوض .. فنهض الجلوس واستأذنوا في الانصراف . ونهضت أم الأمراء ومشت لمياء معها وهي تود أن لا تعود الى محادثتها في شأن ذهابها الى آبيها ، لأنها تحب أن تترك الأمر للأقدار لترى ماذا يكون في أثناء رمضان .. وتحب أن تخلو بنفسها بعد ما تقرر ، كي تفكر في أمرها وتحل هذه المشكلة حلا معقولا ..

- ٣٦ -

ماذا أفعل ؟

ودعت لمياء أم الأمراء وذهبت الى غرفتها ، وهي غارقة في بحار هواجسها . ولم تكد تخلو بنفسها حتى خطر لها خاطر أحست بارتياح اليه .. وذلك انها قابلت بين ما دار بينها وبين والدها بالأمس في فسطاطه بحضور أبي حامد ، وما ظهر منه بين يدي المعز في هذا المساء ، فوجدت فارقا كبيرا .. فتبادر الى اعتقادها أن أبا حامد هو الذي حرضه على الفتك بالخليفة ، وانه لو ترك لنفسه لم يرض بذلك .. وتذكرت ما تعرفه من

اتجاهات هذا الرجل في أثناء اقامته بسجلماسة ، وما كان يحدثها به سالم أحيانا من الأغراض السياسية التى يرمى اليها .. فترجح لديها إن أبا حامد هو علة المفاسد ، وأنها لو انفردت بأبيها وباحتته في أمر المعز لأقنعتته بأن يرجع عن عزمه .. فارتاحت لهذا رأى ، لكنها لم تكذب تشعر بالراحة حتى تصورت انها ستصير عند ذلك زوجة للحسين تقيم في المنصورة. وإذا ماذا تفعل بسالم ؟ فوقف ذهنا عند هذه النقطة ، فرأت ان عدول أبيها عن الفتك بالمعز يحرمها من سالم ، وهى تحبه ولا ترضى عنه بديلا فأخذت تخاطب نفسها قائلة : « ما العمل اذن ؟ هل أرضى بقتل المعز وهو سلالة فاطمة الزهراء وصاحب الفضل الأكبر على وأسلم بقتل جوهر القائد العظيم ؟ وهب انى رضيت فهل تفلح هذه المكيدة ؟ ألا يعقل أن تعود عاقبتها وبالا علينا ؟ بأى شئ نحارب جند الخليفة ؟ كيف نحارب الحسين .. ذلك الشهم صاحب المروءة .. ونقتله أيضا ؟ ما ذنبه ؟ بل ما ذنب الخليفة وقائده ؟ انها مكيدة ملؤها الخداع والغش . كيف ترضين يا لمياء بهذه الجريمة ؟ يكفى ما أراه من كرم أخلاق هذه المرأة التى تحبني حبة الوالدة .. هل أرضى أن أكون وسيلة لسقوطها .. أنا أفعل ذلك ؟ كلا.. كلا.. انى اذن قاتلة خائنة . وهل أخزى من حبيبي .. ماذا أفعل ؟ هل أطلع أم الأمراء على سر المكيدة ليحذروها ؟.. عند ذلك أكون قد عرضت سالما للقتل وعرضت والدى أيضا للموت . هل أسمح بقتل والدى وحبيبي ؟ كلا .. ويلاه ما هذه المشكلة التى لا حل لها ؟ »

وكانت جالسة على الفراش تفكر في ذلك ، وعيناها شاخصتان الى نور المصباح ، فلما بلغ بها التفكير الى هذا الحد ، نهضت كالواثبة وقد هاجت أشجانها واستبد بها القلق .. وجعلت تنمشى في الغرفة وتعيد النظر في المسألة طردا وعكسا ، فلا تجد لها حلا الا بارتكاب الخيانة أو القتل فضلا عن محاربة العواطف ، وهي أشد وطأة من كليهما

قضت في التفكير ساعة أو ساعتين حتي ملت التردد ، وأغلق عليها الأمر ، فوقفت تجاه المرأة فرأت ما أصابها من التغيير لفرط التفكير فقالت : « انى أرى لمياء في هذه المرأة غير لمياء في امرأة أيها بسجلماسة .. ويلاه ماكان أغنائى عن هذه القلائق ، بلما أغنى أهل القيروان عن هذه السحنة التى ستعود عليهم بالشؤم والخراب . هل العيب في المرأة ، وهل هى التى غيرت لمياء ؟ لا ذنب لها ، انها ترينى وجهى كما هو وانما العيب فى .. بل العيب فيمن شوش أفكارى وأدخل القلق على قلبى..كان الأولى بى أن أصر على رفض هذا النصيب ، وليتسابق هؤلاء الى القتل على غير يدى . هل أستطيع ذلك الآن؟ وبأى لسان أقوله؟ وبأى وجه أقابل أم الأمراء . هل أبوح لها بسرى وأستشيرها فى أمرى؟ لا أقدر.. ويلاه ياربى ماذا أفعل؟ ! » وتحولت عن المرأة الى السرير واستلقت عليه ، وقد أظلمت الدنيا فى عينيها فلم تجد لها ملجأ سوى البكاء ، فأطلقت لنفسها العنان فيه . وأغرقت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها ، وصارت تشهق وتنذب نفسها.. ثم عادت الى المناجاة فقالت : « الهى قد لذه لى الموت خذنى اليك..

هل أقتل نفسى وأتخلص من هذه الحياة ؟ ان موتى أحسن حل لهذه المشكلة ، فينجو المحسنون الى من القتل ، وأتخلص أنا من التردد القبيح.. ولكن هل أقتل نفسى بيدي !.. لا.. لا.. بل الأفضل أن أفرّ من هذا المكان الى حيث لا يرانى أحد حتى تأتى ساعتى .. لمياء !.. لمياء .. أنت الفارسة البطلة.. تلاقين الأعداء فى خومة الوغى وترزحين تحت هذه الأوهام ؟ بل أعود فأرفض الحسين وأعتذر له بأنى لا أريد الزواج.. كيف أفعل ذلك ؟ مسكين الحسين انه ذو فضل ويظهر انه أجبنى .. آه يا سالم يا حبيبى.. كيف أموت أو أفرّ وأتركك ! بارزت القرسان واستقبلت النبال فى ساحة القتال فلم أجد أصعب مراسا من الحب ، انه يملك ناصية القلب .. وبلاه هل فى الدنيا فتاة أشقى حالا منى ! « ثم سكتت وكأن البكاء خفف مصابها وأزاح الغشاوة من على عينيها ، وتذكرت أن لديها شهرا كاملا للتفكير فى أمرها ، فقالت : « فلنصبر ان الله مع الصابرين » وذهبت الى فراشها وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً

- ٢٧ -

المراوغة

أما حمدون فانه خرج من قصر المعز بعد العشاء ، وقد أدهشه ما رآه هناك من الأبهة والعظمة ، وأكبر الاقدام على تنفيذ تلك المكيدة ، ولاسيما بعد الذى لقيه من الاكرام والموانسة من الخليفة وقائده وسائر أمرائه، وأحس بخطورة الأمر

الذى سيقدم عليه .. فقفى مسافة الطريق الى معسكره وهو يفكر فى ذلك - وتحريض أبى حامد لا يزال غالبا على عقله - فوصل الى خيمته وهو يجب أن يخلو بنفسه كى يفكر ، ويرجح أحد الوجهين .. ولم يكده يستقر به الجلوس حتى جاء أبوحامد ، ولما وقع نظره على حمدون استشف مايجول فى خاطره فأراد أن يتحقق من ظنه فقال : « كيف لقيت أمير المؤمنين ؟ » فأجابه وهو يحاول اخفاء ما يجول فى خاطره : « لقيته كما أعهد ، وكما تعهد أنت .. »

فلما وجد أنه لم يستكر منه تلقيب المعز بأمر المؤمنين ، توسم صدق فراسته فيه فقال : « اعنى هل لقيت منه أنسا » قال حمدون : « لقد جاملنا وآنسنا وأكرم وفادتنا ، ووددت لو أنك كنت معنا »

قال أبو حامد : « أنا أعلم اقتدار هذا الرجل وسعة صدره ، ولولا ذلك ما تمكن من التغلب على سائر الأمراء حتى سمى نفسه أمير المؤمنين »

قال حمدون : « صدقت .. انه واسع الصدر كبير العقل ، ورأيت منه تقديرا خاصا لى ، لأنه أصبح يعتبرنى من أهله .. ورأيت مثل هذا التقدير من قائده أيضا .. »

فتضح أبو حامد ، وقد ترجع ظنه فى تغير عزمه ، وقال : « أظنك أدركت الليلة خطورة الأمر الذى عزمنا عليه .. »

قال حمدون : « قد أدركت ذلك من قبل .. ألم تكن أنت قد أدركته أيضا ؟ »

قال أبو حامد : « كيف لا وقد دان لهذا الرجل الأمراء والقواد وأصبح صاحب الكلمة النافذة .. ان تنفيذ ما عزمنا عليه لا يخلو من الخطر طبعاً »

فتمسك حمدون بهذا التصريح ، وتوهم ضعف عزيمة أبي حامد فقال : « هل ترى أن الخطر يزيد على الأمل في النجاح ؟ »

قال أبو حامد : « أراه أضعاف أضعافه ، ولكن ما العمل وقد رأيتك عازماً على استرجاع مجدك حتى فضلت الموت على التسليم »
جاءلا السبب في تدبير المكيدة رغبة حمدون في استعادة ملكه فأصبح يسيراً على حمدون أن ينسحب بانتظام ، فقال : « لكن الرجل العاقل ينبغي أن يقدر العواقب ويعمل بالرأى السديد ،

وما لا يستطيعه اليوم قد يستطيعه غدا »

فتحقق أبو حامد مما توسمّه في صديقه من ضعف العزيمة ، فعمد الى استطلاع ما دار في تلك الجلسة ، وهل قبل الخليفة أن يحضر الاحتفال بالزفاف في معسكرهم فقال : « هل وافقت على أن تزف لمياء من معسكرنا ويكون الخليفة حاضراً ؟ »

قال حمدون : « لم أطلب منه طلباً الا وافقني عليه ، وقد وافق على هذا وأكثر منه .. ولذلك قلت لك انه جاملنا وأحسن وفادتنا ، وهذا ما غير رأى فيه .. »

فعمد أبو حامد الى المداينة فقال : « بارك الله فيك .. ان المصلحة مشتركة بيننا ، فاذا كنت قد رأيت ما أراه أنا أيضاً من الخطر في القيام بهذا العمل الآن وأحببت أن تؤجله ، فاني أوافقك على تأجيله .. ولكل أجل كتاب »

فانطلت حيلة أبى حامد على حمدون وصدقه فقال : «يمجيني
حزمك وتعقلك .. فأنا أرى أن التأجيل أقرب الى الحكمة ريثما
تتاح لنا فرصة أفضل من هذه »

وكان أبو حامد لا يزال واقفا يتشاغل في تدبير مكان يجلس
فيه . فلما سمع قول حمدون ابتسم وأظهر الارتياح ، وجلس
الى جانبه ووضع يده على ركبته وقال : « ولكن ألا ترى صعوبة
في تغيير فكر لمياء ؟ »

قال حمدون : « ان لمياء أكثر رغبة منا في العدول عن قتل
الخليفة ، ولاسيما بعد أن تبرع بأن ينوب هو وزوجته عن
العريس في تقديم المهر ، ولا بد أن تكون أم الأمراء قد أخبرت
لمياء بذلك ، وهذا يزيدنا تعلقا بها .. في الحقيقة ان المهر وزوجته
قد بالغتا في مجاملتنا وكرامتنا ، وأظننى لم أخبرك بما عزمنا على
تقديمه من المهر » .

فقطع أبو حامد كلامه وهو يروغ كالثعلب وقال : « أظنهما
وعدا بمال كثير وبيع بعض الحلى الثمينة »

فضحك حمدون وقال بنغمة الفائز المعجب : « المال والحلى؟ ..
ان أم الأمراء ستقدم للعروس أحسن ما يرجى تقديمه لمثلها من
الأثاث والحلى والثياب ، وستملأ بيتها بالجوارى والخدم و .. »
فقال أبو حامد وهو يظهر الدهشة : « والخدم أيضا
والجوارى ؟ »

فابتدعه حمدون قائلا : « أضف الى ذلك ان الخليفة نفسه
سيهديها قصرا في المنصورية تقيم فيه مع عريستها .. »

فقال أبو حامد وهو يهز رأسه ويرفع حاجبيه استغراباً : « ان
مثل هذا الرجل لا تستسيغ النفس لحاق الضرر به .. صدقت..
ولكن .. »

فسبقه حمدون الى الكلام قائلاً : « ولكن لمياء متعلقة
القلب بسالم .. واذا تم زواجها فربما يتنصص عيشها »
فأظهر أبو حامد الضيق من فكر خطر له كأنه ابن ساعته وقال :
« سالم .. سالم .. دعنى من سالم انه لا يليق بلمياء ، وهى
لو علمت بما فعله لكرهته .. حتى أنا ، مع انه فى منزلة ولدى
فقد كرهته »

فاستغرب حمدون كلامه وقال : « وكيف ذلك ؟ »
قال أبو حامد : « أتعلم أين سالم الآن ؟ »
قال حمدون : « كلا .. أليس هو هنا ؟ »
قال أبو حامد : « لا أعلم مقره .. ولكن يظهر أنه فرء من
هذا المعسكر .. أظنه خشى مغبة الأمر الذى أقدمنا عليه ففضل الفرار »
قال حمدون : « لا أظنه يفر وهو رجل بأسل »

فقال أبو حامد : « لا يليق بى أن أكشف عيوبه ، لكننى لا
ينبغى لى أن أكتسك أمرا بعد ما علمته من صداقتى وإخلاصى ،
وأنا أغار على لمياء وأجل مناقبها فلا أخدعها » وتنحج كأنه
يستكشف من التصريح بذلك الأمر الفظيخ

فقال حمدون : « ماذا جرى ؟ »

قال أبو حامد : « هل تذكر خروج سالم مساء أمس فى اثر
لمياء الى المنصورة ؟ »

قال حمدون : « نعم أذكر انه أراد أن يرافقها فتوسلت اليه أن لا يفعل »

قال أبو حامد : « ليت له لم يفعل .. لكنه أصر على الذهاب فعاد بالفشل والعار »

قال حمدون : « وكيف علمت ذلك ؟ »

قال أبو حامد : « لأنه عاد الى في آخر الليل وقصص على ما لقيه وحاول اخفاء الحقيقة لكنني قرأتها من خلال حديثه »

قال حمدون : « ماذا عمل ؟ »

قال أبو حامد : « ذهب في أثر لمياء فوجدتها مع رجل عرف بعد ذلك انه الحسين بن جوهر ، وكان في انتظارها حتى يسير في خدمتها الى أمانها .. فأنكر سالم عليه ذلك ، وأمرها أن تتركه وتسير معه ففعلت . فلما أشرفوا على المنصورية خرج عليهما الحراس وكادوا يقبضون عليه ويسوقونه الى السجن لو لم يبادر الحسين الى انقاذه .. فعاد والفشل يقطر من أردانه ، وشفع ذلك الفشل بالكذب فاقترض الحديث ولم يذكر فشله . ولكن أبا حامد لا تنطلي عليه هذه الألاعيب .. فوبخته على جبنه ، فغضب وخرج من عندي .. ولعله فرّ خوفاً من غضبي . ولو فتشت عنه في المعسكرين لم تقف على خبره » قال ذلك في لهجة الصادق وهو يظهر الأسف على ما جرى

فصدق حمدون كلامه وقال : « الله درك .. انك تطلع على خفايا القلوب ، لذلك لست أعجب من اطلاعك على سر سالم .. ولكنني لم أعهد فيه شيئا من ذلك قبلا »

قال أبو حامد : « هذا هو الواقع ، ولعلك لو سألت لمياء عن هذا الأمر لأكدت قولي ، وربما صرحت هي بالعدول عنه لأنها شهدت فشله بنفسها »

قال حمدون : « غدا نبعث اليها ونستطلع رأيها »
قال أبو حامد : « حسنا تفعل .. وأنا واثق أنها ستوافقك على ما ذكرت . وعند ذلك تتحول مهمتنا الى ما هو أقرب لخير لمياء ، وترك أمر الانتقام حتى تمنح لنا فرصة أخرى . وقد نرى من الحكمة السكوت عن هذا الامر نهائيا اذا رأينا القوم يعرفون قدرك ولا يخسرون حقك »

- ٢٨ -

رأى لمياء

فارتاح بال حمدون لهذا الرأي ، وهو على ثقة من رضى لمياء ، وقد عزم على اقناعها به . فبات تلك الليلة وهو يحلم بما سيكون له من المنزلة الرفيعة بعد تلك المصاهرة ، ونسى اذقة آل مدرار وعز سلطانهم .. والحقيقة انه لم يفتن لذلك العز لو لم يحرضه عليه أبو حامد الداهية . وأما حمدون فقد علمت ضعفه وسرعة قلبه وانه انما كان يساق الى طلب الانتقام بتحريض صاحبه هذا . فلما رآه قد وافقه على السكوت والرضى بالخضوع فرح وبات تلك الليلة مطمئناً ، وعزم على أن يبعث في استخدام لمياء اليه ليبشرها بذلك الرأي الجديد وأيقظه الغلام للسحور قبل الفجر .. ولم يكذب يفرغ من

سحوره حتى أناه الحاجب ينثه بقدم رسول من صقالبه
القصر ، فأذن بدخوله فاذا هو لمياء متنكرة ، فرحّب بها وقبلها
وقد توسم القلق في عينيها .. فعلم انها مبكرة اليه في شأن ما
كان فيه بالأمس ، فابتدراها قائلاً : « أراك مبكرة يا لمياء ؟ »
قالت والدمع يترقق في عينيها : « انى لم أذق نوما في هذه
الليلة » ..

قال حمدون : « ولماذا ؟ »

قالت لمياء : « أسمح لى أن أقول ما في خاطرى ؟ »

قال حمدون : « قولى .. ولكنى أحب أن تسمعى ما أقوله

أنا قبلاً »

قالت لمياء : « تفضل .. »

قال حمدون : « قد كنت في مثل قلقك أمس ، ولكننى

اهتديت الى حل جميل ارتاح له خاطرى »

قالت لمياء : « وما هو ؟ »

قال حمدون : « هل علمت انى تناولت طعام الافطار أمس

في قصر أمير المؤمنين ؟ »

فلما سمعت قوله « أمير المؤمنين » استبشرت وقالت : « نعم

علمت .. وقد سمعت ما دار بينك وبين الخليفة والقائد »

قال حمدون : « هل علمت بما عزم عليه الخليفة من اكرامك

بالمهر ؟ »

قالت لمياء : « سمعت .. أمثل هذا الرجل ي . . »

فقطع كلامها قائلاً : « دعينى أتم حديثى .. ان ما لقيته من

ذلك الاكرام ، وما آتته من سعة صدره وطيب عنصره ،
وحب أم الأمراء لك قد أثر في كثير .. »
فأبرقت أسرتها وضحكت ، والدموع تتدرج على خديها
من الدهشة وقالت : « هل أثر فيك ذلك ؟ .. هل يليق أن ؟ »
قال حمدون : « اسمعي .. اني وجدت الأمر الذي كنا قد
عزما عليه خيانة لا تليق بنا »

فلم تما لك عن الاسراع الى يده فتناولتها وأخذت بقبّلها ،
ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت : « الحمد لله .. قد
فرجت كربتي .. صدقت يا أبتاه ، ان أمير المؤمنين لا تليق به
هذه الخيانة ، ولو عرفت مقدار حب أم الأمراء لى لازددت
حرصا على حياتهما .. بالله قل ، هل عدلت عن عزمك ؟ »
قال حمدون : « رجعت من عند المعز وأنا أحدث نفسي بذلك ،
وكنت أحسب أن أبا حامد لا يوافقني .. فوجدته أشد رغبة مني
فيه ، لأنه رأى مارأيته وأنت تعلمين ذكاء هذا الصديق وتعلقه »
فتضاعفت دهشتها لأنها لم تكن تتوقع هذه المفاجأة المزدوجة ،
وكانت عازمة على اقناع أبيها على أن يوافقها ولو خالف
أبا حامد . فلما رأت أبا حامد موافقا له على العدول انبسطت
نفسها وتولتها الدهشة لهذه المفاجأة فقالت : « وقد وافقك
أبو حامد على العدول أيضا ؟ »

قال حمدون : « وليس ذلك فقط ، ولكنه خلصنا من أمر
آخر يتعلق بسالم »

فلما سمعت اسم سالم انقبضت نفسها ، اذ تذكرت المشكل

الذى لم تجد له حلا بالأمس .. فقالت : « وكيف خلصنا من أمر سالم ؟ أين هو الآن ؟ »

قالت ذلك ، وقد صبغ الحياء وجهها ، وعلاه قلق واضطراب .. فقال حمدون : « نعم انه ألقنا من مشكل عظيم . وقد سألت عن سالم أين هو .. انه ليس هنا .. وقبل أن أقول شيئا بشأنه أسألك سؤالا أرجو أن تكونى صادقة فى الاجابة عنه .. » قالت لمياء : « وما هو ؟ »

قال حمدون : « حين لحق بك سالم فى تلك الليلة ، ما الذى حدث له ؟ »

فتذكرت وصية الحسين بالكتمان ، وهى تضر بسالم أن يهان ، فقالت : « ماذا حدث له ؟ .. لم يحدث شيء . » قال حمدون : « اصدقينى .. انى قد عرفت نبأ فشله وجبئه ، فلا تنكرى شيئا »

فاستغربت تصرّحه وقالت : « من قال ذلك ؟ لم يكن معنا أحد سوى الحسين .. وهذا لم يقص عليك الخبر » فقال حمدون : « ما أدراك انه لم يقصه علينا ؟ » قالت لمياء : « لأنه أمرنى بالكتمان »

قال حمدون : « لماذا أراد كتمان الواقع ان لم يكن فى التصريح به ما يعيب سالم ؟ .. قولى الصدق »

فلم تطعمها نفسها على الانكار ، فقالت : « انه أساء التصرف مع الحسين لأنه لم يكن يعرفه .. ولكن من قصص عليك الخبر ؟ .. سالم ؟ .. »

قال حمدون : « لا.. ان سالما خجل من قول الصدق ، ولكن
أبا حامد قصه على بالأمس ، وقد استطلعه بفراسته ووبَّخ
سالما عليه حتى أغضبه .. فخرج من المعسكر ، ولسنا ندرى الى
أين ذهب .. »

فصاحت رغم ارادتها : « ويلاه .. الى أين ذهب ؟ »
فقال حمدون : « يظهر انك لا تزالين على حسن ظنك به ،
وعنه نفسه قد احتقره ، وأهانته .. وقد قال لى انه لم يعد
أهلا للميأء الشريفة الصادقة .. ان خطيبا يرجع من بين يدي
خطيبته بمثل هذا الفشل لا يليق بها »

ف قالت وصوتها محتقن : « أبو حامد قال لك ذلك ؟ »
قال حمدون : « نعم .. اذا كنت لا تصديقين ، فاني أدعوه
ليقول ذلك أمامك »

ففصت بريقها وأطرقت .. وقتئذ تولتها الحيرة ، وتحرك قلبها ،
فتذكرت منزلة سالم عندها ، وهى تجلته وتنزله عن كل عيب ،
فكيف تسمع هذا القول وتسكت فصاحت : « كلا.. ان سالما
شهم لا يستحق هذه الاهانة .. ان عمه قد ظلمه » وشرقت
بدموعها ..

فقال حمدون : « لله أنت يا لميأء .. بل لله من الحب ما أقوى
سلطانه .. ان أبا حامد هو الذى رغبنا فى سالم ، ثم هو
اليوم يقول انه جبان لا يليق بك . ومع ذلك فان وصولك اليه
لا يكون الا بقتل المعز وقائده .. فهل نعود الى عزمنا الأول ؟ ! »
فأجفلت وقالت : « لا.. لا.. ان أمير المؤمنين لا يستحق ذلك »

قال حمدون : « وهل جوهر يستحقه ؟ »

قالت لمياء : « لا »

قال حمدون : « وهل الحسين يستحقه ؟ »

فلما سمعت اسم الحسين شعرت بإحساس يشبه ما شعرت به ساعة وداعه تلك الليلة .. اذ ودعته وقد سحرها بمروءته وسعة صدره .. فسكنت وقد تورعت وجنتها ، وتسارعت دقات قلبها ، وغلبت على أمرها . فأطرقت والدموع تتساقط من عينيها وأبوها يرقب حركاتها ثم قال : « لا بد من قتل الخليفة أو التخلي عن سالم الجبان »

فصاحت وقد تحيرت في أمرها : « لا هذا .. ولا ذاك ، لا تفل الجبان .. ان سالما .. آه .. ويلاه .. كيف أسمع هذا القول فيه ؟ » وعادت الى البكاء ..

- ٢٩ -

الثعلب

وبينما لمياء في ذلك ، اذ سمعت وقع خطوات مسرعة خارج الخيمة ، فالتفتت فاذا بأبى حامد قد دخل وهو متزمل بعباءته ، وعلى رأسه عمامة صغيرة قد وضعها حول رأسه على غير نظام كأنه ناهض من الفراش ..

فلما دخل لم تستطع لمياء عند رؤيته غير النهوض احتراماً ، فأسرع اليها وأجلسها وهو يقول : « لا تذكرى سالما بفمك .. انه ابن أخى ، بل هو بمنزلة ابنى .. ولكننى أنكرته منذ أمس ،

وهو غير أهل لك وأنت أعلم الناس بالسبب .. ومع ذلك فهو ليس هنا .. ومن كان مثل لمياء التي جمعت شجاعة الرجال الى لطف النساء ، وقد عرفناها صادقة اللهجة مخلصه الطوية ، يجب أن تتغلب على عواطفها ، وتعمل بعقلها وكفى .. » قال ذلك وجلس بجانب حمدون ..

فقالت وهي تنص بريقها : « مهما يكن من الأمر فاني لا أطيق أن أسمع مثل هذا القول في سالم .. دعونا منه »

فقال أبوها : « وهذا ما أدعوك اليه الآن .. » وأظهر الاهتمام وتناول نحوها كأنه يريد أن يهمس في أذنها وقال : « هذا أخى أبو حامد قد رأى مثل رأى في هذا الأمر .. وقد وجد أن القرار الذى سبق أن اتخذناه لا يليق تنفيذه ، فزمت على أن أستقدمك لأقضى عليك ما جرى .. وكنت أعتقد انك سوف تتلقينه مسرورة ، فإذا أنت تجادلينا في سالم ، فإذا لم يعجبك رأينا الجديد عدنا الى القديم »

فخشيت أن يغضب أبوها ، فيرجع الى سوء رأيه .. فقالت : « قد رضيت .. لكننى أتوسل اليكم أن لا تذكروا سالما بسوء ، ولترقب ما يأتى به القدر » ..

فقال أبوحامد : « نسكت عن سالم .. ولكننا فرحون بما اجتمع عليه رأينا ، وسنحتفل بزواجك في هذه الساحة احتفالاً لم يسمع بمثله .. ونزفئك الى الحسين بن جوهر بحضور الخليفة ، وإذا كان سالم هلاً لك فليات وأخذك بنفسه. وقد عهدنا أن المحبين يتفانون في هذا السبيل ، ولا يفعلون ما فعله سالم من القرار الذى تعلمينه.

دعينا منه .. اننى لا أحب أن أعود الى ذكره اكراما لك «
فسكنت وهى ترى أن الصواب فى العدول عن سالم بعد ما
رأته من تصرفه ، فضلا عن البواعث القاهرة التى ألجأتها الى قبول
غيره .. لكن قلبها لم يطاوعها على الارتياح لذلك الاقتراح ،
فجعلت قبولها مشفوعا بانتظار ما يأتى به الغد أو ما تدبره الأقدار
انقضت تلك الجلسة على هذه الصورة ، فرجعت لمياء الى
المنصورة تنتظر أمر والدها فى القدوم اليه قبيل الزفاف ..
ومكث حمدون وقد اطمأن خاطره ، ووطن نفسه على الاكتفاء
بالقربى من المزمز لدين الله ولو مؤقتا ، وقد شنع قبوله أيضا
بانتظار ما يأتى به الغد ..

- ٣٠ -

أبو حامد يناجى نفسه

أما أبو حامد فخرج من تلك الجلسة ، وقد ضاقت نفسه من
كبت ارادته ، وأتعبته المراوغة وتكلف الظهور بعكس ما يضره .
فلما عاد الى فسطاطه وخلا بنفسه ، تنفّس الصعداء .. وقد
هاجت ضغائنه وغلت امراض الحقد فى صدره وأصبح يزجر
كالشبل الجريح .. وأمر حارسه أن لا يدخل عليه أحدا ، وجعل
يخطر فى الفسطاط ذهابا وإيابا ، وهو مطرق يفكر .. ويستحث
قريحته فى تدبير حيلة ينال بها غايته .. وقد عظم عليه عدول
حمدون عن قتل المزمز . ولم يكن أسهل عليه من أن يقنعه بما
له من السيطرة على أفكاره ، لكنه خشى رجوعه مرة أخرى

على غرة .. وربما باح بسرّه فيصبح ذلك وبالا عليه ، فأظهر
ارتياحه لرجوعه .. وأضمر أن ينفذ غرضه بنفسه فيقتل المعز
وقائده ، وقد يقتل حمدون وابنته وزوجها .. فانه لا يبالى من
يقتل أو لماذا يقتل في سبيل تحقيق غرضه

قضى مدة في هذا التفكير ، وهو يخطر ذهابا وإيابا ، ثم جعل
يناجي نفسه قائلا : « أنا أبو حامد حامل سيف النجمة .. اطمأن
بالهذا الأمير المغرور ، وسكن خاطره ، واعتقد أنى وافقته في العدول
عن قتل ذلك الطاغية ، كما اعتقد من قبل بأنى أسعى في هذا القتل
اكراما لخاطره لأعيدّه الى الملك في سجن لاساسة .. وصدق انه من آل
مدرار أصحاب تلك المملكة العظيمة ، وهو يعلم أنه دعى في
نسبهم لأنهم اقترضوا منذ أعوام . ولكنه حسبني أقول ما اعتقد ،
فوافقته قولى ورضى بذلك النسب ، وبنى عليه حقه في اماره
سجن لاساسة ، ووافقنى أيضا على الفتك بالمعز وقائده ، وأنا أعلم
ضعفه وتردده وطالما خشيت رجوعه .. فأحمد الله لرجوعه الآن
قبل أن أدبر طريقة الفتك وأطلعه عليها ، فاذا انقلب بعد ذلك خفت
أن ييوح بها لصديقه ومولاه المعز فيذهب سعى عبثا .. أما الآن
فانى أكنتم تدبيرى عن كل انسان ، وبفضله سأقضى عليهم أجمعين ..
أبا عبدالله ! انى تأثر لك .. نم هادئا ، ان دماء أعدائك سأجرىها
في قناة حتى تدرك قبرك ، فترتوى أنت منها كما أرتوى أنا هنا ..
في فحج الأخيار مستودع القوة .. فاذا فرغت من قتل هؤلاء الأعداء ،
عدت الى اتمام مهمتى .. أنا أبو حامد .. ويل لهم من قتمتى »
وكان يناجى نفسه وهو يمشى ثم يقف ، ثم يمشى كالخيران ،

ويعبث تارة بشاربه وطورا بلحيته أو يقضم أظافره بين أسنانه
حتى كاد يدمى أنامله من عظم ما هاج في خاطره . ولو نظر الى
وجهه في المراة لرأى سحنه مرعبة ، أذ احمرت عيناه وانتفش
شعره لكثرة عبثه به .. وقد أفسد نظام عمامته ولحيته وشاربه ،
وكأنه خارج من عراق طويل

ثم تمالك نفسه ، وأخذ يصلح من شأنه ، ويتظاهر بالسكون
وهدوء البال .. وأمر غلامه أن يسرج له الجواد

ركب أبو حامد والغلام في ركابه ، والشمس في الضحى .
وقد تعود الركوب للرياضة ، فلم يشبه في أمره أحد .. ولما صار
خارج المعسكر أمر الغلام بالرجوع وقد عوده الكتمان ، فلم
تكن ثمة حاجة الى التنبيه عليه أن يكتم أمر سيده ووجه مسيره

أما هو فانه ساق جواده وأوغل في الصحراء ، وقد حimit
الشمس وانعكست أشعتها على الرمال فظهرت لامعة تتوهج .
وأرسل نظره الى الأفق ليتطلع الى الجبل الذى يقصده فوجد
السراب قد حجب .. ورغم ما تعود من مشاهدة السراب في
البادية فى مثل تلك الساعة فقد خدع به ، فكان يتوقع أن يرى
فى أقصى ما يقع عليه بصره من الأفق جبلا غروطى الشكل مميزا
عما يخف به من الجبال .. فأوهمه السراب أن هناك بحيرة
ترأى فى مائها صور أشجار تظهر مقلوبة ، وخيل له انه يرى
سفنا سابحة على سطح البحيرة

شغله ذلك المنظر برهة وان لم يصدق عينيه .. وكلما اقترب من
المكان انجلي له حتى وصل الى الجبل وفيه كثير من الكهوف

والشقوق على شكل يندر بين الجبال
فساق جواده فى منعطف صاعد يصعب سلوكه لضيقه حتى دار
من وراء الجبل ، وهو لا يسمع غير وقع حوافر جواده أوصهيله ..
واذا أطل أشرف على سهل رملى ليس فيه شيء من العبارة
وكان - وهو يتقدم - يتلفت الى الورا حذرا من أن يكون
أحد فى أثره ، حتى اقترب من مغارة عظيمة لها باب كبير منقور
فى ذلك الجبل ، فتحنج نحنة خاصة .. فسمع مثلها فى قاع
المغارة ، فساق فرسه حتى وقف بالقرب من الباب .. فسمع
مناديا يقول والصدى يردد قوله : « ادخل يا مسعود »

- ٣١ -

التدبير

فترجل ودخل وهو يقود الفرس بزمامه وراه .. وكان الفرس
أحسن برطوبة المكان فتوالى عليه العطاس ، ودوى صوت عطاسه
دويا يزيد اجفالا واستغرابا
وبعد مسير بضع دقائق ، انتهى الى بقعة مثيرة .. فيها ما
تقشعر له الأبدان من أنواع الحيوانات المتضادة فى طبائعها ، مما
لا يخطر ببال .. كالشعابين والسحالي وأنواع الضب والطير
والحمام بين سارح ، ومنساب ، وواثب .. وبينها حيئة مهولة قد
التفت على جذع شجرة منصوب لها هناك ، ورأسها يتلوى ذات
اليمن وذات اليسار .. وأخرى تساب بين الأحجار الملقاة على
الأرض . ولو لم يكن قد تعود المجيء الى ذلك المكان ومشاهدة

تلك المناظر، واعتقاده أن تلك الدبابات لا تؤذيه لأنها مسحورة لأجل وخاف . أما الفرس مع أنه كان يصطحبه كل مرة فلم يَألف ذلك المنظر المخيف .. فاضطرب وضرب الأرض بحافره ، وصهل وتراجع ، وأبو حامد ممسك بزمامه ينتظر أن يَأتى من يتناوله منه . وإذا بعبد عظيم الجثة قد برز من أحد أطراف تلك البقعة وألقى التحية فرد عليه أبو حامد .. فتقدم العبد ، وقبل يده ، وتناول زمام الفرس ومشى به الى مكان يربطه فيه

ثم مشى أبو حامد في طريق تجنب فيه المرور بشيء من تلك الحيوانات ، حتى دخل دهليزا محفورا في الصخر .. ولو زار المكان أحد علماء الآثار اليوم لتحقق ان تلك المغارة من بقايا الأبنية القديمة في العصور الغابرة ، لأنها محفورة في الصخر ، وربما كانت في الأصل قبورا أو هياكل ، ظلت مهجورة حتى أصبحت مسكنا لكاهنة ساحرة لا يصطلى لها بنار . وكان أبو حامد قد عرفها منذ أعوام واستعان بها في كثير من شؤنه . وهى من خلفاء كهان البربر قبل الاسلام .. ورثت هذه الصناعة من أجدادها ، وهى تخشى الظهور .. لذلك استترت هناك ، ولا يصل الى مكانها الا من يعرفها . ولم يمش أبو حامد قليلا حتى دخل حجرة في الصخر ، في صدرها دكة من الحجر، قد تربعت عليها عجوز شماء بملابس غريبة الشكل فيها من كل لون قطعة ..

شعرها ناصع البياض وقد انتفش واشتبك فأصبح منظرها مخيفا وهى فى الأصل سمراء اللون ، ولكن الشيخوخة جعلت لونها أقرب الى السواد ، وتجعد جلدها ، وغارت عيناها ، وتدلى

حاجباها الغليظان نحو الامام .. فأصبحت عيناها كالمصباح
يتراءى من وراء نافذة مظلمة ، تحتها أنف غليظ قصير فيه حلقة
من العاج .. أدخلت في أنفها كالخزام منذ صباها على يد ساحرة .
وقد كان لأهلها ثقة في عملها ، واعتقدوا أن وجود ذلك الخزام
من أكبر أسباب مهارتها . وناهيك بما في أذنيها من الأقرات ، وفي
عنقها من العقود ، وحول زندها من الأساور وفيها الذهب والفضة
والعاج . وقد جلست على جلد دب ، وألقت على كتفها جلد نمر،
ووضعت في حجرها ثعبانا غليظا قصيرا تتلمى ببداعبه ..

فلما أطلَّ أبو حامد عليها ، رحَّبت به بصوت جهوزى ، وقالت :
« أهلا بولدى مسعود .. قد أطلت الغياب على .. أين كنت ؟ »
وأشارت اليه بعصا طويلة كانت بجانبها أن يجلس على دكة بين
يديها فجلس وهو يقول : « كنت في عملى الذى تعلمينه »
فقالت المعجوز : « قد آن لك الظفر يا مسعود .. » وهو
الاسم الذى تعرفه به

فأبرقت أسرته لأنه كان يؤمن بصدق فراستها ، وقدرتها على
كشف المخبات ، حتى جعلها مستودع أسرارها من أيام أبى عبد الله
الشيعى .. وكانا يأتيناها أحيانا ، ولها دور في جمع كلمة قبائل
البربر الذين نصرنا أبا عبد الله في تأييد دولة العبيدين .. فكان
أبو حامد لذلك عظيم الثقة بها ، لا يبدأ عملا هاما الا شاورها
فيه .. فتتصحه وهو لا يزداد الا ثقة بها . وقد جاءها في ذلك اليوم
لأمر لا يخفى على القارىء .. وهو لا يخفى على تلك الكاهنة
الشمطاء لأنها كانت مطلعة على أخباره .. ليس مما ينقله هو

اليها ، ولكن كان لها جواسيس في مختلف البلاد لمثل هذه الغاية..
فلما قالت له ذلك ، استبشر واعتقد في صدق قولها .. لأنها
كانت متسلطة على أفكاره مثلما كان متسلطا على أفكار الآخرين ،
فقال لها : « هل علمت ذلك يا خالة أم تسأليني ؟ »

فنظرت اليه شزرا وقالت : « ومتى كنت أستشيرك يا جاهل؟ »
فضحك وجعل يعتذر لها عن جسارته . وكانت وقاحتها هذه
من أسباب تمكين هيبتها فيه .. فمد يده الى جيبه ، وأخرج
صرّة فيها نقود دفعها اليها وهو يقول : «بارك الله فيك.. صدقت
قد دنا وقت الفرج.. اقبلي هذه الدراهم طعاما لأولادك هؤلاء»
وأشار الى الثعبان الذي في حجرها وهو يظهر المزاح

فمدت يدها ، وتناولت الصرّة وهي تهز رأسها هزة الاعجاب
وتقول : « لا تقل دنا الوقت بل قل أتى .. لم يبق الا خطوة
صغيرة » ..

قال أبو حامد : « نعم يا سيدتى .. انها خطوة ، ولكننى
أراها شاقة »

قالت المعجوز : « أين صرت الآن ؟ »

قال أبو حامد : « سأجمع الرجلين في مكان واحد ، وانما
أحتاج الى رأيك في طريقة القتل .. بلختبر أم بالسهم ؟ »

فضحكت ضحكة دوسى لها المكان ، وكثرت في أثناء
القهقهة فباتت نواجذها ، وأصبح فيها كالمغارة المظلمة . ثم
أطبقت فيها فجأة ، وأطرقت وقد تغيرت سحتها وأبرقت عينها ،
ومدت يدها الى علبة صغيرة بجانبها تناولت منها مسحوقا وضعت
٩ - فتاة القيروان

بعضه في فيها وجعلت تتلهى بامتصاصه ومضعه . ثم رفعت
بصرها الى أبى حامد وكانت الصرّة لا تزال بيدها فرمتها اليه
وقالت : « أولادى ليسوا في حاجة الى دراهمك ! »

فأدرك انها لم تقنع بالمبلغ ، فأخرج صرّتين أخريين ودفع
الكل لها ، وهمم بتقبيل يدها تزلفا واسترضاء وهى تتدكّل
وتترفع.. لكنها تناولت النقود وقالت : « ان طلبك لا يقدر بمال ،
وأنا أعينك فيه اكراما لذلك المقتول ظلما .. أنظر .. سأعطيك
مسحوقا ، الذرّة الصغيرة منه تقتل فيلا كبيرا .. واذا لم تصدق
جرب .. » وضحكت .. ولم يكن ضحكها سوى تكشير شفتيها
بدون أن يصحب ذلك ملامح الضاحكين .. ثم أمرت الثعبان
الذى في حجرها أن ينصرف فانساب الى وكره

فنهضت وهى تتوكأ على عكازها الغليظ ، وأشارت الى
أبى حامد أن يمكث في مكانه ريثما تعود .. فمكث على مثل
الجمر وهو يتبع الساحرة ببصره ، وقلبه يختلج خوفا من أن
يثب عليه الثعبان وهو يعتقد أن الموت في نايه رغم ايمانه بأنه
مسحور .. وفاته أن تلك الثعابين قد انتزعت أنيابها السامة ،
ولولا ذلك لقتلت صاحبته لأنها لا ترعى ذماما .. فاستبطأ
الساحرة ، فقال في سره : « ألا يخشى أن تخوننى هذه الملعونة
اذا أغراها سوى بمال كثير ؟ يجب أن أقتلها قبل خروجى من
هنا » ولكنه يعلم ان لها أعوانا ربما كانوا مختبئين هناك ، فعدل
عن الفتك بها وعزم على اغرائها بالمال الكثير خوفا من غدرها
وبعد قليل عادت ، وفى يدها حلق من الأبنوس ، فتحتته وأرته

فيه مسحوقا أبيض وقالت : « احذر أن تمسه بيدك لأن ما يعلق منه بطرف اصبعك كاف لازهاق الروح » ثم أقفلت الحلق ودفعته اليه ، فتناوله ، وقبّل يدها ، وقال : « لاتظنى أنى سأنسى فضلك فانى ساعد لك هدية ثمينة سأقدمها لك بعد الفراغ من هذا العمل » قالت الساحرة : « لا حاجة بى الى هدية .. خذ هذا الحلق وامض الى سبيك »

فتناوله وخبّاه في جيبه وودعها وخرج .. فرأى العبد في انتظاره ، فركب الجواد وعاد الى فسطاطه وهو يمنى نفسه بالفوز

— ٣٣ —

الاستعداد

أما حمدون فقضى ذلك اليوم في فسطاطه .. وذهب ساعة الغروب لتناول الافطار على مائدة المعز مثل الأمس ، وقد أخلص النيّة في مصادقته .. وهكذا ظل يفعل كل يوم من أيام رمضان ، ولياء في قصر المعز معززة مكربة ، وأم الأمراء تواليها بالأكرام والايناس ..

وقبل اقضاء رمضان ببضعة أيام ، أرثها القصر الذى ستعيش فيه بعد الزفاف ، وقد ملأته بالرياش والأثاث والتحف والجواري والغلمان .. عدا ما أهدتها اياه من المجوهرات والثياب الثمينة ولما دنا عيد الفطر ، أخذ حمدون يهيء معدات الاحتفال في معسكره وهو لا يعمل الا بمشورة أبى حامد ، فأشار عليه هذا أن ينصب السراقات على مرتفع أمام المعسكر .. فنصبها على

أكامت مشرفة على ساحة كبيرة ليلعب فيها الفرسان على الخيول .
وفي مقدمة السراقات سراق كبير أعدت فيه المقاعد للمعز
وقائده ، ومن يختار أن يكون معه من خاصته ، وسراق
للمطابخ تقام فيه الموائد وبينها مائدة خاصة بالخليفة وقائده وابنه
وحمدون . وقد خصص لخدمتهم غلاما صقليا من خاصة غلامانه ..
كان من قبل أحد صقابة قصور قرطبة ، وكان أبو حامد قد
عاهده سرا على أمور تطمح أنظاره اليها وحمدون لا يعلم . وزعم
انه اختاره لهذه المائدة لمهارته في خدمة الموائد ، لأنه تعود ذلك
في قصور المروانيين في قرطبة ، وقد أثقن اعداد الأطعمة .. وكان
هذا الصقلى قد استسلم لأبى حامد ، وأصبح يتفانى في تنفيذ
أغراضه ، ولا يبالى بعواقبها ..

وكان لأبى حامد سلطة خاصة عليه من قبيل ما يعرف اليوم
بالتتويم المغناطيسى ، ولم يكن يعرف يومئذ بهذا الاسم . ولكن
أبا حامد كان اذا أحب أن يستهوى هذا الغلام ، اختلى به
وسقاه شرابا مخدرا ينعشه ويضعف ارادته ، ثم يأمره بما يريد
فيصبح أطوع له من بنائه . وهو ينسب ذلك التأثير الى فعل
الشراب ، والحقيقة انه يستهويه بقوته المغناطيسية .. فاذا أمره
بعمل وعين له وقته ، اضطر الى تنفيذه

فلما عزم أبو حامد على ما نحن فيه استهواه قبل يوم
الاحتفال ، ودفع اليه الحق وأمره أن يضع منه شيئا في الأقداح
التي يسكبها للخليفة وقائده وحمدون والحسين بن جوهر
وفكر أبو حامد فيما يفعله اذا نجحت حيلته ، فأرسل خاصته

الى مكان بعيد عن المعسكر من جهة الطريق المؤدى الى مصر ،
أعد فيه ما يحتاج اليه من وسائل النقل حتى اذا نجحت مكيدته
فرء الى مصر ليلاقى فيها سالماً ، ويتمّان مهمتهما بمساعدة
صاحبها بفتح القبروان وادخالها في حوزة الخليفة العباسى
ويكون ذلك سهلاً عليه بعد قتل الخليفة العبيدى وقائده .. لكنه
ظل خائفاً من لمياء لئلا تكون مطلعة على جانب من أسرارهِ من
حيث مخابته ومعداته ، فأعد لهلاكها وسيلة أخرى

- ٣٣ -

موكب الخليفة والسباق

دبّر أبو حامد ذلك كله خلسة دون أن يشعر به أحد .. وظل
مشتغلاً من جهة أخرى بإعداد مهمات الاحتفال . وقبل عيد الفطر
بيضة أيام ثقّلت لمياء الى فسطاط أبيها ، على أن تزف من
هناك الى الحسين فى المنصورية كما جرت العادة عندهم .. وفى
صباح يوم الفطر كان معسكر حمدون غاصاً بالسرادات
والأعلام . وبعد الظهر خرج الخليفة بموكبه من قصره فى
المنصورية ، وعليه ملابس العيد تحف به حاشيته من الأمراء
والصقالة .. وقد امتطى فرساً من جياذ الخيل ، ومشى بين يديه
الأمراء والقواد الا قائده جوهر، فانه أمره أن يسير راكباً بجانبه
فلما أشرف موكب الخليفة على ذلك المعسكر ، خرج حمدون
لاستقباله باحترام .. ومشى أمام الجواد حتى وقف على باب
السرادق المعد لجلوسه .. فترجّل الخليفة وقائده وأوما الى

الحسن بن جوهر أن يصعد معها الى مقعد في صدر السرادق مفروش بالبسط والوسائد . وقد أوقدت مباخر الند والعود في جوانب السرادق وغرست الأعلام ببابه

فجلس المعز في الصدر ، وأمر قائده أن يجلس الى جانبه والحسين بين يديه .. وكان الحسين أكثرهم فرحا ، وقلبه يطفح سرورا لما اتفق له من الحفاوة في عرسه مما لم يتيسر لسواه .. كيف لا وقد خرج الخليفة المعز لدين الله من قصوره الى تلك الساحة اكراما له ، ولم يكن بين الأمراء والقواد من لم يحسده على هذه النعمة. وتقدم حمدون للترحاب بالخليفة عند جلوسه ، وأكب على يده كأنه يهم بتقبيلها اعترافا بما شمله من التقدير بتلك الزيارة وقد أخلص النية في طاعته . ثم سأل الخليفة عن يريد أن يجالسه في سرادقه من الشعراء فاكتمى بابن هاني «متنبى الغرب» ، وكان حمدون قد أعد له ولأمثاله مقاعد في جوانب السرادق

جلس المعز وخلف مقعده صقليان يحملان المذبات من ريش النعام كالمنظلة فوق رأسه .. وكان يتطلع الى ما يشرف عليه من السرادقات الأخرى التي أعدت لجلوس خاصته ورجال حاشيته . وقد اختص بعض أمراء بالجلوس معه في سرادقه .. وأمام ذلك السرادق ساحة فسيحة ، قد سويت أرضها ، وقرشت بالرمال للعب الخيل ..

ووقف حمدون بين يدي المعز وجعل يقدم له أمراء سجلماصة واحدا واحدا ، ويسميهم بأسمائهم وفي جملتهم أبو حامد ، واختصه عند التعريف بعبارات الاعجاب به وأعرب عن اخلاصه

للخليفة .. فأمر المعز أن يكون بين الجلوس في ذلك السراقد .
ولم يقصر أبو حامد في تأكيد ولاءه ، وولاء سائر أمراء البربر ،
لأبناء فاطمة الزهراء . وبالف في الاطراء ، وهو كما علمت فصيح
اللسان قوى الحجة رغم ما في سحنه من الغرابة .. فأعجب
المعز به ، وأبدى ارتياحه الى مجالسته

فلما استقر المجلس بالقوم ، تصدئ أبو حامد للترحيب
بالخليفة بالنيابة عن صديقه حمدون فقال : « ان صديقى أمير
سجلماسة يحق له أن يفاخر سائر الأمراء بما أوتي من تنازلكم
بتشريفه .. بل يحق له أن يفاخر الناس كافة ، وقد شرفه ابن
بنت الرسول (صلعم) .. ولعل صديقى حمدون لفرط امتنائه
يعجز عن تأدية واجب الشكر »

فأعجب المعز بحديث أبي حامد وقطع كلامه على سبيل التواضع
قائلا : « اتنا نقدر الرجال الذين يستحقون التقدير .. ونحن نعلم
فضل صاحب سجلماسة ، ومن آخلص لنا جعلناه واحدا منا ..
وان مصاهرته لقائنا الباسل جعلت له منزلة خاصة عندنا »

فتقدم حمدون عند ذلك ، وقال مثل ما قاله أبو حامد من عبارات
الشكر ، وأكد للخليفة انه مخلص في خدمته ، واستأنف الحديث
قائلا : « ألا يأمر أمير المؤمنين بشيء يسر بمشاهدته من الألعاب »

فأحب المعز أن يريده استئناسا به ، فأجابه باللغة البربرية لأنه
كان يحسنها قائلا : « كثيرا ما سمعت بمهارة فرسان سجلماسة
في ركوب الخيل .. فهل يتيسر لنا أن نراهم يتسابقون ؟ »
ففرح حمدون بذلك .. وأسرع وهو يشير بيديه فوق رأسه

إشارة الطاعة ، والتفت نحو الوقوف بباب السراشق من الرجال ، وأوماً بأصبعه الى واحد منهم.. فلم يمض قليل حتى غصت تلك الساحة بالخيول عليها الفرسان بالملابس الفاخرة على زى أهل سجلماة.. وأكثرهم باللثام على رؤوسهم ، يغطى معظم الوجه.. وعلى أكتافهم البرانس الواسعة مثلما يلبس أهل تلك البلاد الى اليوم . وعلى خيولهم السروج المختلفة وفيها القرايز الفضة أو المطعمة بالعاج.. وبينها خيول عارية لا سرج عليها وانما يزينا جمالها الطبيعي. على ان العارفين بطبائع الخيل لا يلتفتون الى ما على الأفراس من الكساء ، وانما ينظرون الى صدورهم وأعناقهم وأكتافهم ويتفرسون في عيونهم.. وكان المعز من أكثر الناس مغرفة بالخيول ، فأخذ يتأمل تلك الأفراس ويحيل نظره فيها كما يفعل العارف الخبير وقف الفرسان صفا واحدا عند السراشق ، وخيولهم لا تستقر في مواقعهم ريثما أدوا واجب الاحترام . ثم أشار حميدون اليهم فأخذوا في اللعب على ظهورهم ألعابا مذهشة تشغل الخاطر لغرائبها .. وفيها ما يبعث على الاغجاب الكثير ، فقد كان أحد الفرسان يسوق فرسه حتى لا تكاد حوافره تظأ الأرض .. ويعمد وهو في تلك السرعة فيدور حوله حتى يلتصق ببطنه ثم يعود الى ظهره ، ورأى غيره يركب فرسا ويسوق آخر الى جانبه .. وينتقل من ظهر الواحد الى ظهر الآخر والفرسان في أقصى سرعة ، وغير ذلك .. فلم يتمالك المعز عن اطراء تلك المهارة ، ووجهه خطابه الى أبى حامد قائلاً : « في الحقيقة ان أهل سجلماة من أمهر قبائل البربر في الفروسية .. حتى النساء

فقد بلغنى أن فيهن ماهرات يسابقن الرجال «
فتصدى القائد جوهر للجواب وقال : « نعم يامولاي انى
رأيت ذلك بمنهن رأى العين فى بلادهن » والتفت الى ابنه
الحسين وابتسم ابتسامة ، فهم الجميع مراده منها .. وهو يعنى
لمياء على الخصوص . فقال أبو حامد : « أظنك تعنى لمياء »
وهز رأسه هزة الاعجاب ، فالتفت المعز ، وقال : « عرفنا لمياء
عاقله حكيمة ، وسمعنا ببسالتها فى ساحة الوغى .. فهل تحسن
ركوب الخيل أيضا ؟ »

- ٣٤ -

لمياء بين المواشط

وكان حمدون واقفا يسمع ذلك الثناء على ابنته ، فلم يخطر
له أن يعرض على الخليفة رؤيتها على الجواد .. لكن
أبا حامد أشار اليه أن يفعل فقال : « هل يريد مولانا أن تخرج
لمياء على فرسها ؟ »

فقال المعز وهو يحك أنفه : « لا نريد أن نزعجها اليوم
لأنها فيما هو أهم من ذلك » وضحك

فتصدى أبو حامد للجواب وقال : « انها لم تركب الخيل من
زمن بعيد ، واذا ركبت اليوم فلعلها آخر مرة يتأتى لها ذلك ..
اذ متى صارت فى بيت القائد فربما لا يعود يتيسر لها ذلك »
فأشار المعز بالقبول وقال : « طبعاً نحن نحب أن نراها ولكن
لا نعلم اذا كان الحسين يوافقنا .. » والتفت الى الحسين

وابتسم فعده الحسين التفاته نعمة أخرى .. فأطرق خجلاً ..
فوقف جوهر بالنيابة عن ابنه وقال : « انها أمة مولانا أمير
المؤمنين ، وسيكون لها الحظ كما يكون لنا في سبيل طاعة أمير
المؤمنين »

فأسرع حمدون الى فسطاطه ليخاطب لمياء بما جرى ، وهو يعلم
ان خروجها في تلك الساعة من أصعب الأمور لأنها ساعة التبرج
والتزين . وتصور انه سيجدها بين أيدي المواشط والخواضن
يقمن بتزيينها ويصلحن من شأنها .. ولكن خاب ظنه ، لأن لمياء
حين تحققت من اتمام القران وحان وقت الزفاف هاجت عواطفها
الكامنة ، وعادت اليها ذكرى سالم حبيبها الأول . ورغم ما ظهر
من ضعفه وتردده ، فانها كانت ما تزال تحبه وتتفانى في مرضاته .
وانما كان قبولها الحسين مؤقتاً ، تنتظر ما يأتي به الغد في أثناء
شهر رمضان . فلما جاء عيد الفطر ولم يأت جديد وانتقلت الى
بيت أبيها لتزف الى الحسين ، أظلمت الدنيا في عينيها ، وتحققت
من أنها لا تلبث أن تصير زوجة لرجل .. وان كانت تحبه وتمعجب
بمناقبه ، لكنها لا تزال ترى سالماً أولى بقلبها منه . واعتقدت أن
قبولها الحسين يعد في شرع المحين خيانة .. فوقعت في حيرة ،
وظهرت الحيرة على وجهها ، وخاصة في صباح ذلك اليوم حين أتت
المواشط لتزيينها فاستمهلتن وانزوت في فسطاط أبيها تفكر ..
فلما جاء أبوها ليخاطبها في شأن الركوب ، أخبروه بما فعلت ..
فذهب اليها فوجدها تجلس على وسادة وحدها ، وقد أطرقت
وظانت الحيرة في عينيها فقال : « ما بالك يا لمياء ؟ لماذا أنت
هنا ؟ .. »

فهتت أن تجيب ، ولكن الدموع سبقتها .. فسكتت ..
فدنا منها وأمسك بيدها ، فأحس ببرودتها وارتعاشها ، وقد
بالغت في الاطراق .. فلاحظ الدمع في عينيها فتملكته الدهشة..
وهو لا يستطيع أن يتصور عواطف المحبين لأنه لم يذق طعم الحب
فقال لها : « ما هذا الجنون ؟ .. ما بالك ؟ .. لماذا تبكين ؟ .. »
فأفلتت يدها منه وقالت وصوتها مخنق : « أبكى على سوء
حظي .. يا لتعاستي ! »

فقال حمدون : « وأى تعاسة ؟ هل في الدنيا فتاة أسعد حالا
منك ؟ سترفين بعد ساعات قليلة الى أنبل الشبان . وهذا أمير
المؤمنين قد جاء نفسه ليكون زفافك على يده .. ان ألوا من
الأميرات يحسدنك على هذا الحظ وأنت تشكين من سوءه ؟ »
فقال لمياء : « انى سيئة الحظ .. دعنى الآن .. »
قال حمدون : « كيف أتركك وأنا قادم اليك في مهمة من المعز
لدين الله .. لقد بلغه انك ماهرة في ركوب الخيل ، فطلب أن
يراك على الجواد »

فلما سمعت قوله شعرت بارتياح لأن خروجها على الفرس
ينجىها من مضايقة المواشط . وكانت اذا ركبت الفرس اعتزت
بنفسها على صهوته ، ونسيت كل مصائبها .. وهى مع ذلك
تحترم ارادة الخليفة ، لكنها لم تجد في نفسها ميلا الى الخروج في
تلك الساعة ، وهى غارقة في القلق والاضطراب فقالت : « كيف
يخرج مثلى الى ساحة السباق ؟ .. ان هذا لم يسمع به من قبل »
قال حمدون : « صحيح .. لكن أمر الخليفة لا يمكن رده ،

وقد وافق عليه القائد جوهر وابنه الحسين «
فلما سمعت اسم الحسين عادت الى هواجسها وندمت لأنها
لم تقطع في هذه المسألة من أول الأمر .. منذ أن خاطبوها في
هذا الشأن . لقد كان ينبغي أن ترفض ، أو تقبل وتهرب ، أو ..
ولا ترضخ لذلك التردد شهرا كاملا حتى اذا أزفت الساعة
ضاقت بها الحيلة ..

فلما طال سكوتها ظننها آسفة لخروجها من بيت أبيها ،
ودخلها بيت رجل غريب .. كما يحدث لأغلب البنات في مثل
هذه الحال . فأمسكها بيدها وأنهضها وهو يقول لها : « اركبي
جوادك وانزعي الأوهام عنك . انك ذاهبة الى بيت أعظم من
بيت أبيك ، وسترفين الى شاب هو أعظم شبان هذه الديار ..
قومي .. هيا بنا ، ان الخليفة في انتظارنا »

- ٣٥ -

لمياء على الجواد

فوقفت لمياء ورأت أن خروجها على الجواد خير من بقائها
هناك ، وخطر لها أنها قد تسقط فتقتل ، وتتجو من ذلك التردد ..
فأطاعته ولبست ثوبا يليق بالركوب ، ولقت رأسها بلباس تعودت
أن تلتف به اذا ركبت . وأتوها بفرس من أحسن الأفراس ،
فركبت وساقته الى الساحة أمام السرايق والجواد يقطر عرقا .
فتقدم اليه أحد الغلمان الواقفين هناك لتليية الفرسان بما
يحتاجون اليه من التقاط حربة سقطت أو ابدال رمح كسر ..

وفيه من يمسح عرق الخيل أو يغسل وجوها تنشيطا لها ، فتقدم أحدهم ويده وعاء فيه ماء واسفنجة بلها بالماء ، ومسح وجه الجواد ، وأخذ في تشيفه ولمياء على ظهره كالجليل الراسخ ولم يكد الغلام يفرغ من عمله والخليفة يتوقع أن تبقى لمياء واقفة تنتظر أمره .. اذ رآها تشير اليهم اشارة الوداع كأنها راجعة الى خدرها .. واذا بالجواد قد عدا بها عدوا سريعا على غير ارادتها ، كأنك وخزته بحربة في جنبه .. ولم تشأ أن توقعه لئلا يوحى ذلك بأنها خائفة ، فأطلقت له العنان على أن توقعه وهي بعيدة عن سراقق الخليفة .. فظن أهل السراقق انها فعلت ذلك عمدا على أن تعود رأسا الى فسطاطها . أما هي فأرادت أن توقف الفرس فلم تره يزداد الا عدوا على غير هدى كأنه أصيب بجثة وعثا حاولت كبح جماحه ، ثم رآته يوغل بها في الشعب والجبال ، وهو يشخر ويصهل ويهز رأسه .. وأرادت أن تحوِّله نحو المعسكر فلم يطعها . وبعد قليل التفتت الى الخلف ، فرأت انها صارت على مسافة بعيدة من المعسكر، وقد توارى عنها المعسكر والمنصورة جميعا .. والجواد سائر بها نحو الجنوب الشرقي مررت بها دقائق رهبة خطر لها في أثناءها خواطر عديدة . وفي جبلتها : أن جموح ذلك الجواد سوف يقتلها ، لكنه قد ينقذها من ترددها ووخر ضميرها ، وكانت الشمس قد مالت الى الغيب وأخذت الظلال تستطيل ، ولمياء توغل في الوعر، وتبعد عن العمران فشبَّت نفسها على الجواد كأنها قطعة منه .. وهي لا تخشى السقوط ، لكنها تحققت انه أصيب بشيء كالجنون .. أو انه

أهيج بوخز أوعقار مهيج.. لأنه لم يكن يعدو في طريق معروف ، بل كان تارة يهبط واديا ، وطورا يصعد جبلا ، والحجارة تتطاير من بين حوافره .. ولم يقع بصرها على أحد تستجد به أو تطلب معاوته ، فعزمت على التحول عن الجواد وهو راكض .. ولا يعجزها ذلك لتعودها مثله ، ولكن الأرض لم تكن رملية أو ترابية حتى تثب إليها ..

وبينما هي تفكر في ذلك ، اذ اصطدم الجواد بصخر ، فقذفت بعيدا عن ظهره الى مسافة بضعة أذرع .. فوقت في حفرة هناك قليلة العمق .. فغابت عن رشدها

ولم تنتبه الا وقد أظلمت الدنيا وظهرت النجوم ، فأرادت النهوض فأحست بألم في جنبها .. ولكنها لم تجد فيه كسرا وانما هي رضوض ، ثم أحست بشيء يسيل على عنقها فتلمسته فاذا هو دم بارد .. فعرفت أنها أصيبت بجروح ، فتجكّدت وتماسكت ، ثم توكلت على يديها.. ونهضت وهي تستند الى جدار الحفرة ، والتفتت الى ماحولها فرأت انها في بلقع.. ولم تقو على الوقوف فسقطت ، فأخذت تفكر فيما حل بها ، وصبرت نفسها ريثما تستريح ، وجعلت تجس أعضاءها للتحقق من نجاتها من كسر أو صدع ، فوجدت أنها سليمة ليس فيها شيء غير الرضوض. وشغلها اضطرابها عن الخوف من الحشرات المؤذية .. وكانت كثيرة هناك وأخذت تناجي نفسها قائلة : « ألم يكن من الأفضل أن أصاب بكسر في عنقي ، فأموت وأنجو من متاعبي ؟ .. فيكون الله قد استجاب دعائي وأقذني من عذاب التردد . ياربى ما العمل الآن ؟ »

ثم ترحلت لتختبر قوتها .. فسمعت خشخشة ثعبان ينساب
بين الأحجار وراءها ، فوقف شعر رأسها .. وهبت بالنهوض
لتخرج من ذلك المكان .. ولم تكن تخشى الثعابين اذا صادفتها
في النور ، لكنها خشيت غدر الثعبان في الظلام

- ٣٦ -

رسول غريب

وبينما كانت تهم بالنهوض ، اذ سمعت وقع حوافر مسرعة ..
فأسرع الثعبان في الانسياب حتى تواري ، وخفق قلبها ، فالتفتت
فأرأت أشباحا كالفرسان يزيد عددهم على عشرة يسوقون أفراسهم
فحدثتها نفسها أن تستغيث بهم .. ولم تكذب تهم بذلك حتى
سمعت صوتا يقول : « هل رأيتم أحدا ؟ .. لاشك أنها قتلت »
فأجابه الآخر : « لا بد من ذلك لأننا رأينا الجواد مقتولا فهل
تبقى هي على قيد الحياة ؟ »

وتوسمت في صوت الأول لهجة أبي حامد ، فغالطت نفسها
وأجبت أن تتحقق من ظلها ، فأنزوت في مكانها حتى اقترب القوم
منها فقال أحدهم : « لقد نجحت حيلتنا .. ولا يلبث ذلك الدعى
أن يموت هو وقائده قبل أن يتناولوا العشاء ، انظروا هذا
هجان قادم من طريق مصر .. تربصوا له »

فأصبحت لمياء من شدة تأثرها تنتفض كالصفور بكله القطر.
وخانتها قواها وقد أدركت أن القوم : أبو حامد ورجاله ، وانه
هو الذي دبّر لها هذه المكيدة بشيء وضعوه للجواد في أنفه

عند غسل وجهه . وحدثتها نفسها أن تصيح فيهم ، فعلمت انها اذا فعلت قتلوها لا محالة وهى لا تريد أن تموت على أيديهم .. فتجلدت وأخذت تنظر الى الجهة التى تظن أن الهجان قادم منها .. فرأت هجانا مسرعا سرعة البرق ، فاعترضه الفرسان وأوقفوه وسأله أحدهم قائلا : « الى أين يارجل ؟ »

قال الهجان : « الى المنصورة »

قال أحدهم : « ومن تريد ؟ »

قال الهجان : « أريد أمير المؤمنين المعز لدين الله »

قال أحدهم : « وما الذى تحمله اليه ؟ »

قال الهجان : « أحمل اليه رسالة من مصر »

قال أحدهم : « أين هى ؟ هاتها .. انها من رجاله »

قال الهجان : « لا أسلمها الا اليه .. دعونى أسير فى طريقى »

قال ذلك وأدار زمام هجيئه ، فاعترضوه ومنعوه وألحوا عليه أن يدفع اليهم بالرسالة وهو لا يوافق .. فقال أبو حامد : « انت كاذب .. انك لست قادما من مصر ، فالقادم منها لا يأتى منفردا فى هذه الصحراء .. أصدقنا والا قتلناك »

قال الهجان : « كنت قادما فى قافلة نزلت عند الغروب على ماء هناك .. وأسرعت وحدى لتبليغ الرسالة لأنها عاجلة لا بد من تسليمها قبل انقضاء هذا اليوم »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

فقال أبو حامد : « لاشك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ، ونحن من رجال الخليفة .. فاذا كنت صادقا فادفع لنا الرسالة والخليفة الآن فى قصره لا تدركه الا وقد نام »

قال الهجان : « انها رسالة خاصة .. وقد أمرت أن لا أسلمها الى أحد سواء ولو كان ابنه . وقد أوصيت أن أدفعها اليه حال وصولي ، واذا كان نائما أيقظته ، واذا كان متكئا لا أمهله أن يجلس قبل أن أدفعها اليه .. هذا ما أمرت به ، فاذا كنتم من رجال الخليفة كما تزعمون فدعوني أذهب في سبيلي » فقال أبو حامد : « اعطنا الرسالة والا قتلناك »

فقال الهجان : « اقتلوني ولا أسلمها الا لصاحبها » ولم يتم كلامه حتى سمعت لمياء استلال الحسام ، ورأت أحدهم قد ضرب ذلك الهجان بالسيف على رأسه فسقط عن الجمل قتيلا وصاح أبو حامد وهو يقهقه من الضحك : « أوصل اليه الرسالة ، أو تمهل .. فانكما ستلقيان في الجحيم بعد قليل »

والتفت الى القاتل وقال له : « فتشه وأخرج الرسالة من ملبسه .. والحق بنا فاننا سنتقدم الى موضع القافلة » قال ذلك وساق جواده ، وتبعه رجاله الا القاتل ، فانه ترجل عن جواده ، ووضع سيفه المسلول على الأرض بجانبه حتى يمسحه من الدم بعد الفراغ من تفتيش القتيل

فتحقت لمياء ان تلك الرسالة هامة ، ولولا ذلك لم يفضل حاملها القتل على تسليمها ، وأعجبتها أمانته وثباته . وكانت كثيرة الاعجاب بالأخلاق العالية ، فأسفت لموته وأحست بميل الى الانتقام له . وكانت قد تجددت قواها أو لعل خماسيتها نشطتها .. فتلممت ونهضت وخرجت من الحفرة خلسة ومشت - والرجل مشغل بالتفتيش - حتى دنت من السيف المطروح

بجانبه ، فتنازلته بأسرع من البرق ، وأطلقتته على عنقه ، فسقط فوق الهجان .. وثنت عليه بضربة أخرى حتى تحققت من موته ، ثم أزاحتها وأتمت التفتيش . فوجدت الرسالة وهى عبارة عن اسطوانة من القصب الفارسى فيها الكتاب ، وكان قد خبأها بين أثوابه . وهمت بالجواد فامتطت صهوته ، وكانت قد عرفت جهة المنصورة منذ رأت الهجان قادما ، وحولت شكيمة الجواد نحو معسكر أبيها ، وقد عادت إليها قواها تحمسا فى مصلحة المعز ، وأسرت فى اىصال تلك الرسالة لاعتقادها انها لو لم تكن عظيمة الأهمية لم يؤمر حاملها بإيقاظ الخليفة من نومه لتسليمها اليه ، وكانت قد تنست من كلام أبى حامد انهم أعدوا مكيدة لقتل المعز . فعلمت أنها اذا أسرت أقتذت ذلك الخليفة الذى تحبه وتحترمه . فهمزت جوادها نحو معسكر أبيها وهى لا تراه .. لكنها علمت مما حولها انها متجهة نحوه ، وقد نسيت حالها ولم تعد تفكر فى الدم الذى يسيل على عنقها ، وكان قد جمد وانسد الجرح .. ولم يكن يؤلمها لأنه سطحي ..

أما أهل ذلك المعسكر ، فكانوا حين رأوا لمياء تشير اليهم اشارة الوداع ، وركض بها الفرس .. توهموا أنها عزمت على شوط تركض به فرسها ، ثم تعود الى فسطاطها الذى كانت فيه كما تقدم ..

وكان أبو حامد هو الذى دبّر تلك المكيدة للمياء ، فدس أحد غلمانه بين الموكلين بمساعدة الفرسان .. وأوصاه أن يدس فى أنف جواد لمياء مادة حريفة تهيجه وتحمله على الركض بغير

هدى ، فهو عند ذلك لا يهدأ حتى يتحطم هو وراكبه
فلما تحقق من ظهور أثر العقار ، ورأى لمياء قد غابت عن
أعينهم وسمعهم يتساءلون عن مصيرها ، أكد لهم أنها ودعتهم
ولا تلبث أن تعود الى فسطاطها وأخذ يشاغلهم بالحدث ..
وطلب الى حمدون أن يأتيهم ببعض الألعاب الغريبة ليتسلى
الخليفة برؤيتها مما لا مثيل له في القيروان ، واحتال في الخروج
من السراق ، وكان قد أمر رجاله أن يهيئوا أحمالهم ويخرجوا
بها من ذلك المعسكر الى مكان يعرفونه بجانب الطريق المؤدى
الى مصر كما تقدم ..

فلما بعث عن المعسكر ، ركب هو ورجاله وأخذوا يبحثون
عن لمياء ليتحققوا من موتها .. وشاهدوا جوادا في الطريق قد
سقط قتيلًا بعد أن اصطدم بذلك الصخر ، وتراجع ودمه يسيل
من صدره حتى وقع .. فلما رأوه ولم يعثروا على لمياء ، تأكدوا
من موتها في مكان ألقى بها فيه

- ٣٧ -

المائدة

أما حمدون فلما دنا وقت الغروب ، دعا الخليفة الى العشاء
الذى أعده له في السراق الخاص بمائدته . وذهب الأمراء الى
موائدهم في السراقات الأخرى ومشى الخليفة الى المائدة ،
وقد أضيئت السراقات بالشموع وأحرق البخور في أطرافها ،
ومدت الموائد في أواسطها وعليها أنواع الأطعمة . وذهب

حمدون الى الطاهى القرطبى الذى تقدم ذكره ، وبالغ فى توصيته كى يحسن خدمة الخليفة ..

وقبل التقدم الى المائدة، حلّ موعد الصلاة فصلّى الخليفة، وصلى القوم وراءه .. ثم جلس كل منهم فى مكانه ، ومائدة الخليفة لم يجلس عليها الا هو وقائده وابن قائده ، ووقف حمدون يخدمهم بنفسه بمساعدة الطاهى المشار اليه وبعض غلمان آخرين يحملون الأطباق من المطابخ. ووقف سائر الغلمان بأباريق الفضة والقوارير فيها الجوارشات أو الأشرطة الهاضمة .. وقد شغل حمدون ضيوفه عن التفكير فى لمياء لاعتقاده انها عادت الى فسطاطها

وبعد أن قدمت ألوان الأطعمة ، وهى كثيرة ومتقنة ، أحسّ الخليفة بالنعاية التى بذلها صاحب سجناسية فى اكرامهم ، وظهر له الفرق بين الأطعمة التى تعود أن يتناولها فى قصره وماتناوله تلك الليلة .. لأن العبيدين كانوا الى ذلك الحين لا يزالون ميالين الى البساطة فى الطعام والملبس لأسباب تقدم بيانها . أما حمدون فقد تعود — وهو فى سجناسية — الترف والتأنق فى الأطعمة تقليدا للمروانيين فى قرطبة .. وكان يتتبع مثل آتيهم للمائدة من الأباريق والأطباق من الفضة والذهب ويوصى الطهاة بمعالجة اللحوم وغيرها ، مثلما كان الخليفة الناصر يفعل فى قصر الزهراء

فلما صار حمدون فى الأسر لم يعد يستطيع ذلك التأنق ، لكنه فى تلك الليلة أوصى الطهاة أن يبذلوا أقصى الجهد فى اعداد الأطعمة ليظهر بتقدير الخليفة ويؤكد له حفاوته وكرامه .. ذلك ما أوعز به أبو حامد ، وأوصى طاهيه الخاص بأن يجعل فى جملة

الأشربة الهاضمة الشراب الذى أمره أن يضع السم فيه .. فلم يتمالك المعز لدين الله عن ابداء اعجابه بتلك الحفاوة ، وأشاد على الخصوص بروعة الأطعمة .. فقال حمدون : « لقد تجاسرنا فى اخراج أمير المؤمنين عن عادته فى الاقتصار على الأطعمة البسيطة التى اقتضاها تقشفه ، الى ما تعودته غيره من الملوك المنغمسين فى ملذات الدنيا . وانما فعلنا ذلك على سبيل التجربة فقط »

فقال المعز : « قد علمنا ذلك ولا بأس به .. ولكن كيف تأتى لك هذا وأنت هنا ؟ »

فقال حمدون : « عهدت بذلك الى طاه من جملة طهاة صاحب قرطبة وهو كثير التفنن » وأشار الى الطاهى الواقف فى جملة الواقفين وقال : « هذا الطاهى ياسيدى أبرع من عرفت من الطهاة فى اعداد الأطعمة »

فالتفت المعز اليه فرآه فى أنظف ما يكون من الثياب ، وقد حمل بيده ابريقا من الذهب وقلحا ، فابتسم المعز ابتسام من عرف الحق وأغضى عنه ، وقال : « بمثل هذه الأطعمة أوهنت عزائم أولئك . لكن لا خوف علينا لأننا لن نعود الى مثلها بعد الآن .. ما الذى تحمله فى هذا الابريق؟ لم تعد لنا قدرة على طعام .. » فتقدم الطاهى وقال : « هذا ياسيدى شراب هاضم لا تلبث أن تتناول منه قلحا حتى تذهب التخمة وتشعر بالرغبة فى الطعام ثانية .. »

قال ذلك وصب منه ملء قدح منقوش من الزجاج ، وقاله الى

حمدون .. فأخذ حمدون القدح وجعل يتفرس فيما عليه من النقوش ، وهو من جملة آتية ابتاعها من تاجر حملها من قرطبة . ثم نظر الى الخليفة وقال : « هذا الشراب الهاضم لم أذقه قبل الآن ، فانه من استنباط هذا الطاهى .. ولذلك ينبغي أن أذوقه قبل تقديمه لأمير المؤمنين » .. كما كانت عاداتهم فى الشروع فى تناول الطعام قبل ضيوفهم ، ويعدون ذلك مبالغة فى الحفاوة .. ثم أذننى القدح من فمه وشربه وأخذ يتلمظ ويبدى اعجابه بالشراب .. وأمر الساقى فصب فى قدح آخر ناوله الى الخليفة ، وآخر ناوله الى القائد جوهر وآخر للحسين

— ٣٨ —

قادم مفاجئ

وهم الخليفة أن يتناول الشراب لمجرد مجازاة حمدون لأن معدته كانت قد امتلأت بالأطعمة والأشربة .. ولكن أزعجه ديب جواد مسرع وقف بباب السرادق وعليه راكب ملثم ، والجواد يلث لها شديدا ، وقد تصبب العرق منه من الجهد .. وترجل فارسه وهم بالدخول بلا استئذان ، فمنعه الخرس فلم يبال .. واخترق الصفوف ركضا ، ويده اسطوانة من الغاب الهندى حتى دنا من المعز ، فخشى القوم أن يكون من جسارته خطر على الخليفة ، فنهض القائد جوهر والقدح بيده وأمره أن يرجع .. فلم يبال وظل مسرعا وظهرت بقع الدم على لثامه ، فلما دنا من الخليفة دفع اليه الاسطوانة وأشار بأصبعه أن يقرأها



« وهم الخليفة ان يتناول الشراب لمجرد مجازاة حمدون لان معدته كانت قد امتلأت بالطعمة والاشربة فلما زعمه طبيب جواد انه سرع وقف بباب السرايا وعليه راكب ملثم »

حالا .. فتناولها منه وهو يتفرس فيه ، وكان الحضور منذ دخل الرسول قد استأنفوا بثوبه وخصوصا حمدون فانه عرف ابنته من ثوبها فصاح : « لمياء ! .. »

فلم تجبه .. وحين سمعه الخليفة يناديها ، فطن الى أنها قد تكون هي ، فقال : « هل أنت لمياء ؟ » قالت : « لا تعمل شيئا ياسيدي قبل أن تقرأ هذه الرسالة »

فلما سمع حمدون صوت ابنته عرفها ، فأراد أن يدنو منها لمخاطبتها .. فخافته قدماء وأحسن بدوار شديد فسقط على الأرض ، فأسرع الغلمان الى اسعافه ، ونقلوه الى فسطاط قريب .. والخليفة ينظر الى الكتاب وهو يقول للمياء : « من أين هذا ؟ » ولم يكتروا لدوار حمدون لاعتقادهم أنه تتج من كثرة الأكل فقالت لمياء : « هو من مكان بعيد ، وقد أمر حامله أن يعطيه للخليفة حال وصوله .. فاذا كان نائما يوقظ ، واذا كان متكئا لا يمهل حتى يجلس قبل قراءته ، وهذا ما جرأني على ازعاجكم وأنتم على المائدة »

فدفع الخليفة الاسطوانة الى القائد جوهر ، ففضها وأخرج منها لفافة عرف من شكلها انها من مصر .. لكنه لم يعهد بينه وبين أميرها صداقة أو علاقة توجب مراسلة ، ودفع جوهر الرسالة الى المزمع لعلمه أنه يجب أن يقرأ المراسلات بنفسه . وكان القدر لا يزال في يده فأدناه من فمه ليشره قبل قراءة الرسالة ، فأسرعت لمياء وأبعدت القدر عن فمه وقالت : « قد أمر حامل الرسالة أن يسبق أمير المؤمنين عن كل عمل قبل قراءتها »

فاستغرب المعز ذلك وأخذ في القراءة لنفسه ، والحضور يتطلعون الى وجهه وخصوصا جوهر .. فرأوا أن الخليفة قد تغيرت سحنته وبدا الغضب في وجهه ، وساوره القلق .. وأما الحسين فكان في أثناء ذلك لا يرفع بصره عن لمياء ، وقد أدهشه ما رآه من حالها والدم قد لطخ نقابها وجانبا من ثوبها . ولم يتجاسر أن يخاطبها في حضرة الخليفة ، ولا سيما بعد أن رأى تغير وجهه . وأطال المعز نظره في الكتاب وأعاد تلاوته وهو كالمستغرب لما يقرأه . وتناول الحضور بأعناقهم لمعرفة ما حواه الكتاب ، لكنهم لم يجسروا على السؤال عنه ..

وبعد هنية أشار الخليفة الى جوهر وابنه أن يضا الأقداح ، ودفع الكتاب الى جوهر .. ونظر الى لمياء وقال لها : « أين حامل هذه الرسالة ؟ .. ادعيه الى هنا »

قالت لمياء : « ان حاملها قُتل ياسيدي ، وكدت أقتل معه .. ولكن الله أعاننى لا يصاله اليكم وأنا على آخر رمق »

فأشار الى من في السرادق أن يخرجوا الا جوهرها ولمياء ، وأمر الحجاب أن يمنعوا الناس من الدخول حتى الأمير حمدون نفسه ففعلوا . وكان جوهر مستغرقا في تلاوة الكتاب لنفسه وقد أصابه من الدهشة أضعاف ما أصاب المعز . فلما خلا السرادق من الغرباء التفت الخليفة الى لمياء وقال : « اكشفي عن وجهك وقصى علينا خبرك .. انى أرى عجباً وأقرأ أعجب منه »

فلم يسعها الا الطاعة .. فرفعت اللثام عن وجهها ، وقد لصق بعضه بعقها من الدم ، وتغيرت ملامحها من عظم ما ألم بها في

تلك الليلة ، وازدادت عيناها حدة وبسالة وابراقا
فقال الخليفة : « ما خبرك ؟ من أين أتيت ؟ »
فقصت عليه ما جرى لها من أوله الى آخره ، وهو يسمع
ويستغرب وينظر في أثناء الحديث الى قائده كأنه يستطلع رأيه
فيما يسمعانه من الغرائب

- ٣٩ -

نص الرسالة

فلما أتت على آخر الحديث أصبحت في شوق للاطلاع على
فحوى تلك الرسالة ، لكنها لم تجسر على طلب ذلك . أما الخليفة
فانه كان يسمع كلامها ويتأمل فيما يبدو في عينيها من صدق اللهجة
والبسالة.. فلما وصلت الى الحديث عن لقاء ذلك الهجان وكيف
انها قتلت قاتله ، وحملت الرسالة لا يصالها سريعا ، وهى مصابة
بالجروح والرضوض ، لم يتمالك أن قال لها : « الله أنت من فتاة
باسلة وصديقة صادقة.. أتحيين أن تسمعي نص هذا الكتاب فاني
أعدك ابنة لى ، بل أنا لا أتوقع من ابنتى أو ابنى أن يكون غيورا
على مثل هذه الغيرة .. اجلسي » وأشار الى مقعد بجانبه فجلست
عليه ، وأمر جوهر أن يقرأ الرسالة فأخذ يقرأها وهذا نصها :
« الى أمير المؤمنين المعز لدين الله من عبده يعقوب بن كلس
« أما بعد فاني ما برحت أذكر نعم المولى ، وفضله على ، وعلى
آبائي ، وأنا أترقب الفرص للقيام بما قرض على في سبيل نصرته ،
لاني وان كنت ذميا لم أشرع بالاسلام ، فاني قادر على أن أرى

وجه الحق بالنظر الى تنازع المسلمين على الخلافة . وهى حق صريح لآل على أبناء عم النبی وأبناء بنته . وانما اختلسها سواهم طمعا فى الدنيا ، لكن الحق عاد الى نصابه بفضل أجدادك الكرام وسيأتى على يد الامام المعز لدين الله . ولذلك رأيتنى لا أدخر وسعا فى نصرة الحق ، وأتحيّن الفرص لتأدية خدمة تعود على الامام بالنصر، وقد علمت بدسيسة أعدها المبعوضون لابقاع الأذى بالامام وقائده - أعزهما الله - علمت ذلك بطريقة غريبة فى ليلة من ليالى القدر.. فلم أنم قبل أن أكتب هذا ، وبعثت به على جناح السرعة مع رسول غيور أوصيته أن يعجل فى السير حتى يصل قبل فوات الفرصة.. فأرجو أن يكون قد فاز بذلك ، وسلم كتابى هذا الى المولى أعزه الله ونصره على أعدائه.. وجليه الخبر ياسيدى انى علمت من قرآن مختلف أن بين أمراءك العائشين تحت جناحك أناسا يسعون فى الكيد لك ولقائلك ، ويخابرون صاحب مصر لفتح القيروان والحاقها بخلافة العباسيين .. وكنت حين أسمع ذلك أستبعدة ، اذ لا يعقل أن يسعى أحد فى ابدال دولة جديدة زاهية بدولة بالية خربة .. وحددتنى نفسى أن أكتب اليكم بذلك ، وترددت حينما حتى وقفت بالصدفة على أمر أطار صوابى وأقلقنى . وهو ما بعثنى على كتابة هذا بوجه السرعة ، وقلبى يخفق خوفا من تأخره عن الوقت اللازم .. علمت ياسيدى من مصدر وثيق ، وقد سمعت بأذنى ان صاحب سجن لماسة المقيم فى جوارك ، ورجلا من خاصته اسمه أبو حامد ، اتفقا على الكيد بك ، « بقائلك الباسل ، على أن ينقذا الحيلة فى عيد الفطر المبارك،

وبعثنا الى مصر شابا من رجالهما اسمه سالم يزعم انه ابن أبى حامد أو ابن أخيه . فهذا الشاب سمعته بأذنى يقص خبر المكيدة - وهو فى حال سكر - على امرأة أحبها .. ولكى تتأكد من صدق قولى ، فأنا أذكر من أسماء الأشخاص الذين استعان بهم فى هذه المكيدة فتاة أظنها ابنة صاحب سجلماسة اسمها لمياء ، أظهر لها سالم انه يحبها ليستخدمها فى اتمام هذه المكيدة لأنها من المقربين فى قصر مولاي أمير المؤمنين . ولا يطعننى قلبى على التصريح بما دبر أولئك الملاحين .. وقى الله مولانا الخليفة من كيد الكائدين .. واذا بلغ كتابى هذا الى سيدى الخليفة قبل عيد الفطر فهو ناج بأذن الله .. والرسول رجل من المولعين بالحق أنصار العلويين ، أئيد الله ملكهم . وأنا ياسيدى خادم مطيع لكم أبذل نفسى فى سبيل الحق ، ولا غرض لى غير ذلك .. والسلام »

ولم يتم جوهر قراءة الكتاب ، حتى استولت الدهشة على لمياء وأصابها شبه دوار من الحيرة .. لدهشتها مما سمعته عن سالم . وانكشفت لها مكيدته وتحققت انه كان يخادعها ، فأحست من تلك اللحظة بكراهيته وتحول حبها الشديد الى كره شديد ، وأصبحت لا تصبر عن الانتقام لنفسها منه . وأطرقت كأنها أصيبت بجمود وشمرت كأن الدم جمد فى عروقها ، واصطكت ركبناها وتولتها الرعدة .. وقد خجلت مما تلى عليها من اشتراكها فى تلك المكيدة . وكيف ان يهوديا يبعث بخبرها من مصر غيرة على الخليفة وهى فى قصر المعز ، وقد اطلعت على المكيدة منذ شهر ولم تخبره بها .. لأنها التمسست لنفسها عذرا

انها دافعت حتى انتهت المسألة على هذه الصورة
مرت هذه الخواطر بذهنها فى لحظة سمعت الخليفة أثناءها
يقول : « أين صديقنا صاحب سجلماسة ؟ »
فلما سمعت لمياء نداءه تحققت انه أراد أن يسأله عن المكيدة ،
وخشيت أن يتعرض لأذى ، لكنها سكنت لترى ماذا يكون ..
فأجاب أحد العلماة : « ان الأمير حمدون نائم منذ نهض عن
المائدة »

فقال وقد ظهر الغضب فى وجهه : « أيقظوه » ثم التفت الى
القائد جوهر وقال : « وأبو حامد ؟ .. أليس هو ذلك الرجل
الذى قدمه لنا حمدون ؟ أحب أن أرى الأمير حمدون لأسأله عن
تلك المكيدة وان كنت لا أصدق اشتراكه فيها .. ولكنه سيفصح
عن التفاصيل ونرى ماذا يكون .. أين هو ؟ أيقظوه .. »

— ٤٠ —

موت حمدون

واذا بغلمان حمدون يتراكضون وقد أخذتهم البغلة ، وتقدم
أحدهم الى المعز وقال وهو يغص بريقه : « لم يستيقظ ياسيدى »
وأخذ فى البكاء .. فلما سمعت لمياء بكاءه أسرع الى حيث رقد
أبوها فوجدته مستلقيا على مقعدهناك ، وقد تغير لونه ، فازرقت
بشرته ، وغارت عيناه ، وبانت أدلة الموت فى وجهه ، فصاحت :
« وا والداه .. ماذا جرى لك ؟ » وجعلت تجس يديه ووجهه
فاذا هو ميت لا حراك به .. فأخذت تناديه ، وسمع الخليفة بكاءها

فأسرع ومعه القائد جوهر ، فلما رأيا حمدون تحققا من موته ،
وعجبا لما أصابه .. فأمر المعز أن يؤتى بالطبيب حالا فأتى ، ولما
وقع نظره عليه صاح : « مات الأمير مسموما .. ماذا شرب ؟ »

فقال المعز : « أكلنا معا من طعام واحد الا شرابا صبه الغلام
لنا جميعا فشربه ولم نشربه نحن ، ولا تزال أقداحه مملوءة
على المائدة . ومشى الخليفة الى غرفة المائدة ودل الطبيب على
الأقداح ، فتناول الطبيب قدحا منها وتأمل السائل الذى فيه
قليلا وشمه ، ثم أخرج من جيبه مسحوقا وضع شيئا منه فى ذلك
الشراب ، وجعل يتفرس فيما يحدث فيه والجميع وقوف ينظرون.
فلم تمض برهة حتى تحول ما فى القدح الى راسب أصفر وتغير
لون الماء فصاح : « ان هذا الشراب سام .. من صنعه ؟ »

فأمر المعز بالقبض على الطاهى الذى أشرف على تلك
الوليمة .. فلم يقفوا له على خبر ، وأطرق المعز فى أثناء ذلك.
وأعمل فكرته فيما رآه من الغرائب فى ذلك المساء ، فاتضح له
سلامة نية حمدون لأنه لو اشترك فى المكيدة وعلم أن الشراب
مسموم لما تناوله ..

وأسف المعز لموت حمدون ، وأمر أن تجهز ويدفن ..
والتفت الى لمياء فاذا هى قد وقفت لا تنبس بكلمة .. كأنها
أصببت بجمود ، فقال لها : « تعالى يا بنية رحم الله والدك ..
انه مات مظلوما ، والله يتولاه برحمته فأنت الآن ابنتا ..
لا نقول لك ذلك تعزية لك ، لكنك حققت لنا ما لا يأتىه الابن
الغيور .. » ومد يده الى كتفها وربت عليه بحنان وعطف وقال :

« هيا بنا الى قصرنا فى المنصورة ، واعتبروا ان هذا الفرخ لم يكن .. وستجدين هناك أم الأمراء وسوف تأنين بها »

فلم تجبه .. لكنها أخذت فى البكاء ، وهى صامتة تناجى نفسها بأمور لا تخطر لأحد من الحاضرين على بال .. لكنها أحست بغضب شديد على سالم ، وجاشت عواطفها ، ورأت فى نفسها ميلا للانتقام منه . ومن قواعد الحب وطباع المحبين ان المتفانى فى حب شخص يحتمل منه ما شاء من التجنى والدلال والاعراض ، ولا يزداد الا شغفا وتفانيا .. لكنه لا يحتمل الخيانة ، فاذا تأكد انه خانه فى عواطفه ، أو خادعه ، أو داجاه ، لغرض فى نفسه اقلب حبه بغضا وصار تفانيه قفلة . فأحست لمياء ببيل شديد الى الانتقام من سالم وقد تحققت من خيائته ، لأنه كان يتظاهر لها بالحب كى يفتك بأعظم المحسنين اليها واليه

وأمر المعز أن تقوض القسايط والسرادقات ، ويؤجل العرس الى وقت آخر ، فالتقت لمياء عند ذلك وقد هاجت أشجانها وقالت : « تؤجله ياسيدى حتى ننتقم لأنفسنا من الكائدين ..

فاذا وافقنى أمير المؤمنين على ذلك ضاعف فضله على »

فقال المعز : « سننظر فى هذا الأمر » وأمر رجاله بالرجوع الى المنصورة فاشتغلوا بتقويض الخيام . وركب المعز وقائده ولواء الحسين وسائر الحاشية الى المنصورة ، والعلمان يحملون المشاعل بين أيديهم

وفى صباح اليوم التالى احتفلوا بدفن حمدون ، وبكته لمياء بكاء مرا لسبب لا يعرفه سواها .. وهو اعتقادها انه قتل نتيجة

سذاجته وسلامه نيته ودهاء ذلك اللعين أبى حامد
وكانت لمياء حال وصولها الى القصر فى ذلك المساء قد دعته
أم الأمراء الى غرفتها ، وأخذت فى تعزيتها بعبارات الحنان
والحب كما تغاطب الوالدة ابنتها ، فأحست لمياء براحة وزادت
تعلقا بها . وأيقنت أنها كانت محقة فى اخلاصها لتلك الملكة ،
ولكنهم شؤشؤوا عليها أفكارها بكائدهم

- ٤٩ -

التعزية

ولم تطل الملكة الحديث تلك الليلة والميت لم يدفن بعد ..
وفى الصباح التالى ، حين علمت بدفنه بعثت الى لمياء وأمرتها
أن لا تفارقها ، وبالغت فى إكرامها وتعزيتها ، وذكرت الحسين
فى أثناء حديثها . فتذكرت لمياء انها لم تشاهده فى ذلك اليوم ،
ولا رائته بعد عودته معهم فى المساء . فاشتغل خاطرها بشأنه ،
وشعرت بميل الى رؤيته ، وودت أن تلتقى به فى خلوة لبثه
أمورا تحب أن تحدثه بها بعدما أصابها من قتل والدها وتغير
قلبا على سالم . فلما سمعت أم الأمراء تذكره ، أحبت أن
تفتش الفرصة وتساءل عنه ، فغلب الحياء عليها فسكتت . ولاحظت
أم الأمراء خجلها فقالت : « ان الحسين سيء الحظ يا لمياء ..
انظرى ما اتفق له فى يوم عرسه .. »

فقال وهى تغص بريقها : « بل أنا التسعة ياسيدتى لأنى
فقدت سدى الوحيد وهو والدى ، فأصبحت يتيمة الأبوين »

ومنعها البكاء من اتمام الكلام ..

فهتت أم الأمراء ، وضمتها الى صدرها ، وقالت : « لست
يتيمة يا لمياء و . . . »

فقطعت لمياء كلامها قائلة : « صدقت ياسيدتى .. ان من كان
تحت ظلك ، وظل سيدى أمير المؤمنين ، لا يكون يتيما ..
وكفانى حظا وشرفا أن يدعونى الخليفة — حفظه الله — ابنته .
انها نعمة لم أكن لأحلم بها .. ولكن .. »

فقال أم الأمراء : « لا لوم عليك اذا بكيت أباك .. انه كان
بارا وكان يحبك »

فتذكرت لمياء ما كان يضمره أبوها من السوء للخليفة وقائده ،
فأحسّت بوخز الضمير ، فأرادت أن تصرف ذهنها عن ذلك
الحديث لأنه يؤلمها فقالت : « رحمه الله .. وأنا الآن لا أعرف
أبا غير أمير المؤمنين ولا أمّا سواك » وسكتت وهى تتشاغل
باصلاح شعرها ، وفى خاطرها شئ يمنعها الخياء من ذكره

وأدركت أم الأمراء مرادها ، فقالت : « انى لم أر الحسين، منذ
جاء معكم أمس فى المساء ، ولم أره اليوم .. فأين هو يا ترى؟ »
قالت لمياء : « لا أعلم ، رأيته يركب معنا من المعسكر ثم لم
أره .. »

فقال أم الأمراء : « هل تظنين ان الخليفة أرسله فى مهمة
عاجلة ؟ »

قالت لمياء : « أنت أعلم منى بذلك »

قالت أم الأمراء : « لاريب عندى ان أمير المؤمنين يجب أن

يراك ، فهل تذهب اليه وهو يخبرنا عن الحسين ؟
فسرها هذا الاقتراح .. لكنها لم تظهر رغبة في الاجابة
حياء . ولم تنتظر أم الأمراء جوابها ، فنهضت وأمسكتها بيدها
ومشت بها وهي تقول : « ان أمير المؤمنين وحده في قاعته ، وقد
أخبرني في هذا الصباح أنه لا يريد أن يرى أحدا من الأمراء »
فقالت لمياء : « لعله طلب ذلك لرغبته في أن يخلو بنفسه ..

فهل يجوز أن نزعجه بحضورنا ؟ »
فابتسمت وقالت : « لا نزعجه حضوري أو حضورك ولا هو
أراد الخلوة للعمل على ما أظن . ولكنه أراد الراحة من عناء ما
لاقاه أمس ، وهو بلا شك كثير التفكير فيك ، هلمي بنا اليه .
وانزعج حجاب الكلفة معه بعد أن دعاك ابنته .. ونعم الابنة
أنت » .

وبعد هنيهة ، وصلتا الى غرفة الخليفة .. فبادر الحاجب
الى القاء التحية باحترام ، فقالت أم الأمراء : « لعل أمير
المؤمنين وحده ؟ »

قال الحاجب : « كلا ياسيدتي .. انه في خلوة مع القائد جوهر
فأرادت أن ترجع واذا بالمعز يناديها من الداخل : « اذا
كانت لمياء معك فادخلي »

فأجفلت لمياء عند سماع اسمها بهذا الأسلوب .. وتساعد الدم
الى وجنتيها ، فقالت لها أم الأمراء : « ألم أقتل لك انه يشر
برؤيتك .. حتى أكثر من رؤيتي . وقد قال بصراحة أن لا
أدخل الا اذا كنت معي » وضحكت وهي تتظاهر بمداعبتها ..
ووسع لهما الحاجب فدخلتا

وكان المعز جالسا على مقعد والقائد جوهر على وسادة بين يديه ، وعلى وجهيهما امارات الاهتمام . فلما دخلت أم الأمراء أظهرت الاحتشام لوجود القائد، فابتدرها المعز قائلاً: « انقائنا كواحد منا فلا ينبغي الاحتشام في وجوده .. وأنت يا لمياء ابتنا ، وهذا القائد أبوك أيضا » وأشار اليهما بالجلوس ، وكان القائد قد وقف عند دخول أم الأمراء فأشار اليه الخليفة أن يجلس وقال له : « نحن في أمر هام نحب أن نشارك القادمتين فيه .. أنت تعلم رجاحة تفكير أم الأمراء .. وهذه فتاتنا لمياء قد عرفت ذكاءها وغيرتها على مصلحتنا ، فلا بأس من اشتراكهما في الحديث » فجلست لمياء وهي مطرقة حياء لهذا الثناء ، فقال لها الخليفة : « لا ينبغي التهيّب يا بنية بين يدينا ، وقد أصبحت ذات شأن في أمورنا لما تأكدها من تعقلك وصدق محبتك لنا ، وقد شق علينا ما أصاب والدك .. ولكن ذلك أمر الله ولا سبيل الى دفعه .. طيبى نفسا ، سنأخذ بثأره »

فلما سمعت ذكر الثأر ، تغير وجهها وبان الاهتمام في عينيها .. ونظرت الى الخليفة وابتسمت ابتسام الامتنان وقالت : « أشكر لك يا مولاي عطفك نحوي .. ولكنى أرى الواجب الأول أن نتقم لأمير المؤمنين لأن ذلك الحائن أراد إيصال الأذى اليه .. وقد حماه الله »

فابتسم وقطع حديثها قائلاً : « وكان الفضل لك في ذلك يا لمياء .. فهل يكتر علينا أن نثار لوالدك رحمه الله ؟ » فاطرقت ، وسكتت ، ثم رفعت بصرها اليه ، وقالت : « لكننى

أرغب الى أمير المؤمنين أن يشركنى فى هذا الانتقام .. فانى
موتورة » قالت ذلك وقد قطبت جبينها وبان الغضب فى عينيها
فقال المعز : « لم نكن لتكلفك شيئا من هذا يا لمياء .. كفاك
ما أصابك » والتفت الى القائد جوهر وقال : « انى لم أشاهد
الحسين فى هذا الصباح .. أين هو ؟ »
قال جوهر : « لقد ذهب فى مهمة عاجلة .. هى من قبيل
ما نحن فيه »

قال المعز : « الى أين ؟ »
قال جوهر : « أرسلته الى الجهة التى قالت لمياء انها شاهدت
ذلك الخائن فيها .. وذكرت أن هناك قافلة أو معسكرا ، فأمرت
الحسين أن يذهب بكوكبة من الفرسان لعله يدرك القوم قبل
رحيلهم ، فأتينا بذلك الغادر ويكفيها مئونة البحث عنه »
فقال المعز : « بارك الله فى همتك وتيقظك » والتفت الى
أم الأمراء وابتسم وهو يقول : « كيف نلام على تقديم هذا
القائد وهو لا يفكر عن مصلحتنا ؟ »

— ٤٢ —

الحسين

أما لمياء فأطرقت ، وظهر الارتباك على وجهها ، فلاحظ
الخليفة ذلك فقال : « ما بالك ساكنة يا لمياء ؟ .. هل شق عليك
ذهاب الحسين .. ولماذا ؟ »
قالت لمياء : « كيف يشق على ذهابه فى خدمة هذه الدولة ،

والحرص على سلامة أمير المؤمنين .. ان أرواحنا فداءه
 قال المعز : « انى أرى فى وجهك قلقا »
 قالت لمياء : « قد أهمتني ذهابه ، لعلنى بغدر أولئك الخائنين
 ومكرهم »

فقطع القائد جوهر كلامها قائلاً : « لا خوف على الحسين من
 غدرهم .. ولا يلبث أن يأتى ظافرا بأذن الله . وعند ذلك يحق
 له أن يكون عريسا لك »

فخجلت ، وتورعت وجنتاها ، وأجبت أن تصرح بما فى
 خاطرها من هذا القبيل فقالت : « هل يأذن مولاي أمير المؤمنين
 بكلمة أقولها جوابا على ما سمعته ؟ »

قال المعز : « قولى .. »

قالت لمياء : « أما وقد سمعت من القائد الأكبر ما قاله فأقدم
 الى مولاي أن .. » وأسكتها الحياء والتفتت الى أم الأمراء
 كأنها تستجد بها كى تتوب عنها فى التعبير عما يجول فى
 خاطرها .. ولم تكن أم الأمراء تعلم مرادها ، فنظرت اليها
 تستفهم منها .. فأسررت اليها أنها ترجو تأجيل القران .. »

فقال المعز : « سمعت ذلك منها أمس .. طبعاً ، اتنا سوف
 نؤجله مراعاة للحداد »

فقالت لمياء : « كلا ياسيدى انما أعنى انه لاينبغي أن يتم
 شيء قبل الانتقام من الخونة .. » وتشاغل برفع كمها على
 أناملها وقد ظهر انها لم تتم حديثها ..

فقال جوهر : « ان هؤلاء الخونة لن يمضى وقت طويل قبل

أن يكونوا في قبضتنا كما قلت لكم ، فهل تعنين غيرهم ؟ »
 قالت لمياء : « نعم .. انهم كثيرون ، والبعض لا يتيسر الوصول
 اليهم الا بعد أشهر لأنهم بعيدون .. ان هذه الخيانة يجب أن
 يتحمل صاحب مصر عواقبها .. » وأشرق وجهها بما بدا فيه من
 الحماسة ..

فأدرك الخليفة أنها تشير الى غزو مصر انتقاما من صاحبها ،
 فالتفت الى القائد جوهر وابتسم ، لأنه كان يتحدث معه في
 شيء من ذلك قبل مجيء لمياء

فخطر القائد الى الخليفة وابتسم ابتسامة الظافر لأنه كان يرى
 ضرورة المبادرة بفتحها .. والخليفة يتخوف ويتردد ، فسرّه أن
 تقترح لمياء مثل اقتراحه

وأدركت لمياء ذلك فقالت : « لا ينبغي لنا أن نتردد في تحميل
 صاحب مصر عواقب هذه الخيانة فانه شريك فيها .. ولاخوف منه
 فانه الآن عبد ذميم « كافور » وأحوال مصر في غاية الاضطراب »
 فرأى المعز أن يتحول عن الحديث في هذا الموضوع ريثما
 يفكر في الأمر .. وهو لا يجب أن يقول قولاً لا يكون مصمماً
 عليه ، فقال : « ان أمر مصر لا يزال بعيداً ، وربما فكرنا فيه في
 فرصة أخرى .. فنحن نحب أن نعجل بالعقد عليك للحسين »

قالت لمياء : « أعتقد ان الحسين سوف يؤيد رأيي ، لأنه
 ليس أقل غيرة على مصلحة أمير المؤمنين مني .. أرجو من مولاي أن
 يجعل أمر مصر مقدما على كل شيء ، وأنا أضمن الظفر باذن الله »
 فأعجب بتلك الحمية وقال : « ليس ضمان ذلك بالأمر

السهل يا بنيّة .. انه يحتاج الى المال والرجال »
 فنظرت الى الخليفة : وقد تغيّرت سحتها ، وظهرت البسالة
 في جبينها وقالت : « ان الرجال موجودون ياسيدي ، ومن كان
 في قواده مثل القائد جوهر لا يخشى بأسا ، فقد فتح المغرب
 على أهون سبيل .. وهل يظن أمير المؤمنين ان فتح مصر سوف
 يكون أعظم مشقة ؟ »

فاستحسن المعز اطراءها قائده وقال : « هذا مسلّم به ،
 ولكن ما قولك في المال ؟ .. انه لا بد منه لهذا العمل »
 قالت وفي صوتها رثات التأكيد : « والمال موجود أيضا .. »
 فيغت الجميع من تأكيدها ، وتوجهوا نحوها بأبصارهم ،
 وقال الخليفة : « من أين لنا المال الكافي ونحن لم نفرغ من
 الحروب الا بالأمس ؟ »

قالت لمياء : « قلت لمولاي ان المال موجود ، وسأين له
 ذلك متى شاء .. فاذا فعلت ، هل يبقى لديه مانع ؟ »
 قال المعز : « يبقى أن نستطلع حال المصريين ، وتتعرف حقيقة
 اتجاهاتهم وشؤونهم .. لأننا لا نعلم عنهم الا ما تتلقفه من
 أفواه الناس »

قالت لمياء : « أما وقد أشركني أمير المؤمنين في هذا الحديث
 فاني أستاذته في أن أقول اني أضمن له أيضا كشف ما يريد
 أن يعرفه من الأحوال »

فراى الخليفة من لمياء فوق ما كان يتوقعه ، ولم يصدقه
 بحذافيره وانما حمله على محمل الاندفاع ، كما يفعل الراغب في

أمر.. فانه يراه سهلا لرغبته في الحصول عليه . وهم أن يستريدها
 يافا واذا بالحاجب قد دخل وقال : « ان مولاي الحسين بالباب »
 فأمر بإدخاله .. أما لمياء فلما سمعت اسمه خفق قلبها ، ولم
 تعد تخشى خفقانه للحسين بعد أن نقضت يديها من محبة سالم ..
 لكنها تماسكت والتفتت فرأت حسينا قد دخل وعلى وجهه غبار
 السفر ، فعلمت انه عائد من تلك المهمة

أما هو ، فحيّاه .. فأمره الخليفة بالجلوس فجلس ، ووقع
 بصره على لمياء .. فتجاذب قلباهما وتخطب بصراهما .. ولكنه
 شغل بالتوجه نحو الخليفة فقال له المز : « ما وراءك ؟ قد
 أخبرني قائدنا انك تعقت أولئك الخائنين .. فعمى أن تكون قد
 ظفرت بهم وحيلتهم الينا »

قال الحسين : « قد جلت اليكم أناسا وجدتهم قرب المكان
 الذي كان الخائنون فيه ولكنهم ليسوا منهم »
 فقال جوهر : « وكيف ذلك يا بني ؟ »

قال الحسين : « قضيت ليلة أمس وأنا أبحث في الأماكن التي
 ينزل فيها الناس أو القوافل في طريق مصر ، حتى بعدت كثيرا
 عن القيروان فلم أجد أحدا .. »

فقطع أبوه كلامه قائلا : « أخشى أن تكون قد أخطأت الطريق »
 قال الحسين : « بل هي الطريق ذاتها .. والدليل على ذلك
 أني رأيت جثة ذلك الرسول ، وبجانبا جثة قاتله ، كما قصت
 خبرهما لمياء .. وأمنت النظر في تلك الجهات ، وبشت رجالى في
 كل جهة ، فأخبرني أحدهم في هذا الصباح انه رأى آثار

معسكر . فمرت اليه فرأيت بقايا قوم كانوا هناك ورحلوا من عهد قريب ، ولعله المعسكر الذي كان فيه أولئك الخوذة . ومع ذلك فلم أقنع بما رأيت فواصلت السير الى عين ماء تنزل عندها القوافل ، فرأيت قافلة قادمة من مصر أتيت بأصحابها معي لعلنا نستخلص منهم خبرا .. اذ توسمت من زخرف فساطيطهم وخيولهم وسائر أحوالهم ، ما لم أعهد في سواهم من أصحاب القوافل « فقال الخليفة : « أين هم ؟ » قال الحسين : « أتيت برئيسهم معي .. وهو بالباب ، اذا شاء مولاي أمر بادخاله »

- ٤٣ -

بنت الاخشيذ

فصفق المعز ، فدخل الحجاب فقال : « ادخل الرجل الواقع خارجا » وأشار الى أم الأمراء ولياء بالتحنى الى مكان تجلسان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراها أحد ثم عاد للحجاب ومعه رئيس القافلة ، وهو كهل عليه ملابس المصريين من العمامة والجبّة ، وقد أخذ الاضطراب منه مأخذا عظيما لهول ذلك الموقف . فقال له الخليفة : « لا تخف يا رجل ، وانما نريد منك أن تصدقنا القول .. من أنت ؟ » قال الرجل : « أنا يا مولاي من أهل مصر » قال المعز : « وما هي صناعتك ؟ » قال الرجل : « تاجر رقيق »

قال المزم : « ما الذى جاء بك الى هذا البلد ؟ »
 قال الرجل : « جئت لأبتاع رقيقا أحمله الى مصر . وهى
 عادتي فى كل عام أو بضعة أعوام .. آتى الى القيروان لهذه
 الغاية ، فأبتاع المولدات الحسان وأنصرف »
 قال المزم : « ولكن رسولنا يقول ان حالكم تدل على غنى
 وترف لا يسهل فى تجار الرقيق الذين يفدون على القيروان »
 فظهرت البغته فى وجه الرجل .. ولكنه قال : « نحن يامولاي
 تجار رقيق كما قلت لكم .. فانى لا أكذب »
 قال المزم : « هذا لا يكفى .. قل لنا السبب الذى أوجب
 محبتكم فى القساطيط الفاخرة ، ومعكم الخيول المطهمة .. كأننا
 أئتم من رجال الدولة أو الأمراء »
 قال الرجل : « السبب فى ذلك يامولاي اننا نبتاع الجوارى
 بأمر خاص .. ونحن ننفق على حساب مرسلنا .. »
 فقال الخليفة : « لمن تبتاعون الجوارى ؟ ومن هو مرسلكم ؟
 أصدقنى والا فانك لن تنجو من القتل »
 فخاف الرجل ، واصطكت ركبتاه ، وارتفعت فرائصه ، وقال :
 « اننا نبتاع الجوارى لمولاتنا ابنة الاخشيد صاحب مصر »
 فضحك الخليفة والتفت الى جوهر وهو يقول : « ألا ترى
 التلون فى كلامه ؟ يقول انه يبتاع الجوارى الحسان لابنة الاخشيد
 ولو قال انه يبتاعها للاخشيد نفسه لصدقناه » والتفت الى الرجل
 وقال : « قل الصدق .. لماذا لم تقل انك تبتاع الجوارى للاخشيد
 أو غيره من الأمراء ، هل خشيت أن يكون عليك من ذلك بأس ؟ »

قال الرجل : « كلا يامولاي .. بل أنا أقول الصدق ، لقد
مرت على عدة أعوام وأنا آتى الى القيروان بأمرها كى أبتاع
لها الجوارى الحسان بالأثمان الباهظة »

قال المعز : « ماذا تفعل بهن ؟ »

فتوقف الرجل عن الجواب ، وظهر الارتباك فى وجهه .. لكنه
خشى السكوت ، فقال : « لتستمع بهن »

فبغت الخليفة والقائد والحسين ، وأخذوا ينظرون بعضهم الى
بعض فقال القائد : « تشتري الجوارى لابنة الاخشىد لتستمع
بهن هى ؟ »

قال الرجل : « نعم ياسيدى .. وهذا أمر يعرفه أهل مصر لأنها
كثيرا ما تنزل سوق الرقيق فى الفسقاط بنفسها على حمارفتساوم
صاحب الرقيق على الجارية اذا أعجبتها وتشتريها لنفسها . واذا
كانت لا تجد هناك مايعجبها من الجوارى الحسان تبعث بى فى
قافلة خاصة لهذه الغاية ، وتنفق فى سبيل ذلك الأموال الطائلة »

فلما سمع المعز كلامه وصدق لهجته تملكته الدهشة .. وأشار
اليه أن ينصرف . فلما خرج التفت المعز الى قائده وقال : « قد
كنت منذ قليل أتردد فى فتح مصر وأخاف جندها . وأما الآن فقد
هان على أمرها لأن بلدا بلغ الترف من أهله حتى صارت المرأة
من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتستمع بها ،
لا يخشى بأسهم .. لأن ذلك من ضعف نفوس رجالهم وذهاب
غيرتهم (١) انما يلزمنا المال » والتفت الى لمياء

فتقدمت أم الأمراء وأجابت عنها قائلة : « ان ابنتنا لمياء قد قصت على خبر المال الذى أشارت اليه وهو مضمون ، وانما يحتاج الى نظر خاص »
فقال المعز : « هل ترين بأسا من التصريح به بين أيدينا وليس فينا غريب .. قولى يا لمياء ، قولى »

— ٤٤ —

فج الأخيار

فتقدمت لمياء ووقفت وقفة رجل جسور وقالت : « ان المال ياسيدى غباً فى مكان بعيد . وكان قد خزنه عدوك هناك ليحاربك به .. ولكن الله قدر أن يكون لك كى تحارب به أعداءك ، وأنت ظافر بأذن الله »

فاستغرب الجميع قولها ، وتناولوا بأعناقهم لسماع حديثها فقالت : « سأقول لكم ما أعرفه . ولكن قبل كل شيء أرجو من أمير المؤمنين أن يوافقنى على طلبى الأول وان كان لا يحسن بى أن أصرح به »

فعلم انها تشير الى تأجيل الاقتران بالحسين فقال : « أنا أوافقك ولكن الشأن فى هذا الأمر هو للحسين » والتفت اليه فوقف الحسين متأدبا .. فقال له المعز : « ان لمياء الشجاعة الباسلة تطلب تأجيل العقد الى ما بعد فتح مصر والتكامل بالخائنين ، فماذا تقول ؟ » قال الحسين : « هذا ما كنت أتمناه ولم أجسر على طلبه ، أما وقد طلبته هى فأنا أوافق عليه وأشترط أن أكون فى مقدمة

المحاربين في هذا السبيل »

فقالت لمياء : « طبعاً كلانا يجب أن يكون في مقدمة المحاربين .
ولا أعنى بالمحاربة استلال الحسام أو الهجوم على صفوف
الأعداء فقط ، فإن هناك أعمالاً تسبق امتشاق الحسام ..
سنأتى على ذكرها .. »

ثم وجهت خطابها الى الخليفة ، وقد أبرقت عينها ، وظهرت
الحماسة في طلعتها وقالت : « هل أقول ياسيدى ؟ »

قال المعز : « قولى بارك الله فيك .. والله ان كلامك ليث
الحماسة فى قلوب الرجال ، وقد هونت على اقتحام الأهوال فى
سبيل الفتح .. قولى »

قالت لمياء : « سمعت مولاي يقول انه لا بد لنا قبل الاقدام
على فتح مصر من شيئين هامين : الأول المال ، والثانى استطلاع
أحوال القوم وقواتهم وداخليتهم . أما المال فأقص عليكم ما
عرفته عنه ، ولذلك حديث سمعته عرضاً من ذلك الخائن القاتل ..
ولم أكن أفهم مغزاه . فلما ظهرت خيائته أدركت مكايده ..
علمت منه أن فى جبل إيكجان من بلاد كتامة مكاناً يقال له
« فج الأخيار » كان فيه بلد يسمى دار الحجر بناه أبو عبد الله
الشييعى وخزن الأموال فيه »

فلما سمع الخليفة اسم البلد ، تغير وجهه لأنه تذكر بلاء أبى
عبدالله فى نصرتهم وكيف قتلوه . ولاحظت لمياء ذلك فتجاهلت
وأتمت حديثها قائلة : « وحينما قام أبو عبدالله بدعوة جدك المهدي
— رحمه الله — وجمع كلمة القبائل فى نصرته وتمكن من التغلب

على أعدائكم ، أتى فنزله وقسم البلد على كتامة ونادى بالامام المهدي خليفة ، وحمل اليه الأموال التي كانت مخزونة في جبل ايكجان . ولكن يظهر انه كان ينوى الخروج على الطاعة ف ضرب تقودا جديدة لم يذكر فيها اسم الامام المهدي ، وانما اكتفى بأن ضرب على أحد وجهي الدينار « بلغت حجة الله » وعلى الآخر « تفرق أعداء الله » وضرب على السلاح « عدة في سبيل الله » ووسم الخيل سمة « الملك لله » ثم ذهب الى سجلماسة في طلب المهدي ، وما زال حتى أتم الفتح وسلم الأمر اليه .. ويظهر انه ندم على عمله ، فبعث الأموال الى ايكجان سرا واختزنها هناك حتى يعود فيقلب ظهر المجن ويطلب الأمر لنفسه .. فعلم الامام بذلك وما زال به حتى قتله كما تعلمون ، لكنه لم يعرف خبر تلك الأموال فبقيت مطبورة هناك.. ولعله أسرء بأمرها الى أبي حامد اللعين ، فقام يسعى سرا في اخراج الملك من أيديكم على أن يفسد قلوب القبائل عليكم ، ويستعين بذلك المال عند الحاجة . وآخر مكائده قد فشلت أمس وانما أصابت المأسوف عليه والدي، فهرب ذلك اللعين والأموال لا تزال في فجج الأخيار .. فاذا بعث الخليفة من يأتي بها أعاتته في نصرة الحق.. هذا ما أعرف من أمر الأموال»

ولم تتم كلامها حتى كثر العرق جبينها ، وبأن الاهتمام على حياها ، والخليفة ينظر اليها ويتفهم كلامها . وقد أعجب بما كشفتته من أمر هذا السر العظيم فقال : « بورك فيك يا لمياء اتنا سنبعث في طلب ذلك المال . ولكنني أفكر في مكيدة هذا الرجل كيف انطلت علينا وعلى والدك كل هذه الأعوام . ان

فضلك في كشف هذا السر يزيد على فضلك في اقاذا من القتل..
لأنك أطلعنا على مساع متواصلة لو نجونا من تلك المكيدة ولم
نطلع عليها لظلت الدولة في خطر من مكيدة أخرى . أما الآن
فستعقب الخائنين حتى نفنيهم بعد أن نأخذ أموالهم »

فأطرقت لمياء حياء ، عند سماع ذلك الشاء ..
فتصدى الحسين للكلام فقال : « هل يأذن لى مولاي أن
أذهب في طلب هذا المال ؟ »

قال المعز : « لك ذلك .. ولكن هل علمت ما يعترض هذا
العمل من المشاق ؟ ان جبل ايكجان في أواسط بلاد كنامة في
البادية والذهاب اليه مهمة شاقة »

قال الحسين : « فليكن حيثما يكون .. كل ذلك هيئن في
خدمة أمير المؤمنين » فضحك الخليفة ضحكة الاستحسان

فقالت لمياء : « هذا من حيث المال .. أما من حيث استطلاع
دخائل القوم ببصر فأنا أقوم به »

فبغت الخليفة لهذا الاقتراح وقال : « كيف تفعلين ؟ .. أليس
ذلك شاقا عليك ؟ »

قالت لمياء : « انه هيئن .. واستأذن مولاي أن لايسألنى
كيف أصنع ، وانما أتعهد له بأن آتية بالخبر اليقين ، وأطلب اليه
أن لا يستزيدنى بيانا »

فاستغرب القوم رغبتها في كتمان سعيها ، ولكنها لم تدع لهم
بابا للاستفهام فسكتوا ، فقال الخليفة : « لم يمر بى يوم
أطلعت فيه على أمور هامة مثل هذا اليوم .. والفضل لك

يا لمياء . بارك الله فيك ، وقواءك في نصرة الحق ... »

— ٤٥ —

الحسين ولمياء

وتزحزح الخليفة فنهض القائد وانصرف معه الحسين ، وانصرفت أم الأمراء ولمياء من جهة أخرى . وعلمت أم الأمراء أن لمياء تحب أن تجتمع بالحسين بعد ما وقع من الأحداث الغريبة . ولكن الحياء يمنعها من طلب ذلك .. فلما وصلتا الى غرفتهما بعثت أحد الصقالبة يدعو الحسين اليها وأمرت لمياء بالجلوس . وأخذت تتحدث معها فيما جرى في تلك الجلسة .. وهى تريد استبقاءها ريثما يأتي الحسين ..

وبعد قليل جاء الصقلبي وقال : « ان القائد حسيناً أتى » فلما سمعت لمياء ذلك ، كان أول ما تبادر الى ذهنها أن تنهض وتنصرف .. فأقعدتها أم الأمراء وقالت : « الى أين ؟ »

فجلست وهى ترتعد من تلك المفاجأة ، وأحسّت أم الأمراء بذلك حين أمسكت يدها لتجلسها .. فقد كانت باردة كالثلج ، فقالت : « ما بالك ترتعشين من سماع اسم الحسين ؟ ألا تزالين تفكرين فى سواء ؟ ماذا حدث لمنافسه القديم؟.. أين هو .. ؟ »

وحين سمعت لمياء ذلك ، اقتصر بدننها وامتنع لوننها وأخذها الغضب .. اذ تذكرت خيانة سالم ، فاكتفت بالتنهد ولم تجب .. فقالت أم الأمراء : « لم تقولى لى عن اسمه بعد .. أعله كان

في جملة أولئك الخائنين ؟ أرجو أن يكون كذلك ، فنكون قد
تخلصنا منه .. »

فلم ترد لمياء على الاطراق ، وقد ترقرت الدموع في عينيها ،
وتذكرت ان الحسين يعرف سائما من تلك الليلة . أما أم الأمراء
فقالت : « لقد أبطأنا في الاذن للحسين بالدخول » والتفتت
الى الصقلي وقالته : « يدخل »

وبعد لحظة دخل الحسين ، وهو لا يزال بشباب الركوب ، كما
كان ساعة وصوله .. دخل وهو لم يكن يتوقع أن يرى لمياء
هناك ، وانما ظن أن أم الأمراء تحتاج اليه في خدمة .. وكثيرا
ما كانت تدعوه وتكلفه ببعض المهام . فلما دخل ، ووقع بصره على
لمياء ، أجفل كما أجفلت هي .. وألقى التحية على أم الأمراء ،
ثم حيا لمياء عن بعد باحناء الرأس . فقالت أم الأمراء : « لايلذ
لى أن أراكما بعيدين .. وقد بذلت جهدا في جمعكما ، فانك ابن
قائدنا وهذه لمياء ابنتى . ومع ذلك فقد جعلت نفسى والدتك
وقمت بتأدية المهر عنك » قالت ذلك بلطف ومداعبة .. فتلثم
لسان الحسين عن الجواب .. ولكن الامتنان ظهر في ملامحه ..
وتقدم نحو لمياء وهو يقول : « ان لمياء صاحبة فضل كبير
على لأنها أقتدت والدى من القتل .. ولست أدري بماذا أكافئها »

فقالت لمياء : « انى لم أفعل شيئا يستحق الذكر . واذا كنت قد
فعلت شيئا فهو في سبيل خدمة مولاي أمير المؤمنين الذى تقديه
بأرواحنا .. ولست أراك أقل تفانيا في سبيل مصلحته منى »
فاشارت أم الأمراء الى الحسين أن يجلس على وسادة أمام

الوسادة التي كانت لمياء جالسة عليها ، وتظاهرت بأنها ذاهبة في أمر ذي شأن خطر لها فجأة . وهي انما فعلت ذلك رغبة في انفراد الحبيبين لأنها وجدت نفسها ثقيلة بينهما .. وكانت من أرق الناس احساسا ، وأكثرهم تعقلا ، لاتقوتها ملاحظة .. فهل شعر الحبيبان أنها خرجت عمدا مراعاة ل احساسهما ؟ هب انهما أدركا ذلك .. ولكن الحب يشغل المرء عن سواه ، أو أن المحب يرى مايرى به من الأحوال مغشاة كأنه ينظر اليها من وراء حجاب .. هو الحب . وقد يأتي في سبيل حبه أعمالا يحسبها خافية على الناس ، وهم يرونها بأجلى مما يراها هو .. ولكنهم لا يصارحونه بها ، فيحسبهم غافلين

جلس الحسين وهو ينظر الى لمياء ، وهي مطرقة حياء ، وقد مره في خاطرها تاريخ حياتها منذ عرفت سالما .. وكيف تعلقت به وتمسقته حتى أبت أن تجيب دعوة سواه . وتذكرت الليلة التي لقيت فيها حسيناً لأول مرة وما أبداه من الشهامة في معاملتها ، وكيف انتهت ليلتهم بفشل سالم .. وتذكرت ما قاله الحسين عند وداعها من كتمان أمر سالم ، وأنه عرفه وعفا عنه .. وكيف انها رضيت بالحسين أولاً اذعاناً لأمر سالم ، ثم أصبح هذا أعدى أعدائها .. فأحسّت بعطف الى الحسين .. وكان محور هذا العطف الاعجاب بشهامته ومروءته مر ذلك كله في خاطرها سريما والحسين جالس بين يديها ، يحاول أن يخاطبها ولا يعرف بماذا يبدأ .. ثم خطر له أن يعزيها لوفاة والدها ويشجعها ، فقال : « لقد ساءنى يا لمياء ما أصاب أباك الأمير رحمه الله ، ولكننا سنشأر له من ذلك الحائنان .. واعلمى انى غير راجع عنه حتى أذيقه حقه »

فرفعت بصرها اليه وقد ذبلت عيناها وقالت : « عرفت شهامة الحسين من قبل على غير تمعد.. عرفتھا عفوا ، فأنا لا أنسى تلك الأريحية التي أسرنى بها .. لا أنسى قولك تلك الليلة وقد أدركنا ذلك الرجل المثلث وأوشك أن يقع فريسة .. فألقذته وطلبت كتمان أمره » ..

فقطع كلامها قائلاً : « لا أزال أريد كتمان أمره ، دعينا منه.. انما أحب أن أعلم : هل للحسين مكان عندك ؟ » قال ذلك وعيناه تبرقان . فرأها ساكنة ولاحظ دمعتين انحدرتا على خديها . خلصة ، فأحس بنار انتقدت في بدنه ، وهب جسمه كأنك صببت عليه ماء ساخنا .. فندم على سؤاله مخافة أن يكون في غير أوانه ، وهى في حال الحزن على أبيها فابتدرها قائلاً : « أظننى تعجلت في الحديث وأنت في شغل من أمر والدك - رحمه الله - فاصفحنى عن جسارتى »

فمسحت عينيها بمنديل أخرجه من جيبتها وقالت : « انحنى على والدى شديد ، لكن حديثك تعزية كبيرة لقلبى الكسير » وتهدت والتفتت نحو الباب كأنها تحاذر أن يدخل أحد عليهما

فقال الحسين : « هل فى الدنيا أرق عاطفة وأطيب قلبا من هذه الملكة .. انى لا أظن أنها تركتنا وحدنا الا عمدا ، فلا ينبغي أن نضيع هذه الفرصة .. هل أعددت للحسين مكانا فى قلبك ؟ »

- ٤٦ -

تعاهد

فتنهدت ورفعت بصرها اليه، وهى تهم بالكلام، فلم تستطع.. فأطرقت، وتشاغت بمنديلها تطويه بين أناملها وقد تصاعد الدم الى وجنتيها.. فلاحظ ارتباكها، فأراد مداعبتها، فقال: «لم يكن عهدى بلمياء الفارسة الشجاعة انها ترتبك فى حديث مثل هذا. ولكننى أقرأ الجواب فى عينيك.. لم أكن أجهل مغزى نظراتك الى من قبل، ونظراتك الى اليوم.. كنت أشعر انك تساقين الى حبي كرها. لعل قلبك كان مشغولا بسواى.. لا أدرى.. أما الآن فألى أقرأ شيئا آخر فى عينيك. انما أطلب اليك أن تقولى كلمة ونحن منفردان هنا باذن أم الأمراء، وهى لم تخط لنا المكان الا باختيارها.. قولى: هل تجيئنى؟ وانما أسألك ذلك لأننا سنفترق وربما طال فراقنا.. فاذا سمعت منك الكلمة التى أريدها، كانت لى ذخرا فى أثناء الفراق أتعلل بها ريثما نلتقى»

فتنهدت ثانية وتجلدت وقالت: «انك تتحدث عني وتعبر عن أفكارى.. أما لمياء الفارسة الشجاعة كما تقول، انما تكون كذلك فى حومة الوغى، وأما فى هذا الموقف فأنى أسيرة مسكينة. سألتنى سؤالا لا أجيبك عنه الا بعد أن تجيئنى على سؤالى» فاستبشر وقال: «سمعا وطاعة.. انى رهن اشارتك يا حبيبتى» قال ذلك، وقد أخذ منه الهيام مأخذا عظيما..

قالت لمياء: «انى أسألك هل تعاهدنى على التفانى فى مصلحة

المعز لدين الله حتى تنتقم له أو نموت »

فأعجب بتفانيها في حب المعز ، وكيف أنها فضلت التعاهد على نصرته قبل كل شيء فقال : « نعم أعاهدك أن أكون طوع ارادتك في كل شيء وهذا من جملة الأشياء .. انى أحبك يا لمياء وأعجب بخصالك ومروءتك ، كنت أحسبني مؤديا ما يجب على في خدمة أمير المؤمنين ، فلما رأيت ما أنت فيه من الغيرة عليه رأيته مقصرا عاجزا . ها قد أجبتك على سؤالك فأجيبني على سؤالي » ..

قالت لمياء : « وما هو ؟ »

قال الحسين : « هل تحبيني ؟ هل تعاهديني على الحب حتى نلتقي ؟ » ..

قالت لمياء : « نعم ، انى أحبك وهذا يكفى .. أما الثبات في الحب حتى نلتقي فانه متعلق بما نحن آخذون به من نصره أمير المؤمنين .. ونصرته هي واسطة عقدنا ، وقد تعاهدنا على ذلك ويسرني انك أخذت على نفسك الذهاب الى جبل ايكجان لحمل الأموال المدفونة هناك .. ولكن .. » وسكتت وقد ظهرت امارات التفكير في عينها ..

فقال الحسين : « ما بالك؟.. ما الذى خطر لك حتى سكت؟.. أظنك خفت على ما يعترض هذه المهمة من المشاق؟ » قال ذلك ونظر في عينها ، ففهم منها انها تجيب : « نعم » . فقال : « لا تخافى على يا لمياء .. انى لا أهاب الموت ولا سيما بعد أن زودتني بتلك الكلمة الثينة . انها ستكون تعزتي في أشد ضيقي ..

وهى تشجعنى على مواجهة الأهوال .. لا تخافى على من شئ»
فتنهت وقالت : « آه من الحب .. ما أحلاه وأمره ..
الأحباء يبدلون كل مرتخص وغال فى سبيل اللقاء ، أما نحن
فتتعاهد على الفراق ، ولكن خدمة أمير المؤمنين واجبة .. انى
أشعر بفضلته على ، وانى يجب أن أنصره و .. » وسكتت وقد
خطر لها انها تطلب شيئاً آخر غير نصرة أمير المؤمنين.. تطلب
الانتقام من ذلك الحبيب الخائن ، فلم يدرك الحسين مرادها
وانصرف خاطره الى مهمتها فقال لها : « قد غلغت مهمتى الى
فج الخيار لحمل ما فيه من المال .. ولكننى لم أفهم مهمتك »
فتحركت واعتدلت فى مجلسها وقالت : « قد قلت لأمر
المؤمنين انى سأسعى فى استطلاع دُخائل المصريين وأحوالهم ،
وانى سأفعل ذلك بطريقة لا أقولها الآن .. لا تغضب يا حبيبى
إذا لم أصارك بها .. »

فلما سمعها تناديه « حبيبى » اختلج قلبه فى صدره ونسى
ما كان يسأل عنه . ولم يشأ أن يستزيدها ، بل انه تهيّب من
اللاحاح عليها . وكان منذ خاطبها وهو يشعر بسلطان لها عليه
فلم يجسر على تكرار السؤال فقال : « افعلنى ما يدا لك وكفانى
انك ناديتى بلفظ الحب وهذا تذكار سأحفظه .. ربما لا يتاح
لنا الاجتماع فى مثل هذه الفرصة مرة أخرى قبل سفرى .
ولذلك فانى أحب أن لا تنقضى هذه الساعة .. ما ألفت
أم الأمراء وما أكثر فضلها »
قالت لمياء : « ان هذه الساعة مباركة سنذكرها ماحيينا وعسى

أن يكون اجتماعنا الثاني في مصر تحت ظل أمير المؤمنين »

فأعجب بتعبيرها ، وكبر نفسها ، وشدة رغبتها في فتح مصر ، واستهانتها بفتحها وقال : « أرجو أن نوفق الى ذلك يا حبيبتى . انها أمنية تتمناها جميعا وخصوصا أنا ، لأن ذلك الاجتماع سيكون أكيدا لنا لا نخشى بعده فراقا باذن الله .. اذ تكون لمياء حينئذ لى وأنا لها »

فقالت وهى تبسم : « ألا تشعر بارتياح عند تفكيرك في ذلك النصر ، ألا يلذ لك أن تتصور راية المعز تخفق على ضفاف النيل وقد امتد سلطانه الى هناك .. ان نشوة غامرة تتمكننى بمجرد تفكيرى في دخول جيش أمير المؤمنين الى القسطنطينية ، واسمع أهله يؤذنون بحى على خير العمل ، ويصلون على على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول وسائر الأئمة الطاهرين ، ولا بد أن ينصر الله أبناء فاطمة الزهراء فانها بنت الرسول وهم أصحاب الحق في الخلافة ، ولا بد أن يملكوا الدنيا كلها .. » قالت ذلك وقد أشرق جبينها وأبرقت عينها ، كأنها ظفرت بنعمة لم تكن تتوقعها ..

فازداد عجا بمرورها وغيرها ، وودَّ لو كانت أم الأمراء حاضرة لتسمع ما قالته لمياء ، ولكنه عزم على أن ينقله اليها في فرصة أخرى ، فقال : « أحس أنني أخاطب ملاكا هبط من السماء .. وأعد قولك الهاما لا بد من تحقيقه باذن الله »

- ٤٧ -

حضور أم الأمراء

وبينما هما في ذلك ، اذ سمعا خفق نعال في الخارج .. عرفا أنها نعال أم الأمراء .. وسمعاها تخاطب أحد العلما في شأن من شئون القصر .. وهى انما تريد بذلك أن تنبّه الحبيبين الى قدومها قبل دخولها عليهما حتى لا تدخل فجأة . وفى ذلك من دقة الاحساس وسلامة الذوق ما فيه

فاستعدا لاستقبالها .. ثم دخلت وهى تهش لهما ، وبأدبرت الى الاعتذار بأن أمير المؤمنين شغلها فلم تستطع أن تبقى معها .. فقال الحسين : « كم كنت أحب أن تكونى هنا لتسمعى ما قالته لمياء .. أنت تعلمين تعلقى بملوى أمير المؤمنين وأنا صنيعته وعبداه وابن عبده ، لكننى رأيت من تعلق لمياء أضعاف ما أعرف من أحد من الناس »

فضحكت أم الأمراء وقالت : « تعنى تعلقها بك ؟ »

قال الحسين : « كلا .. انما أعنى تعلقها بأمير المؤمنين والتفانى في خدمته حتى لقد اشترطت على أن يكون أول شيء تتعاهد عليه انما هو التفانى في نصرته »

فقال أم الأمراء : « ألم أقل انك لا تجد مثلها في القيروان ولا في المغرب كله ؟ »

فأجاب على الفور : « ولا في مصر أو بغداد .. »
فطلت لمياء ساكنة من الحياء ، فنهض الحسين وودع أم الأمراء

ثم تقدم الى لمياء وقال : « استودعك الله الى أن نلتقى » ومد يده لمصافحتها ..

فمدت يدها ، ونظرت اليه وصافحته ، وهي تقول : « في مصر ان شاء الله »

فوقع قولها وقعا جميلا في أذني أم الأمراء ، وفهمت منه ما يكفي .. فأكبّت عليها ، وضمتها ، وقبلتها ، وقالت : « بارك الله فيك يا ابنتي يا حبيبتى ، لله أنت من فتاة فادرة المثال »

ثم تحول الحسين وهو يقول : « لا أظننى أستطيع مثل هذا الاجتماع قبل سفرى الى فج الأخير ، ومتى عدت فأين أراك ؟ »

فقال لمياء : « فى القسطنطينية .. فى قصر مولاي المعز لدين الله .. على ضفاف النيل ان شاء الله »

فكان لقولها تأثير فى قلب أم الأمراء لما ينطوى عليه من التفاؤل الحسن مع التفانى الصادق .. والتفت اليها ، ثم نظرت الى الحسين وابتمت وهي تقول : « المراد أن تجتمعا وتسعدا معا ، وذلك غاية ما يرجوه أمير المؤمنين »

ثم أومأت الى الحسين مودعة ، فودعها وهم بالخروج وهو ينظر الى لمياء نظرة المحب الولهان ، ولم تكن هى أقل تأثرا منه .. لكن عواطف الغيرة والنقمة هاجت فى نفسها ، فقالت له : « الى أين يا حسين ؟ »

فرجع اليها وقال : « الى فج الأخير .. »

قالت لمياء : « وهل أنت على بينة من مكانه وسائر أحواله ؟ » فبغت من هذا السؤال وأطرق خجلا لأنه كان عازما على أن

يسألها عنه ، فشغل بذلك الحديث ، ثم رفع رأسه وقال : « أعرف قليلا وسأبحث وأسأل .. فهل تزيدني علما ، وهل تعرفينه ؟ » قالت لمياء : « لا أعرفه لأنني لم أصل الى ذلك المكان لكنني أسمع انه في بلد بعيد في أواسط الصحراء من بلاد كتامة . ولا يهتمني بعده ، وانما يهتمني ماهناك من وسائل الدفاع عنه لأنني كثيرا ماسمعت بما اتخذته أصحابه من الطرق لاختفاء الأموال وصيانتها فقطع كلامها قائلا : « لا تبالي يا لمياء بشيء من ذلك .. فان ما رأيته من حماستك وغيرتك ومروءتك يصغر كل كبير ويهون كل صعب .. كوني مطمئنة » ومد يده لمصافحتها وهو يقول : « أعود فأودعك ثانية وأطلب اليك أن تفكري في أحيانا . وهذا يكفيني لنجاح مساعي » ثم ودعها وخرج وهي تقول : « سر في حراسة المولى ، فانه آخذ بيدك في نصره الحق والانتقام من الظالمين » ..

- ٤٨ -

الكتاب

وبعد خروجه أرادت لمياء أن تودع أم الأمراء ، فأمسكتها وأجلستهما فجلست .. وهي تنظر اليها كأنها تستفهم منها عما تريده . فقالت أم الأمراء : « هذا الحسين قد عرفنا وجهته وخطته .. أما أنت ف .. » فقطعت لمياء حديثها رغم ارادتها وقالت : « أستاذك ياسيديتي أن لا تسأليني عن ذلك »

قالت أم الأمراء : « ولماذا هذا التستر ؟ »
 قالت لمياء : « أرى فيه فألاً حسناً . وماذا يهمك اذا عرفت
 خطتي أو وجهتي ؟ وانما يهمك أن آتى مولاي أمير المؤمنين
 بأخبار تلك الدولة »
 قالت أم الأمراء : « ولكن أمرك يهمنى .. وأخشى أن تلقى
 بنفسك فى تهلكة نظراً لما فى مهمتك هذه من الأخطار ، مما يزيد
 على مهمة الحسين »
 قالت لمياء : « لا تخافى ياسيدتى لأن نصير أمير المؤمنين
 سلالة بنت الرسول لابد من أن ينجيه الله وينصره على أعدائه .
 غير أنى أتوسل اليك فى أمر هو واجب فى ذاته »
 قالت أم الأمراء : « قولى ماذا تريدين ؟ »
 قالت لمياء : « ان يعقوب بن كلس اليهودى المقيم بمصر
 أرسل تلك الرسالة المستعجلة الى سيدى المعز لدين الله ، فهو
 صاحب فضل كبير .. أليس كذلك ؟ »
 فحنت أم الأمراء رأسها اذعاناً للحق وقالت : « نعم انه صاحب
 الفضل الأكبر .. ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير »
 فقالت لمياء : « ألا ترين أن يكتب أمير المؤمنين كتاباً يشكره
 فيه حتى يواصل خدماته فى مصلحة هذه الدولة .. »
 قالت أم الأمراء : « صدقت .. وأظنه سوف يفعل ذلك »
 قالت لمياء : « ومع من يرسل الكتاب ؟ »
 ففطنت أم الأمراء لغرض لمياء من هذا السؤال ، فقالت :
 « لا أدرى وأظنه يرسله مع أحد غلمانه فى قافلة أو بطريق آخر . »

وهل يهك هذا الأمر ؟ »

فقالته وهى تحك وراء أذنها : « لا .. لكن .. » وأطرت
فقالته أم الأمراء : « قولى يا لمياء .. ماذا يخطر لك ؟ ..
لا تخفى عنى شيئا »
قالته لمياء : « أريد أن أحدثك فى أمر يهمنى أن يظل سرا ..
هل أفعل ؟ »

قالته أم الأمراء : « افعلى ولا تخافى بعد أن ارتفع حجاب
الهيئة من بيننا ، وأنت بمنزلة ابنتى تماما كما قلت لك مرارا ،
بل لا أرى ابنة أو ابنا يعامل والديه بما تعامليننا به يا لمياء »
قالته ذلك ، وقد ظهر الاهتمام على وجهها ..

فابتسمت لمياء وأبرقت عيناها عند سماع ذلك الإطراء وقالت :
« ان سرتى ياسيدتى يتعلق بالطريق المؤدى الى خدمة أمير
المؤمنين » ..

قالته أم الأمراء : « قولى ياعزيزتى »
قالته لمياء : « أحب أن أكون أنا رسول أمير المؤمنين الى
يعقوب هذا .. ولا أريد أن يطلع سيدى الخليفة على ذلك ،
فهو تدبرين وسيلة لذلك ؟ »

فاستغربت أم الأمراء هذا الطلب بهذه الصورة ، وقالت :
« وما هو غرضك من هذا التكتم ولماذا ؟ »

قالته لمياء : « لعلمى ان السر اذا جاوز الاثنين شاع ، ولولا
حاجتى الى مساعدتك فى الظفر بالكتاب لكتمت هذا عنك .
ولذلك أتوسل اليك بالحاح أن تكتمى خبرى . وقد قلت لأمر

المؤمنين انى سأسعى فى استطلاع حال مصر بطريقة لا أحب أن يعرفها أحد . وكنت أود أن أفعل ذلك بدون أن أكشفك بأمر الكتاب .. فلا تسألينى عن الأسلوب الذى سأأخذه فى البحث .. انما أتوسل اليك أن تستحى سيدى أمير المؤمنين على كتابة الكتاب ، وأن توحى اليه بأنك سترسلينه مع أحد الغلمان ، أو توصى الرسول اذا أخذ الكتاب أن يأتى به اليك أو كما تشائين . والمراد أن تسلمى الى الكتاب ، وتطلقى سبيلى بدون أن يعلم أحد بجهة سفرى »

فضحكت أم الأمراء وقالت : « انى لا أحتاج فيما أطلبه من المعز لدين الله الى حيلة أو وسيلة وسأفعل ذلك اكراما لحظارك .. ولكننى سأشتاق الى رؤيتك ، فقد تعودت جوارك و . . » ودمعت عيناها ..

فأثر ذلك المنظر فى لمياء ، وأحست بشيء يجذبها نحو تلك المرأة .. فلم تتمالك عن الترامى على كتفها ، وقد سبقتها دموع الامتنان .. فضمتها أم الأمراء الى صدرها وقبلتها وقالت لها : « ولكن عسى أن تعودى سالمة ظافرة ، ويعود الحسين أيضا فائزا فتزفان فى هذا القصر ، وتنسى ما قاسيته من الشقاء »

فتجلدت لمياء واعتدلت ، وقد فاضت الحماسة من عينيها ، وقالت : « انما يكون ذلك فى الفسباط باذن الله » فأعجبت أم الأمراء بغيرتها وضحكت ، وضمتها ثانية وودعتها على أن تدبّر أمر الكتاب .. وانصرفت لمياء الى غرفتها وأخذت تفكر فيما هى قادمة عليه

من الأمر العظيم — سفر وخطر وبعد وشوق — لكنها تجلّدت واستحشت شجاعتهما .. وقالت في نفسها : « لا بد لى من الصبر حتى أتقم لوالدى وأثار لنفسى من ذلك الحائن الذى خدعنى وأراد أن يجعلنى ضحية مطامعه »

وسكتت وأطرقت وهى واقفة أمام المرأة تنزع ثيابها . وتصورت ما كان لسالم من المنزلة عندها ، فخفق قلبها وسبق الى ذهنها حسن الظن به فقالت : « قد يكون ابن كلس منافقا أو مخطئا . هل يمكن أن يكون سالم خائنا الى هذا الحد ويخدعنى عدة سنين ؟ لا .. لا .. اذن كيف أفسّر عمله ؟ ولو كان صادقا فى حبّه ليمّ يوافق على الفتك بأبى ؟ .. ولكننى سأتحقق من ذلك بمصر قريبا .. »

وكانت قد فرغت من نزع ثيابها فاستلقت على الفراش للراحة والتأمل .. وأجلّت الحكم على كل شيء الى ما بعد وصولها الى مصر

وبعد بضعة أيام أتمها أم الأمراء بكتاب المعز لدين الله الى يعقوب بن كلس .. فتناولته وودعتها سرا ، وكان وداعا مؤثرا . وكانت لمياء قد أعدت كل ما يلزم للسفر من الخدم والأدلاء ، لأن الطريق من القيروان الى مصر بعيد الشقة لا تقطعه الا القوافل ، وقد أعدت شبه بريد مؤلف من أربعة أفراس مع ما يلزم من الخدم والحرس ، ونظمت ذلك البريد بحيث يبدو كأنه يحمل غلام أمير المؤمنين الى مصر .. ولما أتاها الكتاب تنكرت فى ثوب غلام صقلبي وركبت ، ولم يكن بشك من يراها فى انها غلام الخليفة يحمل رسالة فى مهمة .. وسار الركب قاصدا مصر ..

- ٤٩ -

الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة الديار المصرية ، ومقر الامارة منذ بناها عمرو بن العاص . فلما تولى أحمد بن طولون جعل مقره في القطائع ، كما ذكر في زواية أحمد بن طولون .. ثم ذهبَت الدولة الطولونية وافضت الامارة الى محمد الاخشيد ، فجعل مقره الفسطاط ، فعادت الى رونقها ، وزادت عمارتها ، وتزاحمت الأقدام فيها حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه ، وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد ، و ٨٠٠٠٠ شارع مهتد ، و ١١٧٠ حتماً .. وقد يستبعد ذلك ، ولكن ذكره يدل - في كل حال - على العظمة وال عمران . ومما نظمته الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

أحن الى الفسطاط شوقاً واننى

لأدعو لها أن لا يحل بها القطر

وهل في الحيا من حاجة لجنايبها

وفي كل قطر من جوانبها قطر

تبدت عروسا والمقطم تاجها .

ومن ثيلها عقد كما انتظم الدر

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط أن جعلوا المنازل طبقات

عديدة ، بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع . وربما سكن في

البيت الواحد ٢٠٠ من الناس .. وبلغت نفقات بناء احدى هذه الدور ٧٠٠٠٠٠ دينار ، وهى فى دار الحرم لخمارويه ..

واشتهر من تلك الأبنية دار ضُرب المثل بعظمتها وغنى أهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل ، بلغ من سعته وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبّون فيها أربعمئة راوية ماء كل يوم .. ونقل بعضهم أن الأسطال التى كانت بالطاقة المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة بىكر وأطناب لها ترخى وتملا .. وذكر رجل دَخَلَها فى أواخر القرن الثالث للهجرة فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون قال : « طلبت بها صانعا يخدمنى فلم أجِد فيها صانعا متفرغا لخدمتى .. وقيل لى ان كل صانع معه اثنان يخدمهما وثلاثة ، فسألت كم فيها من صانع فأخبرت ان بها سبعين « كذا » صانعا قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى أو خرج »

وفى ذلك دليل على غنى أهل القسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يكتنى أحدهم ألف فرشة ، أو عشرة آلاف فرشة .. وذكروا أن رجلا من أهل القسطاط كانت عنده ثلاثمئة فرشة كل فرشة لحظية .. وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ، وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لثانهم . قال القضاعى ان قطر الندى ابنة خمارويه كان فى جملة جهازها ألف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير ، فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار .. فإذا كان ذلك شأن القسطاط فى زمن آل طولون ودار الامارة فى القطائع ، فكيف بعد أن عادت دار الامارة اليها فى

عهد الدولة الأخشيديّة ؟

وأشرفت لمياء على مدينة الفسطاط من جهة الشمال الغربى فى صباح يوم صفا جوه .. فوق بصرها على المدينة عن بُعد ، فظفر بأعجابها جامع عمرو فى وسطها وحوله الأبنية الكبيرة ، بينها المآذن العديدة .. ووراءها النيل قد رست فيه السفن فى ميناء الفسطاط من جهة الغرب ، وبانت سواربها مصطفة كالرماح اذا تقلدها صف من الفرسان وقف بنظام . وبين الفسطاط والمقطم البساتين والغياض ، وفيها الأشجار الناضرة وأنواع الرياحين والأزهار .. أجملها بين المقطم والخليج بستان الأخشىد أو البستان الكافورى (فى محل الأزهر والسكة الجديدة من أبنية القاهرة اليوم) والى جنوبى الخليج ناحية المقس ومناخ المهرانى وأرض الطبالة (وهى الأماكن التى نشأت فيها بعد ذلك الفجالة والظاهر والتوفيقية والأزبكية وغيرها) فأخذت لمياء تسأل دليل الركب عما يقع بصرها عليه من البساتين ، وهو يقص عليها .. ثم استوقف بصرها بستان واسع فيه بقعة كال ميدان قد نصبت فيها الخيام فقالت للدليل : « وما هذا البستان ؟ »

قال : « هو بستان الأخشىد ياسيدى »

قالت لمياء : « أراه جميلا .. فلنذهب اليه للراحة ثم نواصل

السير .. »

قال الدليل : « لا يمكننا ذلك الآن .. ولو جئنا فى غير هذا

اليوم ربما استطعنا دخوله »

قالت لمياء : « ولماذا ؟ »

قال الدليل : « ألم تر ياسيدى الخيام المنصوبة في وسطه
وعليها الأعلام ؟ »

قالت لمياء : « بلى وما هي ؟ »

قال الدليل : « هذه سرادقات نصبوها للأمير كافور
الاخشيدي صاحب مصر الآن لأنه منحرف الصحة ، وأشار عليه
طبيبه أن يقيم في الخلاء لعله يستفيد من ذلك »

قالت لمياء : « هل كافور هو أمير مصر الآن ؟ »

قال الدليل : « نعم يامولاي هو أميرنا منذ عامين .. ونعم
الأمير .. »

فسكتت وتحولت الى مرتفع بجانب المقطم يطل على ما تحته
الى النيل .. فأعجبها مارأته من الأبنية التي لم تعهدها في
القيروان ، ولا في غيرها من البلدان التي مرت بها .. وأثار إعجابها
على الخصوص لمعان سطح النيل وراء القسطاط .. ووراء النيل
بساتين الروضة والجيزة ، ووراءها الأهرام تتأطح السحاب . وقد
اكتنف النيل على ضفتيه بساتين النخيل الباسقة تختلط برءوسها
السوارى البارزة عن السفن السابحة في مياه القسطاط ، تحمل
اليها الغلات والسلع وضروب الأنسجة من كل صتغ وبلد ..
فزادت رغبتها في أن تصير هذه البلاد الى المعز لدين الله . وتصورت
الخليفة قد دخلها فاتحا ، ورفع أعلامه فوقها فاخترج قلبها فرحا

الشيعة بمصر

ثم ما لبثت أن عادت الى التفكير في المهمة التي قطعت تلك الصحراء من أجلها ، فكان أولهما أن تبحث عن منزل يعقوب ابن كلس ، ولكنها أمرت صاحب الركب أن يسوق الأفراس الى فندق أو خان كي ينزلوا فيه .. فتوجّه بهم الى فندق قديم يعرف بفندق ابن حرمة بأول سوق العدسيين . وكانوا وهم يمشون في الأسواق لا يلفتون الأنظار لكثرة من كان يدخل السطاط يومئذ من القوافل القادمة ، من الشام ، والعراق ، والمغرب ، والسودان ، وغيرها .. تحمل البضائع والغلال والريش والصنغ والجواري والغلمان على البغال أو الأفراس أو الجمال.. هذا عدا ما ينقل بحرا عن طريق النيل .

وما زالوا سائرين حتى بلغوا الفندق ، فأمرت لمياء صاحب الركب أن يهتم بالأفراس وهو لا يشك في أنها غلام . وبعد الاستراحة قليلا فكرت في السؤال عن بيت يعقوب بن كلس .. فطلبت صاحب الخان الى غرفتها فجاء .. فرجبت به ، وكانت قد بالغت في اكرامه ودفعت اليه أضعاف ما طلبه من الأثمان أو الأجور ، فأصبح طوع ارادتها .. فلما دعتة اليها وقف بين يديها وقد أدهشه جمال ذلك الغلام الصقلي ، وما في عينيه من الذكاء وكان الخاناتي « صاحب الفندق » شيخا لطيف الحديث ، قد عرّكه الدهر ، وشهد تقلب الدول على مصر منذ أواخر دولة

آل طولون . وكان في جملة من شاهدوا الفتك بالطولونيين وكثيرا ما مرء به النزلاء من سائر الطوائف والعناصر من الأتراك ، والأرمن ، والشوام ، والمغاربة ، والشراكسة ، والسودانيين ، وغيرهم ..

وأصحاب الفنادق والحانات والقهوات ونحوها من الأماكن العامة ، أقرب الى اللطف ودماثة الخلق من سائر طبقات العامة .. لأنهم يتعودون الصبر على الضيم وسعة الصدر لاضطرارهم الى مسايرة الناس على اختلاف أهوائهم وطبائعهم .. فيأتيهم السكران والمعربد ، والثقيل ، والبارد ، والمتكبر ، والمحتال ، وهم مضطرون بحكم الارتزاق الى أن يرضوهم كما يرضون سواهم .. فإذا لم يكن لديهم استعداد للقيام بذلك ، هجروا تلك المهمة وعدلوا عنها الى سواها .. وإذا استمروا فيها فإن الحوادث تظل تعركهم ، والتجارب تحنكهم حتى تصير أخلاقهم وطبائعهم فريدة .. لينا ودماثة ..

فكان صاحبنا « صاحب الخان » من هذا القبيل ، فلما رأى لمياء وهو يعتقد انها غلام صقلبي - وأكثر ما كان يأتي الصقلابة يومئذ من جهات المغرب - عرف انها قادمة من بلاد المغرب فضلا عما دله على ذلك من ملابس رفقاءها وكلامهم . فقالت : « يظهر انك في هذا البلد منذ زمان طويل يا عماء .. » قال : « نعم .. أنا ياسيدي هنا منذ زمان طويل » قالت لمياء : « وقد مر بك ألوف من الزائرين من سائر الملل .. أليس كذلك ؟ .. »

قال وهو يمشط لحيته بأظفاله : « نعم ياسيدى .. انى أعرف من أحوال الناس أكثر من شعر هذه اللحية .. » وضحك فارتاحت لمجونه مع شيخوخته ، وهمت بالسؤال عما يفيدها فقالت : « أتعرف رجلا اسمه يعقوب بن كلس ؟ »

فهز رأسه هزة الاعجاب وقال : « كيف لا أعرفه وهو من كبار رجال الدولة وقد رأيته أمس مارا على بعلته .. ويندر بين اليهود من يؤذن له بركوب البغال »

فقالت لمياء : « وكيف أذن له بذلك ؟ .. »

قال صاحب الخان : « لأن كافورا أميرنا فتن بذكائه ومهارته فجعله من خاصته ، وعظمت منزلته عنده حتى أصبح لا يوقع ورقه الا بعد توقيعه »

فاستغربت ذلك وقالت : « أين يقيم الآن ؟ »

قال صاحب الخان : « يقيم فى منزل فخم بجانب زقاق اليهود على مقربة من هذا المكان »

قالت لمياء : « هل ترسل معى من يرشدنى الى منزله ؟ »

فنهض الشيخ وقال : « أنا أسير فى خدمتك الى منزله »

فقالت : « لا حاجة لأن تكلف نفسك المشقة .. ويكفى أن

تدلى عليه هنا »

فمشى وهو يظن انه يكرمها بهذه الخدمة ، وقال : « لا ..

لا .. بل امشى فى خدمتك ياسيدى .. ولهذا المنزل طريقان :

أحدهما قصير ، لكنه ضيق مظلم ، والآخر طويل منير جميل ..

والأحسن أن نسير فى الطريق الطويل » قال ذلك ومشى وهو

يتوكأ على عكازه ..

فأطاعته لمياء ومشت في أثره ، وهى بملابسها الخاصة بعلمان الصقالبة .. وانما اختارت تلك الملابس لأن أصحابها أقرب بوجوههم وأصواتهم الى النساء ، فلا يشك في أمرها من يتوهم في صوتها غثة النساء .. فمشيا في زقاق ينتهى الى رحبة واسعة رأت لمياء فيها الجماهير يتزاحمون ويتراكضون فسألته عن المكان فقال : « هذا جامع عمرو بن العاص ياسيدى »

قالت لمياء : « قد سمعت عنه كثيرا .. وكنت أود أن أصلى فيه ، لكننى سأفعل ذلك في فرصة أخرى »

فقال : « تفضل ياسيدى لأريك الجامع ثم نسير في طريقنا » ومشى أمامها مسرعا وهو ممسك بطرف ثوبها كأنه يجبرها الى هناك ..

ولم يكذ يصل بها الى الباب ، حتى سمعت صوتا أدهشها .. ورأت شيخا واقفا بالباب ينادى : « معاوية خالى » فيرد عليه شيخ آخر فى الجانب الآخر بمثل قوله - وهم يفعلون ذلك نكاية فى الشيعة لأنها تحتقر معاوية - فأحست لمياء عند سماع ذلك بغضب لأنها تجل الشيعة اكراما للمعز وأم الأمراء . وحدثتها نفسها أن تصيح بالشيخين وتسكتهما ، فتذكرت أنها غريبة وليس هذا وقت خصام . وهى تعلم تعصب حكومة مصر وأهل مصر يومئذ ضد الشيعة .. لكنها كانت تسمع ذلك عن بعد ، فلما رآته رأى العين استغربته ، فتحوّلت عن باب الجامع ، وصاحب الخان يتبعها ويقول : « ما بالك ياسيدى لم تدخل



« قالت لمياء لصاحب الخان : هل ترسل معي من يرشني إلى
منزله ؟ . فنهض الشيخ وقال : أنا أسير في خدمتك إلى منزله »

الجامع لتراه على الأقل ؟ »

فقالت لمياء : « سأرجع للصلاة في فرصة أخرى .. ولكن ما بال هذين الشيخين يناديان هذا النداء ؟ »

قال صاحب الحان : « يناديان بذلك اغاظة للشيعة »

قالت لمياء : « ولعلك شيعي ؟ »

فصاح : « استغفر الله .. لماذا تقول لى ذلك يا مولاي كأنك

تريد أن توقعنى في مصيبة ؟ »

قالت لمياء : « ولماذا ؟ .. ألع الشيعي كافر ؟ »

فأشار بسبابته على شفته السفلى ، كأنه يطلب منها أن تسكت

أو يستمهلها في الجواب الى فرصة أخرى

فسكتت حتى اذا دخلا في زقاق منزل ، قال الشيخ : « احذر

ياسيدى. أن تجاهر بأمر الشيعة .. يظهر انك منهم .. »

فقالت : « نعم أنا منهم .. وهل من بأس على ؟ »

قال : « كلا .. ربما هابوا ملابسك وقيافتك .. أما الفقير اذا

كان شيعيا ضربوه وأهانوه . وقد يضربون الكبراء ويسجنونهم

ويهينونهم بلا شفقة »

فلما سمعت ذلك الكلام لم تتمالك أن صاحت : « ويل لهم ..

ألا يخافون الله ؟ ! .. »

فتقدم الشيخ وقال بصوت ضعيف : « انصح لك ياسيدى

أن تغض النظر عما تراه ، ولا تعرض نفسك للاهانة .. »

فقالت لمياء : « أليس في هذا البلد أحد من أهل الشيعة ذو

مقام ؟ »

قال : « بلى ياسيدى .. هنا رجل شريف من سلالة الحسين
اسمه مسلم بن عبيد الله الشيعى ، والناس يهابونه ولا يتعرض له
أحد بسوء (١) ، لكن ما لنا ولهذا فقد دنونا الآن من زقاق
اليهود .. وهذا منزل يعقوب بن كلس »

- ٥١ -

يعقوب بن كلس

تقدم الشيخ الى الباب ، وطرقه بحلقة من الحديد فى وسطه..
فرد عليه البواب ، وقد فتح خوخة الباب وأخرج رأسه منها ،
وهو يقول : « من هذا ؟ »

فقال صاحب الخان : « ضيف يسأل عن المعلم يعقوب »
فأجال البواب نظره فى الطريق فرأى لمياء واقفة بثوب الرجال
فأعجبه هندامها فقال : « تفضل ياسيدى .. ان المعلم فى المنزل »
قال ذلك وفتح الخوخة على مداها ، وتنحى حتى دخلت لمياء
بعد أن أشارت الى صاحب الخان اشارة الوداع وابتمت ..
فمضى صاحب الخان معجبا بلطف ذلك النزيل الكريم ..

أما لمياء فأشار اليها البواب أن تجلس على مقعد فى مندره
عند الباب ، وذهب لينادى يعقوب .. وبعد قليل سمعت صوت
يعقوب يقول لبوابه : « أين الضيف ؟ »

فأجابه : « فى المندرة »

ثم أقبل يعقوب على المندرة ، فوقفت له لمياء فحيّاها بلطف ،

وقال : « مرحبا بالضيف الكريم .. تفضل اجلس » وجلس على كرسى بين يديها وهو ينظر الى نظافة ثوبها ، وهى تنظر الى سحنه ، وتبتسم ملامحه ، فرأته على أبواب الكهولة وقد لبس الجبة والعمامة الصغيرة ، وأرخى سالفه أمام أذنيه . ويظهر من شكل أنفه وحاجبيه انه يهودى .. ولكن الشرر يكاد يتناير من عينيه لفرط ذكائه ، وحدة ذهنه ..

وكان أول شئ تبادر الى ذهنها أن تطلب الخلوة به ، لكنه سبقها الى الكلام قائلا : « من أين الضيف ؟ »

قالت لمياء : « من بلدة بعيدة .. هل تأذن بخلوة ؟ »

قال يعقوب : « نحن فى خلوة »

قالت لمياء : « بل أريد خلوة أبعد عن أبصار الناس

ومسامعهم .. »

فعرف من رنة صوتها انها من بلاد المغرب، وحدثته نفسه لأول وهلة أن يكون لمجىء هذا الصقلبى علاقة بكتابه الى المعز .. وكان ينتظر ورود الجواب اليه كل يوم . فلما طلبت الخلوة نهض ومشى أمامها فى حديقة كبيرة الى مصطبة صعد عليها الى بيت ، ثم دخلا غرفة منزلة منه .. وأوصى يعقوب أن لا يقترب أحد من بابه

وفى تلك الغرفة بساط من السجاد ، ومساند ، ومقاعد ..

فأشار يعقوب الى ضيفه أن يجلس على الوسادة .. وجلس هو بين يديه وعيناه شائعتان ليرى ما وراء هذه الخلوة ، فقالت

لمياء : « انى رسول اليك من الامام المعز لدين الله »

فلما سمع يعقوب اسم الخليفة تأدب فى مقعده مبالغة فى

الاحترام وقال : « مرحبا بك ياسيدي .. كيف حال أمير المؤمنين ؟ كيف صحته ؟ »

قالت لمياء : « ان مولاي أمير المؤمنين بعثني اليك لأحمل شكره لك ، ورضاءه عن رسالتك التي بعثتها اليه .. »

قال يعقوب : « أرجو أن تكون قد أتت بفائدة .. وأنا في قلق لأن رسولي لم يعد بعد »

فقالت لمياء : « ولن يعود لأنه قتل .. ! »

فأجفل وقال : « وكيف وصلت الرسالة الى الخليفة ؟ »

قالت لمياء : « وصلت بمحض المصادفة.. أنا أوصلتها الى أمير المؤمنين وهو على وشك الوقوع في الفخ (وتهددت لأنها تذكرت مقتل والدها) ولكن وصول الرسالة نجّاه وحاشيته من الموت »

فأبرقت أسرة يعقوب لنجاح مهمته ، لما يتوقعه من الارتقاء والتقدم ، على أيدي الفاطميين ، وقال : « وكيف حدث ذلك ؟ .. ألا تقص عليّ الخبر ؟ قل بالله قل »

قالت لمياء : « أحب قبل كل شيء أن أكاشفك بسر آخر

يخصني .. »

قال يعقوب : « تفضل ياسيدي »

قالت لمياء : « أنت تخاطب فتاة لا رجلا »

قال يعقوب : « صحيح ذلك ؟ قد توسمت في هذا الصوت

لطف النساء .. لكنني رأيت في هاتين العينين قوة الرجال ، أما وقد أطلعتني على هذا السر فهل تمين جميلك وتفصحين لي

عن حديث رسولي ، وكيف وصلت الرسالة اليك ؟ »

قالت لمياء : « لذلك حديث طويل سأقصه عليك باختصار ، فيه أشياء كثيرة لا تهمك .. ولكنني سأقولها لك ليقيني باخلاصك ، واعتمادا على غيرتك وشرفك لأستعين بك في بعض الأمور التي تهمني شخصا »

قال يعقوب : « قولي ياسيدتي وثقي اني خزانة أسرار ، واني أبذل كل ما في وسعي للأخذ بيدك في كل ما تريدينه .. » فأخذت تقص عليه خبرها مع سالم تختصرا الى أن غلب أبوها على أمره وصار في حوزة المعز .. وكيف خطبها لابن جوهر ، وما ظهر من كيد أبي حامد حتى أخفق بفضل وصول الرسالة ، وكيف قتل رسوله ، وقتلت هي قاتله .. وانها قادمة لاستطلاع الأحوال وللاتقام لنفسها الى آخر الحديث . وهو مصنع كل الاصغاء ، فلما فرغت من حديثها قال لها : « أنت اذن لمياء المسكينة ؟ » قالت لمياء : « نعم أنا لمياء .. ولكنني لست مسكينة لأنني سأنتقم لنفسي من ذلك الخائن الغادر » قالت ذلك وصرّت على أسنانها ، وظهر الغضب في عينيها .. وأدرك يعقوب انها فتاة ليست كسائر الفتيات ، فقال لها : « كوني على ثقة من اني سأبذل وسعي في بسيل رضاك .. ان أمّة في نساءها فتاة مثلك أخرى بها أن يتسع سلطانها ، وستقيمين هنا وتعرفين كل شيء في مدة قصيرة » قالت لمياء : « بلغني ان في هذا البلد رجالا من الشيعة اسمه مسلم بن عبيد الله .. هل تعرفه ؟ »

قال يعقوب : « انه من أعز أصدقائي وهو الذي حبّب اليّ الأخذ بناصر الشيعة مع اني اسراييلي ، لكنني صرت أعتقد أن

الحق بجانب الامام على »

فهنأت رأسها ، وقالت : « الحق يعملو ولا يعلى عليه .. وسوف يظهر أصحاب الحق أبناء بنت الرسول » قالت ذلك ومدت يدها الى جيبيها وأخرجت لفافة من الحرير أخرجت منها ورقا ملفوفا وقدمته اليه وقالت : « هذا كتاب من أمير المؤمنين اليك » ثم أخرجت حجرا من الماس كبير الحجم ، كان قد ظفر به المعز في إحدى غزواته ، وهو يساوى بضعة آلاف من الدنانير ، وقالت : « وهذا هدية من مولاى الخليفة اليك »

فتناوله وقبله ، وفحص الكتاب وقرأه ، فاذا فيه :

« من المعز لدين الله أمير المؤمنين الى يعقوب بن كلس »
 « ان اخلاصك الصحيح قد تأكد لنا من رسالتك التى وصلتنا فى ابان الحاجة اليها ، فوجب علينا شكرك .. وقد بعثنا اليك هذا الشكر شفاها مع رسولنا حامل هذا الكتاب . وسنذكر لك هذه الأريحية والغيرة الحقيقية فى وقت يكون لك منه نفع صحيح . واذا زدتنا من عنايتك وصدق اخلاصك تضاعف تقديرنا لك .. والله يتولاك بنعمته »

- ٥٢ -

مسلم بن عبيد الله

فلما أتم القراءة قبّل الكتاب ووضع على رأسه ، ثم أعاده الى اللفافة وخبأه فى جيبيه ، فنهضت لمياء .. فأحس يعقوب انها تريد الذهاب للتعرف بمسلم بن عبيد الله الشيعى ، فنهض ومشى بين يديها فقالت : « لعل منزل الشريف بعيد من هنا »

قال : « هو جارنا لا نحتاج في زيارته الا الى خطوات قليلة بعد خروجنا من هذا الزقاق » فاعتنمت فرصة وجودها معه في الطريق ، وقالت : « لم أحادثك بشأن سالم بعد .. » فقال يعقوب : « لا حاجة الى زيادة الايضاح ياسيدتى ، كونى مطمئنة .. »

ولم يسيرا طويلا حتى وصلا الى بيت مسلم المذكور ، فتقدم يعقوب فطرق الباب وخاطب البواب . فلما عرفه فتح له ورحب به .. ودخلت لمياء معه ، ومشى في الحديقة أمامها حتى بلغ خبر قدومه الى مسلم فناداه من الداخل : « ادخل يا معلم »

فأسرع يعقوب اسراع المحتفى بمخاطبه ، وقال : « لست وحدى ياسيدى .. ان معى ضيفا تسر بمشاهدته » فقال مسلم : « تفضل أنت ومن معك »

وكانت لمياء قد صارت على مقربة من باب الغرفة التى فيها مسلم ، فلما وقع بصره عليها ترحح من مكانه كأنه يهم بالنهوض فأسرع يعقوب اليه وأقعده وهو يقول : « لا تقم ياسيدى » فقال مسلم : « أهلا وسهلا بالقادم .. من معك ؟ »

فقال يعقوب : « رسول من أمير المؤمنين المعز لدين الله .. » فقال مسلم : « من أمير المؤمنين المعز لدين الله ؟ » قال ذلك ووقف وهو يقول : « فلماذا منعتنى عن الوقوف ؟ ان كنت لا أقف لرسول صاحب الحق ، فلنم أقف ؟ » وترقرت الدموع فى عينيه فرحا ..

فاكبث لمياء على يده فقبَّلَتْها وهى تقول : « العفو ياسيدى

هذا اكرام لا أستحقه »

فقال مسلم : « بل يجب على أن أقف اكراما لابن عمنا صاحب القيروان .. ولقد طالما تمنيت أن أحظى بهذا اللقاء .. كيف فارقت أمير المؤمنين ؟ » وجلس وهو يشير اليها بالجلوس ، فجلست متأدبة وقالت : « فارقتة وهو بخير وسلامة .. ان قلبي يفيض سرورا بهذه المقابلة في هذا البلد البعيد »

وأشار مسلم الى يعقوب ، فجلس وهو يقول : « وأزيدك غلما ياسيدي ان هذا الرسول فتاة تتفانى في نصره أمير المؤمنين . وقد كانت السبب في حفظ حياته من كيد الكائدين .. » فقال مسلم : « وكيف ذلك يا يعقوب ؟ »

قال يعقوب : « ألا تذكر ياسيدي ما قصصته عليك عن المكيدة التي دبرها بعض الخونة للفتك بابن عمك .. حفظه الله ؟ »

قال مسلم : « بلى وعلمت انك بعثت رسولا يحذرك من ذلك .. » قال يعقوب : « نعم ، ولكن الرسول قتل قبل وصوله الى القيروان ، فأتيح لهذه الباسلة أن تأخذ الرسالة وتوصلها الى صاحبها .. ولو تأخرت لحظة لنجحت حيلة أولئك الخونة » وقص عليه الخبر باختصار

فلما علم بما تكنه جوارح لمياء من الغيرة على الشيعة ، وعن غرضها من القدوم الى مصر ، قال : « بارك الله فيك يا بنيّة .. كيف فارقت أمير المؤمنين ؟ »

فطمأنته وأخبرته بما أوتيته من النصر .. وما ترجوه من تغلبه وفوزه . فأبرقت أسرته وقال : « الحمد لله الذي نصر قومه

وتوسل اليه تعالى أن يتم فضله علينا وينقذنا من القوم

الظالمين .. ألم يعزم الامام على القدوم الينا ؟ »

قالت لمياء : « انه فاعل باذن الله .. وانما جئت لأستطلع

الأحوال ، وأرى حال الشيعة في هذه البلاد »

فتتهد تنهدا عميقا وقال : « ان شيعتنا في ضنك شديد .. ان

هؤلاء الظالمين يسومونهم مر العذاب من الاهانة والضرب

والحبس ، بسبب وبغير سبب .. »

قالت لمياء : « قد تفتّر قلبي لما شاهدته من ذلك في هذا

الصباح وأنا قادمة الى منزل المعلم يعقوب .. رأيت شيخين

جالسين بباب المسجد يصيحان : « معاوية خالي » يقولان ذلك

بكل وقاحة .. »

فقال مسلم : « انك لم ترى شيئا بعد يا بنية .. ان شيعتنا

مغلوبون على أمرهم ، يذوقون العذاب ألوانا من الحبس والقتل»

فقالت لمياء : « الحبس والقتل ؟ .. ولماذا ؟ »

قال مسلم : « بغير سبب .. انهم يسومون شيعتنا العذاب

لأنها تجلّ أبناء الرسول .. ولو قصصت عليك جانبنا من الحقيقة

لبكيت لحالنا .. »

قالت لمياء : « أحب أن أعرف شيئا أقله الى مولاي أمير

المؤمنين .. لعله يجعل خطواته لاقادهم »

قال مسلم : « أذكر لك مثالا صغيرا من مظالمهم .. كان في

القساط منذ سنوات رجل من الشيعة اسمه ابن أبي الليث

الملطي بلغ خبره الى صاحب مصر .. فبعث في طلبه ، فحملوه اليه

فأمر بضربه فضربوه مائتي سوط .. ووضعوا في عنقه غلا ثقيلًا وجبسوه وجعلوا ييصقون في وجهه وهو في السجن ، حتى مات رحمه الله» قال ذلك وغصّ بريقه.. فلم تتمالك لمياء عن البكاء .. فاستأنف مسلم الحديث ، بعد أن بلغ ريقه ، قائلاً : « لم يكتفوا بموته .. فبعد أن دفنوه نهضت جماعة ممن لا خلاق لهم وهشّوا بنش قبره (١) .. هل سمعت بأفطع من ذلك ؟.. هذا مثال صغير مما قاساه الشيعة في هذا البلد .. وفاهيك بما نسمعه بأذاننا من الاهانات والنكيات ، فانهم يتعرضون للمارة فيطلبون من أحدهم أن يقول : « معاوية خالي » أو : « معاوية خال على » فإذا لم يقل أهانوه أو قتلوه »

- ٥٣ -

القلق

كانت لمياء تسمع ذلك القول ، وبدنها يقشعر ، وعيناها تذرفان الدموع ، ومسلم يعض بريقه من فرط التأثر ، ويعقوب يظهر التألم مما يسمعه .. ثم تصدت للكلام ، وقد أبرقت عيناها من التفكير وقالت : « لا تحزن ياسيدي .. فقد دنا الوقت لاتخاذ هذه الشيعة المظلومة .. ان الله مع الصابرين » فتنهّد الشريف مسلم ، وقال : « لقد طال صبرنا يا نبيلة .. ولا أحسب أننا سوف نصل الى ثماره .. كأنه قد كتب علينا الاضطهاد ، وكتب على الخلافة أن تبقى في غير أهلها لحكمة لا نفهمها »

(١) القريزي ٢٤٠ - الجزء الثاني

فقلت لمياء : « أليست الخلافة الآن في بيت الرسول بالقيروان ، انها ستبقى فيهم مدى الزمان .. قد كتب لهم النصر ولا يمضى كثير حتى ترى أعلامهم تخفق على سائر البلدان بأذن الله » ..

وكانت لمياء تتكلم ، ومحياها يشرق سرورا ، كأنها تقول ما تقوله عن ثقة .. فأعجب الشريف بما بدا من حماسها ، وقال : « ان وجود مثلك بين أنصارنا يبشرنى بنفوز عظيم »

قالت لمياء : « أنا مسكينة حقيرة .. انما الأنصار هم القواد والأمرء ، وفيهم جوهر الصقلى الذى دوعُ المغرب بسيف العبيدين .. ان ذلك الفتح سيكون على يده وأيدي الأمرء من كتامة ، وصنهاجة ، وغيرهم من البربر الذين باعوا أنفسهم في سبيل الحق » ثم اعترض تيار تفكيرها صورة أبى حامد وسالم ، وما كان من كيدهما حتى قتل أبوها ، فانقبضت نفسها وسكتت وهى مطرقة تفكر في سالم وانها تحب أن تطلع على حقيقة حاله ، وتود أن تسمع عن خيائه بأذنها .. وأدركت انه لا يستحسن ذكره بين يدي الشريف ، فرأت أن تستأذن في الانصراف حتى تخلو بيعقوب وتطلب منه ذلك .. فترحزحت وأظهرت انها تحب أن تصرف ، فاستوقفها الشريف قائلا : « الى أين يا ابنتى ؟ .. انك ستقيمين عندنا بين أهلنا على الرحب والسعة »

فقطعت كلامه قائلة : « كان يحسن بى ذلك ، وهو شرف كبير لى ، ولكننى لأسباب قهرية لا أستطيع أن أقيم هنا .. وأتوسل اليك بجذك سبط الرسول أن تكتم أمرى عن كل انسان ..

حتى عن أهلك ، فهل تعدنى بذلك ؟ »
قال مسلم : « نعم .. كوني مطمئنة . والآن الى أين تذهبين ؟ »
قالت لمياء : « انى سائرة مع المعلم يعقوب .. وسأذهب الى
الحان أو غيره كما يتفق ، ولا غنى عنك فى كل حال .. فإذا بدت
لنا حاجة أسرعنا اليك ، فادع لنا الآن .. »
فقال مسلم : « فى حراسة المولى . ومهما يخطر لك من أمر
فانك تجديننى مليا مطيعا .. ولا حاجة بى الى أن أوصيك
بالتكتم لأننى رأيت من حزمك وتعللك ما يضمن ذلك »
ثم قبلت لمياء يده ، وخرجت وخرج أيضا يعقوب .. ولما
صارا خارجا قال يعقوب : « الى أين يا لمياء الآن ؟ »
قالت لمياء : « قد استأنست بك ياسيدى .. ولعل السبب
فى ذلك ، انك اطلعت على جانب من حياتى الخاصة قبل أن
تقابل » وتنهدت وسكتت ..

— ٥٤ —

يعقوب وكافور

وقد أدرك يعقوب انها تعنى صلتها بسالم .. وكان يعقوب
قد أخلص النية للمياء ، لأنها وقعت من نفسه موقعا عظيما ،
وأعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها ، وهو شريكها فى
غرضها السياسى .. فقد كان يرى ابدال الدولة الاخشيديّة
بالفاطمية ، ليس جبا فى الشيعة أو انتصارا للحق .. لكنه كان
ذا مقام عند كافور ، وكان يتوقع حدوث انقلاب ولاسيما بعد

مرض كافور .. وقد أسرَّ اليه الطبيب بأن كافورا سيموت قريباً . وهو يعلم تغير قلوب الاخشيدية واضطراب أحوالهم . فرأى أن يصادق الفاطميين فيمسك الحبل من الطرفين . ونظراً لثروته ووجاهته كان يخشى مطامع الاخشيديين ، وهو يرى قرب زوال دولتهم نتيجة ضعفهم .. فلم ير بأساً من أن يكون وسيلة لنقل هذا الوادي الى دولة جديدة فتية ، فاذا جرى ذلك على يده أتمته المنافع من وجوه كثيرة

وكان عدوه اللدود في ذلك الحين ابن الفرات الوزير .. وكان يعقوب يخشاه على الخصوص اذا مات كافور ، لأنه كان يحسده على منزلته عند كافور وينافسه على النفوذ . أما كافور وهو أمير مصر ، فكان يقرب يعقوب ويكرمه ، وقد جعله موضع ثقته .. فلما أشارت لمياء الى أمر سالم ورغبتها في استطلاع حقيقته رأى أن يسهل عليها ذلك ، وأن يطلعها على دوائر الظروف السياسية وأحزابها ، فقال : « أظن أنك تعنين أمر ذلك الخائن » وأدركت أنه يعنى سالماً فأجفلت .. ولم تطق أن تسمع تلقينه بهذا اللقب مع انها حكمت عليه بالخيانة من تلقاء نفسها . لكن ما رسخ في قلبها من حبه ، كان ما يزال له صدى في خاطرها ريثما تتحقق من الأمر ، فقالت : « اسمح لى ياسيدى أن أعترض على ما ذكرته عن سالم فانه يشق على أن أسمعه وان كان صحيحاً .. وزد على ذلك انى لم أتحقق منه بعد »

فقال يعقوب : « أما أنا فقد تحققت منه ، كما ذكرت في كتابى الى المعز لدين الله »

قالت لمياء : « أليس من سبيل الى التحقق من ذلك بنفسى ؟ »
 وكانا قد خرجا من الزقاق واقتربا من منزله ، وسمعا المؤذن
 فى جامع عمرو يؤذن لصلاة الظهر . فقال يعقوب : « هذا وقت
 الغداء .. فلندخل الى منزلنا نتغدى ، ثم ننظر فى هذا الأمر »

فدخل منزله وهى فى أثره . فأمر غلامه أن يهيب المائدة فى
 المندرة ، ولم يحضر معها أحد من أهل يعقوب - ذلك ما
 أرادته لمياء - وبعد الغداء جلسا وكل منهما يفكر فى أمره ،
 ويعقوب يدبر وسيلة لاجابة طلبها . وبينما هما فى ذلك اذ طرق

الباب وأتى الخادم يقول : « الطيب شالوم بالباب »
 فلما سمع اسمه أبرقت أسرته كأنه كان فى ضيق وأفرج عنه
 وقال للخادم : « أدخله الى ردهة الاستقبال ريثما آتى »

وبعد خروج الخادم قال يعقوب للمياء : « تعبت وأنا أفكر فى
 وسيلة لاجابة طلبك بحيث أريك خيانة الرجل .. فأتى هذا
 الطيب .. ففتح باب الفرج »

قالت لمياء : « من هو ؟ »

قال يعقوب : « هو طيب الأمير كافور يتردد عليه كثيرا ،
 ولا سيما فى هذه الأيام بسبب انحراف صحته .. ولكافور ثقة
 فى علمه وطبه .. وكانا صديقين قبل أن يصير هذا العبد أميرا »
 قالت لمياء : « أى عبد تعنى ؟ .. »

قال يعقوب : « « أعنى كافورا ، ألا تعلمين انه عبد !.. فلا بد
 اذن من أن أقص عليك خبره ليتيسر لك تفهيم أحواله . اعلمى
 يا بنية ان كافورا هذا كان فى شبابه عبدا لأحد أهالى مصر ..

ثم اشتراه محمد بن طنج الاخشيد مؤسس هذه الدولة منذ بضع وأربعين سنة ، فخدم عنده وترقى في خدمته حتى صار «أتابك» ولديه .. أى مرييا لهما . وصار يعرف بالأستاذ كافور . وتمكنت قدم الاخشيد بمصر وصار أميراً مستقلاً تحت رعاية الدولة العباسية — كما هى حالنا الآن — وتقدم كافور معه . وتوفى محمد الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ ، فخلفه ابنه الأكبر أنوجور ومعناه بالعربي « محمود » فزاد نفوذ كافور في الدولة لأنه كان مرييا لأنوجور ، فصار وزيراً له ، فقام بتدبير دولته أحسن قيام . ولما توفى أنوجور سنة ٣٤٩ تولى بعده أخوه على بن الاخشيد ، فاستمر كافور على وزارته أو نيابته حتى توفى سنة ٣٥٥ هـ ، فلم ير بين الاخشيديين من يليق بالحكم .

ثم خفّض صوته ، وقال : « ولعله طمع في الاستقلال فاختال في اظهار خلعة قال انها جاءت من العراق .. وهى شارة الولاية عندهم يرسلها الخليفة العباسي لكل والجديد ، فيلبسها في احتفال شائق .. وزعم انه لقب بأبى المسك ، فاستبد بأموار الدولة ، واستوزر رجلاً فظناً اسمه أبو الفضل جعفر بن الفرات ، وهو وزيره الآن ، ولولا ابن الفرات هذا لكان كافور من أحسن الأمراء »
فأعجبها ما سمعته عن أصل هذه الدولة ، ومن هو كافور لكنها ظلت ترغب في أن تستزيد من خبره ، فقالت : « قلت ان كافورا كان عبداً ، وهل تعنى انه كان أسود اللون أو هو مملوك أبيض ؟ »

فقال يعقوب : « هو عبد أسود اللون شديد السواد .. لكن

سواده لم يمنع من خضوع القوم له وان لم يخضعوا جميعا. لقد طال بنا الكلام ، والطبيب شالوم في انتظارنا .. لكن لا بأس من اتمام الحديث باختصار، اذ ربما لا تتمكن من ذلك في حضوره » قال ذلك ونهض فنهضت لمياء معه ، فأتم حديثه وهما واقفان فقال : « اعلمي يا لمياء ان أمراء هذه المملكة وجندها الآن قسمان : قسم مع كافور ينصرونه يأخذون بيده ويقال لهم الكافورية.. وقسم مع آل الاخشيد، ويعدون كافورا مختلسا، ويقال لهم الاخشيدية وهم كثيرون . والنقطة الهامة اليوم ان كافورا مريض ولا ندرى هل مرضه خطر أم لا.. فاذا انتهى هذا المرض بالموت فان أحوال مصر سوف تضطرب وتسوء .. اذ ليس من يتولى الامارة من أصحاب الحق بعده الا غلام لا يتجاوز عمره ١١ سنة .. وسنعرف أحوال كافور وصحته من الطبيب شالوم .. هيا بنا اليه »

قال ذلك ومشى ، فمشت لمياء معه وهى تفكر فيما سمعته عن اضطراب أحوال هذه الدولة ، وقد استبشرت بنجاح مهمتها

— ٥٥ —

الطبيب شالوم

وأطلا على الطبيب شالوم في ردهة الاستقبال .. فتقدم يعقوب مسرعا نحوه ولمياء وراءه تمشى الهوينى لتبقى بعيدة ريثما يدغوها .. لكنها جعلت تنفرس في الطبيب عن بعد فاذا هو كهل ، والذكاء يتدفق من عينيه ، وعليه زى الأطباء في ذلك العصر ، وملابسه ثمينة لتقربه من أمير البلاد وحظوته عنده .

وحول خصره منطقة مذهبة فيها دواة من عاج ، وقد التحف رداء كالعباءة من حرير عنابي اللون ، وعلى رأسه كساء كالقبعة أو الطاقية عليها طراز مزركش .. وقد أرسل لحيته وسالفه بغير نظام ، كما كان يفعل كبراء اليهود ..

وكان شالوم جالسا على وسادة في صدر القاعة ، وفي يده كتاب يطلع فيه باهتمام .. فلما سمع خطوات يعقوب ، نهض وحيّاه ، وابتسم له - والاهتمام باد في عينيه - فدعاه يعقوب للجلوس وهو يقول : « مالي أرى حبيبنا شالوم في شاغل ؟ .. ما هذا الكتاب ؟ .. »

وقبل أن يجيبه شالوم ، لمح لمياء بملابس الغلمان في الحديقة واقفة تتلمهى بقطف الزهور ، وكان يعرف غلمان يعقوب فاستغرب أمرها .. وفطن يعقوب لدهشته ، فابتدره قائلاً : « هذا غلام صقلبي جاءني برسالة في هذا الصباح »

قال شالوم : « من أين ؟ .. يظهر لى من زيته انه من بلاد المغرب ، فهل أذاك برسالة من صاحبك المعز ؟ »

فعض يعقوب على شفته السفلى إشارة التكتّم وقال : « صاحبي ! وهل تعتقد ذلك في ؟ وأنا في خدمة الأمير كافور . ما لنا ولهذا ؟ .. قل لى .. رأيتك تقرأ في هذا الكتاب باهتمام . اجلس .. قل ما هو سبب اهتمامك ؟ كيف صحة مولانا ؟ » فجلس شالوم وجلس يعقوب بين يديه ، فقال الطبيب : « ان صحة الأمير في خطر ، وقد أعتنى الحيل في علاجه .. وهذا كتاب جاءني أمس ، ألّفه طبيب من أشهر أطباء العراق .. »

فقطع يعقوب كلامه قائلاً : « أظنك تعنى الرازى .. فهل هذا كتابه الحاوى ؟ »

قال الطبيب شالوم : « هو جزء منه يتعلق بالعدة التى يشكو الأمير منها »

قال يعقوب : « هل وجدت شيئاً جديداً ؟ »

فأومأ برأسه الى أعلى ، وهو يقول : « لا »

فقال يعقوب : « فأنت اذن يئست من شفاء الأمير ! »

قال الطبيب : « تقريباً »

فأطرق يعقوب وظهر الاقتباس على جبينه.. وعرف الطبيب سبب اقتباسه فقال له : « انت الآن تفكر فيما سيصير اليه أمرك اذا مات هذا الرجل . كم قلت لك أن تسير الوزير ابن الفرات وتداجيه فانه شديد الوطأة حسود ، وله مطمع لا يخفى عليك »

فتهمد يعقوب وقال : « انه لا يداجى .. ولا فائدة من مداجاته لأن الحسد يعمى ويصم » وأطرق وهو يفكر .. ثم قال : « لن أبالى به .. ان الأمر لن يطول فى يده ، بل أنا لا أرى ان مصر سيطول أمرها فى قبضة هذه الدولة و . . . » وتوقف عن الكلام بغتة ..

فلم يفت الطبيب ما جال فى خاطره فقال : « لماذا تداجينى يا يعقوب ! ونحن قد شربنا معا ومصالحتنا فى هذا الأمر مشتركة. حين قلت عن المعز انه صاحبك غضبت.. لا ينبغى لنا أن تداجى ، وهؤلاء القوم وان قدمونا وأكرمونا فانهم يكرهونا ، ولولا حاجة هذا الأمير الأسود الى طبى لما هش لى ولا كلمنى . وأنت

مع طول عشرتك له ، منذ أن توليت عمارة داره وأنت شاب حتى صرت ملازما لبابه ، ثم أجلسك في ديوانه الخاص وصرت تخدمه وتتولى أعمال الحسابات وتقوم بمعاوته في كل شيء .. فانه لا يجبك ، وانما هو في حاجة الى عقلك وتديرك .. هل غررك انك كلما دخلت أو خرجت وقف لك الحجاب والأشراف ؟ انه انما يأمر بذلك لأنك خدمت مصلحته باخلاص وغيره ، ولم تطلب منه مالا .. وأنا أعلم الناس بالمال الذي رددته اليه ، ولم تأخذ منه الا القوت .. فأنت الآن موضع ثقته ، لا يمضي دينار ولا درهم الا بتوقيعك (١) ومع ذلك هل تظنه يجبك ؟ انه لا يستطيع أن يجبك ولا أن يجنبى .. لا أقول ذلك لأنك لا تعرفه ، بل أنا على يقين انك أعلم به منى .. ولكنى قلته لأسهل عليك التصريح لى بما تحاول كتماناه عنى وأنا أتوسمه فيك ..

وكان يعقوب يسمع كلامه ويعتقد في صحة كل كلمة منه .. ويعلم ان ميله الى الفاطميين ، لم يخف على صديقه الطبيب ، وهو لم يفعل ذلك ليغدر بمولاه كافور ، ولكنه توسم قرب سقوط هذه الدولة.. ويعلم ان ابن القرات يكرهه حسداً منه لتقدمه ، وأنه حين يموت كافور يصبح هو في خطر على ماله وحياته لذلك أحب أن يصل حبله بحبل الفاطميين مع البقاء على ولاء كافور، لكنه كان يشق عليه أن يصرح بذلك بين يدي أحد.. فلما سمع تصريح الطبيب شالوم هان عليه الدخول في الموضوع ، فقال يعقوب : « أراك يا صاحبي سييء الظن بهذا الرجل كثيرا »

قال شالوم : « كلا ، أنا لا أسيء الظن به خاصة ، لكننى لا أرى شيئا يجمعنى به غير المصلحة وأرى أسباب التفرق كثيرة . فنحن الآن لا ينبغي لنا أن نخون هذا الأمير أو نقصّر فى خدمته لكننى أخشى على حياتنا بعده .. أليس كذلك يا معلم ؟ .. قل .. لا تخف ، انى أسر اليك بأشياء كثيرة .. ومع ذلك لا يهمنى أصرّحت أم لم تصرح . فأنت صديق المعز لدين الله الفاطمى ، وهذا الغلام رسوله اليك فى شأن يتعلق بالدولة . اصدقنى لعلّى أستطيع خدمتك »

فلم ير يعقوب بدا من الكلام ، وهو يثق بصديقه ، فقال : « أنظر يا صاحبي شالوم .. لا تظن أن تأخرى عن التصريح لك نتيجة ضعف قسى بك ، فأنت تعلم ما بيننا من الأسرار القديمة والجديدة .. ولكننى مضطرب الرأى فى الأمر .. ان هذا الغلام رسول من المعز ، نعم .. ولكن كن على يقين انى لم أصاحب المعز لأخون كافورا ، فانى خادمه مقيم على ولائه مادام حيا . وأما اذا مات فانى أخشى خلفاءه كبيرهم وصغيرهم .. بل أخاف منهم على مصر وأهلها ، انهم لا يصلحون للحكم لما تعلمه من اتقسامهم واضطراب أحوالهم .. فلا بد من خروج هذه البلاد من أيديهم . واذا لم يكن بد من خروجها ، فمن تراه أولى بها ؟ .. ان القوم فى بغداد مشغولون بأنفسهم .. ان بغداد مسقط رأسى وأنا أحبها كثيرا ، لكننى أراها بعيدة عن مصلحة مصر .. وهؤلاء الفاطميون دولة جديدة رشيدة كثيرا ماسمعت عن حكمة خلفائهم وعدلهم .. فاذا تولوها كان ذلك من أسباب سعادتها »

ثم تدارك ما قاله بلهفة قائلا : « أما اذا اتفق الاخشيديون وولوا من يصلح للولاية ، ولم يؤذونا في أموالنا وأرواحنا فمن ضعف الرأى أن نستبدلهم بسواهم .. ألا توافقنى على ذلك ؟ » فأبرقت أسرة الطبيب شالوم من سماع ذلك الكلام لأنه لسان حاله تماما ، فابتسم وقال : « بارك الله فيك يا معلم ، لقد نطقت بلسانى وعبرت عن جنائى . نحن متفقان و . . . » فقطع كلامه قائلا : « لم أشاهد الأمير كافورا منذ أمس لأننى شغلت عن الذهاب اليه لسبب سأقصه عليك .. كيف هو اليوم ؟ كيف حاله ؟ »

قال وهو يرفع حاجبيه : « انه ليس على ما يرام .. كانت الحمى شديدة عليه فى هذا الصباح .. وكنت أتوقع هبوطها ، فلم تهبط رغم ما اتخذته من الوسائل المربطة . ولما أعيتنى الحيلة رجعت الى كتاب الرازى وأخذت أطلع فيه . وخطر لى ما أتوقعه من تبدل الأحوال فرأيت أن آتى اليك ، فحملت الكتاب معى ولم أكلف غلامى حمله فى جملة ما يحمله من الأدوات والعقاقير »

- ٥٦ -

غلام الطبيب

فلما ذكر الطبيب غلامه ، فطن يعقوب لأمر يتعلق بلمياء ، فالتفت نحوها فرآها تتمشى فى الحديقة كأنها تتشغل بمشاهدة الرياحين والمياه الجارية فى القنوات ، وبينها الحصى مرصوفة صقوفا .. وهناك عدد كبير من الطيور بألوانها الزاهية بين سارح

وحيس ، ولا نظن أن لمياء كانت ترى ما بين يديها كما يراه
المتفرج لاشتغال خاطرها بسالم ، والطريقة المؤدية الى لقاءه
ثم التفت يعقوب الى الطبيب وقال له : « لقد ذكرتني أمرا
أتوسل اليك في قضائه .. هل ترى هذا الغلام ؟ »
قال الطبيب : « نعم أراه .. أليس هذا هو الرسول الذي
تتكلم عنه ؟ »

قال يعقوب : « بلى .. وأحب أن أكلفك أمرا يتعلق به ،
هل تقضيه ؟ »
قال الطبيب : « جبا وكرامة .. ما هو ؟ »

فقال يعقوب : « هل تعرف ذلك البربرى الذى يتردد على
مجلس الأمير ؟ »

قال الطبيب : « أظنك تعنى الرجل غريب الأطوار صاحب
العينين البراقنتين الغائرتين ، والأنف الأعقف ، والشارب
المسترسل ؟ »

قال يعقوب : « نعم أعنيه... وأعنى شابا يرافقه فى أكثر
الأحيان »

قال الطبيب : « هو ابنه أو ابن أخيه سالم على ما أظن .. نعم
عرفهما .. وهما يترددان على الأمير كثيرا كما تعلم ، وأنا
أستغرب أمرهما ولا أعلم لهما محلا سوى .. »
فقطع يعقوب كلامه قائلا : « أنا أعلم انهما يحرضان أميرنا
على فتح القيروان »

فدهش الطبيب وقال : « أين نحن والقيروان ؟ .. ألا

يكفيننا ما يشغلنا من أنفسنا ؟ .. ما الذى تريده منى ؟ »
قال يعقوب : « ان هذا الغلام يريد أن يحضر مجلس كافور
ويسمع ما يدور فيه ، وخاصة أثناء وجود سالم وعمه .. ولكى
لا أخفى عنك شيئا ، أخبرك ان هذا الرسول ليس غلاما وانما
هو فتاة بملايس الغلمان - احفظ ذلك سرا - ولها شأن خاص
مع سالم هذا .. وقد بلغها عنه أقوال قالها لكافور لم تصدقها ،
فأجبت أن تسمعها بأذنيها .. فالذى أراه أن تأخذها معك بدل
غلامك الذى يحمل لك الأدوات والعقاقير ، وتجتهد فى أن
تدخلها معك دار الأمير »

فاستغرب شالوم كونها فتاة وقال : « لابد لهذه الفتاة من
حديث هام وقد تأقت نفسى لرؤيتها ، ادعها وقدمها لى وأوصها
أن تثق بى .. وسوف أخبرها عما ينبغى أن تعمل ليتم لها ماتريده »
فحوّل يعقوب بصره نحوها .. فانتبهت لمياء ، فأشار إليها
بالقدوم ، فأسرت وقد توردت وجنتاها فظهرت الأنوثة فيها .
ولكن القوة كانت بادية فى وجهها وسائر حركاتها .. فأعجب
الطبيب بهيئتها وجمالها وبريق عينيها . فلما دخلت قال يعقوب :
« هذا الطبيب شالوم طيب مولانا الأمير كافور .. وهو صديق
حميم أثق به كثيرا ، وقد أطلعته على ماتهدفين اليه ، واتفقنا على
طريقة تحضرين بها مجلس كافور حتى تشهدى كل مايدور هناك »
وضحك ..

فأدركت من مخاطبته اياها بصيغة التأنيث ، أن الطبيب مطلع
على حقيقة أمرها ، فظهرت البغته فى عينيها وأطرقت .. فابتدورها

يعقوب قائلاً : « لاتفعل يابنية من اطلاق الطيب على حقيقتك فانه على رأيي من كل وجه .. والمطلوب الآن أن تكوني هنا بعد قليل ، وسيأتيك ثياب خاصة ، تتكرين بها .. فلا يظن من يراك الا انك غلام الطيب شالوم ، وتمكثين هنا حتى يأتي هوفتذهين معه في أصيل هذا اليوم ، وأكون أنا قد سبقتكما الى هناك .. ولا بد لي من الذهاب حالا لأنني أطلت الغياب عن المجلس .. وانما شغلني عنه تدبير أمرك ، فامكثي هنا ريثما تأتي الثياب وتلبسينها ، وسأوصي قيمة المنزل بك خيرا ، وكل ما تطليينه يقضى »

فلم يسعها الا السكوت .. وقد شغل خاطرها بهذه المهمة بما فيها من التجسس وهو يخالف ما فطرت عليه من استقلال الفكر وحرية القول . ولكنها تحمّلت ذلك في سبيل كشف حقيقة ذلك الرجل الذي خانها في غواطفها ..

ثم نهض الطيب وودعها وانصرف على أن يبعث بالثوب والأدوات والعقاقير .. وودعها يعقوب بعد أن لبس الثوب الذي يتردد به على الأمير عادة .. ومضى اليه

وبعد قليل أتت تلك الأشياء ، فلبست لمياء ثوب غلام الطيب ، كما كانت العادة يومئذ .. وعلقت جرابا من الديباج في عنقها وفيه أدوات الجراحة وبعض العقاقير الضرورية . فأصبح من يراها لا يشك في انها غلام الطيب شالوم ، فمكثت في انتظاره ، وكانت الشمس قد مالت نحو الأصيل ، وكافور في سرادقه في البستان الكافوري كما تقدم

- ٥٧ -

سراخ كافور

ثم جاء الطبيب على بغلته ، وأوماً الى لواء أن تتبعه على بغلة
ساقها اليها .. فركبت وقد علقت الجراب في عنقها ، ولم يمض
وقت طويل حتى أشرفا على البستان الاخشيدي وفيه السراقات
والاعلام ، وقد وقف الحجاب ببابه ، والجند حول السراقات بين
ماش وواقف .. ولم يدن الطبيب من باب البستان حتى تصدئ
له كبير الحجاب بلهفة وقال : « ان الأمير في انتظارك على أحر
من الجمر .. »

فقال الطبيب : « كيف هو الآن ؟ »

فهز الحجاب كتفيه ، وقال : « يقولون انه أحسن »
فارتاب الطبيب في هذه الإشارة ، لكنه ترجل وأشار الى غلامه
« لواء » أن ترجل وتبعه ، ففعلت ومشيت وهي ترقب كل شيء .
فأرت الوجوه متغيرة والقوم هناك يجتمعون زرافات كأنهم
يتساءلون عما سيكون اذا مات كافور . فمرت بين السراقات في
طريق مستقيم يؤدي الى سراخ كبير مبطن بالحرير الأحمر ، وقد
أرخت عليه الستائر المزركشة ، ونصب العلم في قمته ، ووقف
ببابه حاجبان في يد كل منهما رمح قناته مكسوة بالدياج ..
فلما دنا الطبيب من باب السراخ ، وسع له الحاجبان بدون
استئذان لأنهما يعلمان شدة حاجة الأمير اليه ، فدخل وأشار الى
غلامه « لواء » أن تدخل معه ، فلما دخلت كان أول شيء لفت

اتباعها سعة ذلك السراق «الصيوان» واحمرار باطنه ، وقد فرشت أرضه بالبسط الجميلة ، وأقيمت في جوانبه منائر من الفضة قد غرست فيها الشموع ، وموائد عليها المباخر يتصاعد البخور من بعضها . وقد علقت على أعمدته الأسلحة من السيوف والأتراس والحراب والأقواس . وفي وسط السراق دكة فوقها قبة قائمة على أربعة أعمدة كالمنظلة ، وقد استرسلت الستائر من جوانبها الثلاثة وترك صدرها مكشوفاً ليظهر سرير الأمير للداخل من باب السراق . والسرير مصنوع من الأبنوس المطعم بالعاج ، مكسو بالفرش الوثير .. وأصله من أسرة بني طولون

وكان كافور متوسداً على ذلك السرير ، ولكن لمياء لم تره لأنه كان غارقاً في الفراش المصنوع من ريش النعام . ورأت إلى جانب القبة جماعة واقفين باحترام واهتمام ، وعلمت أنهم خاصته وأحباؤه غير العلمان والأعوان .. فأجالت نظرها فيهم لعلها تجد سالماً بينهم ، فلم تجده .. وأدركت اهتمام القوم من وقوفهم على الأقدام برغم وجود المقاعد والأرائك والوسائد لجلسهم . أما الطبيب فظل ماشياً نحو السرير ، وقبل أن يدنو منه برز له من جانب القبة رجل عرفته لمياء أنه يعقوب بن كلثوم ، وقد لبس ثوباً يليق بذلك الموقف . وتقدم يعقوب للقاء الطبيب بلهفة كأنه لم يره من قبل وقال له : « لقد أبطأت علينا أيها الطبيب » فقال الطبيب : « فارقت مولانا الأمير وأنا أرجو أن تتقدم صحته فهل طرأ عليه طارئ ؟ »

فأجاب يعقوب : « لا بأس عليه انه اليوم أحسن من ذي قبل .. »

قال ذلك بصوت عال لسمع كافور على عاداتهم في طمأنة المريض وتخفيف جزعه .. لكنه أشار اليه همسا ان الحال تدعو الى القلق فتقدم شالوم حتى دنا من السرير وأشار الى غلامه أن يتبعه ليكون قريبا منه عند الحاجة الى عقار .. فدنت لمياء من ذلك السرير المزين بالأغطية المزركشة بالألوان الزاهية ، تكسوه كله الا بقعة صغيرة عند الرأس سوداء مظلمة ، هي وجه كافور قد أزيح عنه الغطاء لأنه كان شديد السواد ، جلده يلمع .. لكن شدة الضعف أذهبت لمعانه حتى تكاد ترى الاصفرار يخالط ذلك السواد . وكان قد أغلق عينيه كأنه نائم ، وقد برز فكاه من الضعف ، فافترت شفتاه وبرزت أسنانه البيضاء من بينها

فلما أحس كافور باقتراب الطبيب منه فتح عينيه وأجال بصره حتى وقع نظره على الطبيب ، فبان الاهتمام في تينك العينين الحراوين . وكأنه أراد أن يتنسم فلم يردد منظره الا تكشيرا ، فأسرع الطبيب الى يده فأخرجها من تحت الغطاء باحترام ، وجس نبضها وهو يظهر السرور من حال النبض .. والتفت الى كافور وقال : « ان مولاي أحسن حالا من أمس بحمد الله » والتفت الى أحد الغلمان الواقفين في خدمة كافور وقال : « أين قارورة الماء ؟ » .. يعنى زجاجة البول ..

فأتوه بزجاجة فيها السائل .. فتأملوه وتفحصوه ، ثم عاد نحو السرير وهو يتنسم ويظهر السرور ، وقال : « كيف ترى نفسك يا سيدى ؟ »

قال كافور : « انى أشعر بضعف ودوار .. »

فقال الطبيب : « هذا أمر بسيط .. الى يا غلام » وأشار الى
الماء ..

فتقدمت وفتحت الجراب ، فأخرج الطبيب منه قارورة صغيرة
فتحها وأدناها من أنف كافور .. وحين استنشقتها أحس براحة
واتعاش وظهر ذلك في عينيه وجبينه ، فتحرك في فراشه كأنه يريد
الجلوس فأعانه الطبيب على ذلك وساعدهما يعقوب ، وأسنداه
من الخلف ، وتناول مذبة كانت بجانبه يتلهم بها ويطرده الذباب
عنه .. وهو يكثر من تلك الساعة .. ولم يشأ أن يتولى ذلك عنه
أحد ، فتقدم يعقوب وهو يبدى الاهتمام وقال : « ان الذباب
كثير في هذه الساعة وسيبدى الأمير منحرف المزاج : ألا تأذن
لى أن آخذ المذبة « النشاشة » عنك أو تأمر أن يقوم هذا الغلام
باستخدامها » وأشار الى الماء .. والتفت نحو الطبيب كأنه
يستشير في هذا الاقتراح ..

فتقدم الطبيب وقال : « ان الأمير في حاجة الى الراحة » ومد
يده وتناول المذبة من يده ودفعها الى الماء ، وأشار اليها أن تقف
وراء السرير تطرد الذباب عن وجه كافور بدون أن تزعجه .
فأطاعت وقد سرها ذلك حتى تكون قريبة منهم .. وأدار كافور
عينه في جوانب السرايق كأنهما سراجان موقدان . ثم نظر الى
شالوم وقال : « بارك الله فيك أيها الطبيب .. انى أشعر الآن
براحة وسرور »

فقال الطبيب : « وستشعر بأحسن من ذلك بعد قليل » ومد
يده الى الجراب فأخرج منه قارورة فيها سائل صلب منه قليلا

في قدح ودفع القدح الى كافور فشربه ، فازداد انتعاشا.. والتفت الى يعقوب وقال : « اننا لا ننسى فضل طيبينا هذا بارك الله فيه ، انه صديق محب »

فقال يعقوب : « كلنا عبيد مولانا نقديه بأرواحنا فالحمد لله على سلامته ، ولا أرانا مكروها فيه »

قال كافور : « لله أنت يا يعقوب .. انك موضع ثقتنا وسوف تكافئك على مودتك وصدق خدمتك »

فقال يعقوب : « ان ما تتمناه هو شفاء الأمير .. وهذا خير مكافأة .. »

فقال الطبيب : « ان حال مولانا يخمد الله حسنة جدا ولا يلبث أن يخرج على جواده في البساتين ، أو يركب سفينته يتزده بها في النيل .. »

فهز كافور رأسه وقال : « ان شاء الله .. ان شاء الله » وفي غنة صوته انه لا يصدق هذا الكلام ..

ثم بدا الاهتمام في وجهه ، وأشار الى الواقفين بالخروج .. ولم يبق الا الطبيب ويعقوب ولمياء واقفة عند رأسه

— ٥٨ —

أبو حامد وسالم

فلما خلا بهم المكان التفت كافور الى يعقوب وقال : « ان الطبيب — حفظه الله — طمأننى وخفف عني وقد صدقته لكننى ضعيف وأخاف .. » واختنق صوته

فابتدره الطبيب قائلاً : « لا ينبغي لمولانا أن يشك في قولي ولا أن يفكر في أمر يسوءه .. ولا أعول فيما أقوله على فعل العقاقير ، ولكنني استبشرت أيضاً من دلالة النجوم .. فقد تفقدت الطالع في مساء أمس فوافق ما أتوقعه . انت يامولاي في صحة والتوفيق حليفك » ..

قال كافور : « ذلك الذي أريده .. ولكن كيف أطمئن لحالي وأنا أرى ما أراه من الضعف » ثم وجه كلامه الى يعقوب وقال : « بل كيف يرتاح خاطري وأنا أرى أحوال هذه الدولة . انت تعلم يا يعقوب ما في قلبي .. وأحب أن أشرك طيبينا في الأمر لثقتي به ، وقد سلمت اليه روعي .. أفلا أبوح له بسرى ؟ أنا لا أثق بأحد من هؤلاء الذين ترونهم حولي . انهم لا يلبثون اذا لفظت نفسى الأخير أن ينقلبوا على .. لا يهمنى ذلك ولكنني أخاف على هذه الدولة . اذا مت أنا فان الامارة تفضى الى غلام في الحادية عشرة من عمره ، وهو صاحب الحق فيها .. أو يتنازعها أعمامه والقواد فتفسد الأمور و .. » وتنحج وكأنه ندم على ما قاله فعاد وقال : « ولكن لا .. انى ساعيش ريشما أدبر شئونها .. أليس كذلك أيها الطبيب ؟ »

فأسرع الى الجواب بلهفة وقال : « بلى ياسيدى هذا هو اعتقادى » فتزحج كافور في فراشه ، فنهض الطبيب وقال : « هل يجب مولاي أن ينام ؟ »

قال كافور : « لا .. لا أحس ميلا الى النوم ، لكنني أحبيت أن أغير وضعى . هل رأيت وزيرنا أبا الفضل « ابن الفرات »

اليوم يا يعقوب ؟ »

قال يعقوب : « كلا ياسيدى لم أره .. هل تأمر بشيء أبلغه
إياه ؟ أم تحب أن ندعوه إليك الى هنا .. أم ماذا ؟ »

قال كافور : « لا .. لكننى استبظاته ، ولعله لم يشأ أن يأتينى
لئلا يشغل ذهنى بأمور الدولة ففضل لى الراحة . لا بأس من
ذلك »

وهم يعقوب أن يجيبه ، فرأى الحاجب قد دخل ووقف فى
المكان الذى يقف فيه اذا كان آتيا بخبر ، فقال له كافور :
« ما وراءك ؟ .. »

قال : « ان أبا حامد بالباب ياسيدى »

فلما سمعت لمياء اسمه أجفلت ، وتسارعت دقات قلبها حتى
كاد ذلك يظهر عليها ، ولاحظ يعقوب اضطرابها فأومأ اليها أن
تتجلد . ولم يكن أسرع منها الى التجلد لما فطرت عليه من قوة
النفس ورباطة الجأش .. فانزوت وراء عمود القبة والمذبة بيدها
بحيث لا يظهر وجهها ولا ينتبه لها أحد . وكان كافور يستأنس
بالطبيب لما فى كلامه من الذكاء وما ييسطه بين يديه من الآمال
فقال له : « هل ندخل الرجل علينا الآن .. هل ترى بأسا من
ذلك ؟ انه طلى الحديث حاد الذهن ولا يختار من الأحاديث الا
ما يسرنا . وكلما زدناه اهتماما بسماع حديثه زادنا مغالاة فى
غرائبه ، لا بأس به .. انه لطيف المعشر »

فقال الطبيب : « انك يامولاي فى حاجة الى من يؤانسك
بالأحاديث الشائقة المفرحة .. فاذا كنت ترى فى حديثه شيئا

من ذلك فادعه .. »

ونظر كافور الى يعقوب كأنه يستشيريه فقال : « اذا شاء مولاي أن يدخله ، فليشترط عليه أن يقص علينا مثلما قصه مرة من الأخبار المفرحة »

قال كافور : « لكنه قصتها علينا سرًا .. »

فتصدى الطبيب للكلام قائلاً : « أما أنا فاذا كان وجودي مانعا من سماع الأخبار المفرحة فاني منصرف » وتحفز للانصراف فأشار اليه كافور بكلتا يديه أن يبقى وقال : « اذا استغنيت عن رجال الدولة جميعا لا أستغنى عنك . ولا أرى بعد ما رأيته من صدق مودتك وعظيم فضلك أن أخفى عنك سرا كهذا . فليدخل الرجل ويقص ما يقصه وأنت حاضر ، ولنفرح معا اذا كان فيه ما يفرح » وأشار الى الغلام أن يدخله فقال الغلام : « ادخله وحده أو مع رفيقه ؟ »

قال كافور : « ليدخل الاثنان .. »

فأدركت لمياء ان رفيقه انما هو سالم بعينه فأخذت تتجلد . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأخذ الفراشون في اثاره الشموع ، فأصبحت لمياء في موقفها تخفيها ظلال الستائر بحيث لا يظن لها أحد ، وهي ترى كل حركة وتسمع كل صوت . ولم تبق حاجة الى المذبة بعد الغروب وقد خفت وطأة الذباب . وبعد قليل ونسى كافور وجودها عند رأسه فوقفت لا تتحرك . وبعد قليل دخل أبو حامد ، وقد تزيّنا بغير زيت المعهود ودخل سالم في أثره ، وقد تغير شكله وهندامه حتى كادت تنكره ، لكنها ما لبثت أن

سمعته يلقي التحية حتى تحققت انه هو بعينه .. ففحق قلبها وارعدت فرائصها وهى تتجلد وتتمالك لترى ماذا يكون . على انها لم يكد يقع بصرها عليه حتى تذكرت تاريخ معرفتها به ، وكيف كانت تستमित فى حبه .. وودت فى تلك الساعة أن تتضح براءته من تلك التهم ، واستعاذت بالله أن يكون كما قيل لها عنه ، وندمت على مجيئها الى ذلك المكان لتسمع أقواله بأذنها . وخشيت اذا سمعت شيئا يثير غضبها أن لا تقوى على امساك عواطفها فيفتضح أمرها ، لكنها استجمعت قواها وتجلدت

— ٥٩ —

الحديث

فلما دخل الرجلان ألقيا التحية ، فأشار اليهما كافور بالجلوس على كرسيين بين يديه ، فجلسا متأدبين .. وتصدى أبو حامد للكلام فقال : « كنا فى قلق عظيم على صحة مولانا الأمير — أعزه الله — ونرجو أن يكون قد تعافى »

فجاب الطبيب شالوم بالاجابة عن كافور تخفيفا للعبء عنه قائلا : « ان سيدى الأمير بخير .. وهو اليوم أحسن من ذى قبل ، ولا يلبث أن ينهض من الفراش »

فقال كلاهما معا : « الحمد لله .. الحمد لله على ذلك .. ان اعتلال صحة الأمير يسبب اعتلال الأمة بأكملها .. ولا سيما الآن ، وقد دنا الوقت الذى يملو فيه نجمه ويتسع سلطانه .. » فقال الطبيب : « ان مولانا الأمير فى حاجة الى التسلية بما

يدخل البهجة في نفسه .. فهذا هو العلاج الذى يفيد حقيقه ،
فهل عندكما شئ من هذا القبيل ؟ »

وتقدم يعقوب فقال : « لا أنسى حديثا سمعته منكما فى
حضرة الأمير ، رأيت مولاى انبسطت نفسه منه »

فقال أبو حامد : « أظنك تعنى حديث .. » والتفت نحو
الطبيب ولسان حاله يقول : « ان هذا الحديث لايتلى جهارا »
وكان كافور يسمع ويرى ، فلما رأى اشارة أبى حامد قال :
« لا تحتشم من وجود طبيبنا .. انه موضع ثقتنا »

فوقف الطبيب وأظهر أنه مستعد للخروج .. فأشار اليه كافور
أن يجلس فجلس ، والتفت الى يعقوب كأنه يستشيريه هل يقول ..
فقال : « تفضل ياسيدى ، قل .. »

فاعتدل أبو حامد فى مجلسه وقال : « ان حديثنا فى المرة
الماضية لا يحلو تكراره ان لم يكن مشفوعا ببشائر النجاح .
وقد جئنا الليلة نحمل بشارة يفرح لها كل مسلم يريد أن يستقر
الحق فى نصابه .. »

فقال يعقوب : « وما ذلك ؟ »

قال أبو حامد : « قصصت عليكم فى المرة الماضية ما دبرناه
فى سبيل نصره الحق باقناذ الدولة الاسلامية من أدعاء الخلافة
فى المغرب .. اعنى القوم الذين اتحلوا لأنفسهم نمبا كاذبا فى
القيروان ، وزعموا انهم من نسل فاطمة الزهراء وهم أدعاء فى
هذا النسب .. ان زعيمهم الذى سمى نفسه المعز لدين الله ، قد
أصبح الآن فى عالم الأموات . ولابد من اضطراب دولته وقيام

أمرأء كتامة وصنهاجة عليه ، وانما نحتاج الى جند يبعث به الأمير
— أعزه الله — الى أولئك الأمراء هناك ، حتى يلتفوا حوله
ويسلموا الأمر اليه .. فيشعئ له على منبر القيروان ، كما يدعئ
له الآن على منابر مصر ، والشام ، والحجاز ، وحلب ، وانطاكية ،
وطرسوس .. فيستقيم له الأمر وحده ، ولا يبقى لمنافسيه هنا
مطمع في شيء ، لأن الباقين من آل الاخشيذ غلبان ونساء
لا يستطيعون عملا »

وكان كافور جالسا ينظر الى أبئ حامد ، وقد بدا الانبساط
على وجهه ، فلما سمع قوله زاد انبساطا لكنه تنهد وقال : « انئ
لا ألبث أن أعمل بذلك حاملا أنهض من الفراش باذن الله »
والتفت الى الطبيب ، كأنه يستشير في ذلك ..
فقال الطبيب : « قريبا ان شاء الله .. » والتفت الطبيب الى
أبئ حامد وقال : « يظهر انك واثق من نجاح هذه المهمة »

فقال أبو حامد : « انئ لا أقول غير الحق ، وأنا منذ أعوام
أعد العدة ، وأهبيء الأحزاب ، وأجمع الأموال .. انئ على
ثقة من انضمام قبائل البربر كلها في نصره . الأمير أبئ المسك أعزه
الله . وانما كان ينقصنا أن نتخلص من رجلين هناك ، خدمهما
الحظ حينما فغلب عليهما الغرور وقد ماتا الآن »
قال يعقوب : « من تعنى ؟ »

قال أبو حامد : « أعنى المعز ، وجوهر قائده .. انهما ماتا الآن
ولا تمضى سوى بضعة أيام حتى تأتينا كتب الأمراء بذلك »
فأحب يعقوب أن يسمع لمياء كلام سالم عن نفسه ، فوجئ

الخطاب اليه قائلا : « ان الفضل في هذا النجاح ليس للأمير أبى حامد فقط وانما هو لك أيضا .. وان حيلتك التي قصصتها في المرة الماضية غريبة في بابها » وضحك ليثجعه على التصريح فقال سالم : « ان الفضل الأكبر لهذا الأمير .. وهو صاحب الرأي الأعلى وعنده الرجال والأموال .. وأما أنا فعلى مقصور على اغراء فتاة جاهلة ، توهمت انى أحبها .. فاتخذناها وسيلة لخدمة صاحب مصر أيده الله »

ولا تسلم عن لمياء وما أصابها عند سماع هذا الكلام . ورغم تجلدها وتمالكها ، أحست بأنها مدفوعة لتكذيب ما سمعته ، وحدثتها نفسها أن تتقدم في تلك اللحظة وتكشف عن الحقيقة . وكان يعقوب يلاحظ حركاتها ، ويشير اليها خلسة أن تتجلد .. وبينما هم في ذلك ، اذ رأوا كافورا يتحرك في سريره حركة غير عادية ، وقد تغيرت سحنته .. فانتبه له الطبيب ونهض اليه فرآه قد أصيب بنوبة سعال شديدة ، فأومأ الى القوم بالانصراف حالا.. فنهض أبو حامد وسالم وخرجا ، وشغل الطبيب بمعالجة كافور، فنادى غلامه «لمياء» أن يأتى بالجرب ، فأسرعت وفتحت الجرب ويدها ترتعدان من التأثير وقد احمرت عيناها من الغضب ، فتناول الطبيب قارورة الاستنشاق وقربها من أنف كافور وأعانه يعقوب باسناده ، وهو لا يزداد الا سعالا حتى كاد يغشى عليه .. وشغلت لمياء بذلك المنظر عما جال في خاطرها ، وقضوا ساعة وهم يسمعون الأمير بالعلاج حتى سكن السعال ومال الى النوم ثم جس الطبيب نبضه وقال : « انه مرتاح الآن .. وينبى أن

تركه نائما »

فقال يعقوب : « هل نخرج نحن اذن ؟ »

قال الطبيب : « نعم .. أما أنا فلا ينبغي أن أتركه ، اذ أخشى أن تعاوده النوبة »

فقال يعقوب : « أنا ذاهب مع غلامك هذا .. وسأترك عندك أحد غلمان الأمير يقدم لك الجراب اذا دعت الحاجة اليه »

ففهم الطبيب مراده فوافقه ، قدفت لمياء الجراب اليه وخرجت مع يعقوب وركبتها ترتعدان من هول ما سمعته ورأته ، وعيناها شائعتان خارج المعسكر تبحث عن أبى حامد وسالم فلم تعثر لهما على أثر ..

ولاحظ يعقوب قلقها .. وأدرك ما يجول في خاطرها ، فأشار اليها أن تتبعه . فوقفت وهى تكاد تسقط من شدة الاضطراب والغضب وقالت : « لا أستطيع المشى ياسيدى .. بالله ماذا رأيت ؟ الويل لذلك الخائن .. »

فالتفت يعقوب اليها فوجد وجهها قد امتنع وتغيرت سحتها ومشت وهى تتساند وتخشى السقوط .. فأشار الى السائس أن يقدم الدابة فأسرع الى تقديمها وأعانها حتى ركب ، وركب هو على دابة أخرى فى أثرها ، ولاحظ فى أثناء الطريق ان لمياء منزعة .. فأحس انه مسئول عن سبب انزعاجها لأنه هو الذى جمعها بذلك الخائن ، واذا أصابها سوء فمن شدة تأثرها مما سمعته ورأته ..

وبعد قليل وصلا الى منزل المعلم يعقوب ، فترجل والتفت الى

لمياء فاذا هى لا تزال على بغلتها لا تتحرك.. ولم يعهد فيها ذلك التوانى ، فتقدم نحوها ومد يده ليعينها على النزول . ولما لمست يده أحس بسخوتها وجفافها ، فاقشعر بدنه .. وطلب اليها أن تنزل فنزلت وهى لا تستطيع حراكا ، فنادى بعض الخدم فأعانوه على حملها الى دار النساء وهى غائبة عن رشدتها كالميتة

فتأسف يعقوب لما أصابها وفادى قهرمانة منزله ، وأشار اليها أن تسعف الفتاة بالتداير العاجلة ريثما يأتى الطبيب . وبعث رجلا يدعو الطبيب شالوم ، اذ لم يكن يريد أن يعرف أحد غيره أنها عنده ..

ظلت لمياء غائبة عن الوعي رغم ما استخدموه فى إيقافها من المنعشات والمنبهات ، وأبطأ الطبيب عن الحضور لاشتغاله بالأمير كافور ، فاشتد القلق بيعقوب وأصبح لا يدري ماذا يعمل ، فخطر له أن يطلع الشريف مسلم على حالها لأنه ذو شأن فى الأمر ، فبعث اليه وقد أظلم الظلام .. فجاء ولمياء لا تزال على تلك الحال ، فسأله عن أمرها فقص عليه حقيقة خبرها . فجن نبضها فاذا هو يسرع كثيرا فعلم انها مصابة بحمى شديدة ، ورأى أن ينقلها الى منزله ليخدمها أهله ريثما يأتى الطبيب ، ويرى ماذا يكون ، وكان قد استلطف الفتاة قبل أن يطلع على حقيقة أمرها مع الحسين بن جوهر وغيرها على المعز وخبرها مع سالم ، فلما اطلع على الحقيقة أحس بعطف شديد نحوها وأمر بمحنة حملها عليها الى منزله ، وأخذ على عاتقه أن يعالجها طبيب منزله ..

- ٦٠ -

الحلم

قضت ليلاء في تلك الغيبوبة أياما لا تأكل ولا تشرب غير ما يسقونها إياه رغم ارادتها .. ثم أفاقت وقد شحب لونها وبان الضعف في عينيها ، وحالما أفاقت التفتت الى ما حولها وقد استغربت كل شيء .. لكن الناظر في عينيها كان يرى انها لا تزال ضائعة رغم حركتها والتفاتها .. وكان في الغرفة حينذاك الشريف مسلم نفسه وامرأة من أهله ، فتقدمت المرأة نحوها وقالت :

« ماذا تريدن يا حبيبتى ؟ »

فلم تجبها .. لكنها عادت الى استغراقها .. وكانوا قد أعدوا لها لبنا تشربه فلم تستطع ذلك لأنها عادت الى النوم ، فأمر الطبيب أن تسقى اللبن كرها . وكانت الحمى قد انخفضت والغيبوبة هذه المرة لم يطل بقاؤها .. وفي صباح اليوم التالي سمعوها تن أنينا شديدا كأنها تشكو ضيقا . فأسرع مسلم اليها فسمعها تقول بأعلى صوتها : « حسين ! حسين ! تبأ لهم قبضوا عليك .. دعوه قبضكم الله .. أما كفاكم ما فعلتموه بأبى ؟ .. آه آه .. » وسكتت ثم فتحت عينيها فجأة والتفتت الى مسلم وهو واقف الى جانبها وتفرست فيه ، وقد عاد اليها رشدها ، فعرفته فقالت : « العفو ياسيدي .. انت هنا ؟ أين أنا ؟ ماذا جرى لى ؟ .. أين الحسين ؟ قد قبضوا عليه ؟ ويل لهم » وشرقت بدموعها ثم تراجعت ، وكأنها فطنت الى انها في يقظة ، وليس هناك

حسين فحجّلت ، فتقدم الشريف نحوها بلطف وقال لها : « ما بالك يا بنية ؟ انك تهذين أو تحلمين .. لا تخافى ، انك فى منزلى ، وأنت أعز من أبنائى .. »

فأخذت تفرك عينيها بكلمات يديها ، وهى تنظر الى ماحولها ، وقالت : « لست خائفة ياسيدى .. لست خائفة .. ولكن الحسين ابن جوهر ، رأيتهم أخرجوه مغلولاً فى فج الأخيار .. وأولئك اللصوص حوله كالزبانية .. رأيتهم رأى العين »

فقال الشريف : « أنت يا لمياء فى القساطر .. وبيننا وبين فج الأخيار عدة أيام .. خففى عنك .. وعودى الى رشذك .. لا بأس عليك . وبعد هنيهة يأتى الطيب ويشير بما يجب أن تفعل » قالت لمياء : « الطيب ! وأى طيب ؟ انى لا أشكو مرضاً ولكننى أشكو ظلماً وخيانة » قالت ذلك وغصت بريقها وأغرقت فى البكاء حتى ملأ نحيبها الدار . فبعث الشريف يتعجل الطيب فأتى والفتاة مستغرقة فى البكاء ، فجلس نبضها ثم أشار عليهم أن لا يخاطبوها ، ولا يقصوا عليها خبراً .. بل يكتفوا بالغذاء الخفيف . ووصف لهم ما ينبغى عمله .. ولكنه ألح عليهم أن يتركوها هادئة ساكنة بقدر الامكان

ظلت لمياء فى الفراش عدة أسابيع لا يخاطبها أحد الا عند الضرورة ، وهى تصحو تارة وتغيب أخرى ، والطبيب يتردد عليها ويصف الأدوية والأغذية حسب الحاجة .. ويعقوب يأتى كل يوم للسؤال عنها ويأسف أشد الأسف لما أصابها على يده .. رغم اشتغاله فى تلك الاثناء بأمور ذات شأن أهمها : موت كافور ، وانتقال الامارة الى أحمد بن على بن الاخشيذ .. وهو

غلام لم يتجاوز الحادية عشرة . وتحول النفوذ الى جعفر بن
الفرات وزير كافور المتقدم ذكره . ولم يكن ابن الفرات يستطيع
عملا في حياة كافور ، فلما صارت الإمارة الى ذلك الغلام استبد
هو بالأمر وأخذ في مطاردة رجال الدولة ومصادرة أموال
الأغنياء .. وكان يعقوب من جملة المهديين ، وخشى أن يصل
الدور اليه فاستتر . وكان يقضى أكثر أوقاته عند الشريف مسلم
ابن عبيد الله المشار اليه بحجة السؤال عن لمياء ، ويتحدثان في
شئون الدولة ويرون قرب سقوطها .. لكنهما لا يتحدثان في شيء
من ذلك أمام لمياء عملا بإشارة الطبيب

وبعد مدة شعرت لمياء بتقدم في صحتها ، وأصبحت في شوق
الى استطلاع الأحوال ، والطبيب يأمرها أن تلزم الصمت ..
وبعد مدة أخرى أذن لهم أن يخاطبوها في الشؤون التي تريدها .
وكانت لا تزال تتردد الى الفراش ، أو تنزل الى الحديقة ، أو
تمشي في المنزل . ورأت وجهها في المرأة فانزعجت مما صارت
اليه من الضعف فبكت ، ثم عاد اليها رشدها ، فتذكرت ما اتت بها
في تلك المدينة ، وكيف خلفت أهل القيروان على مثل الجمر في
انتظار أخبارها من مصر . وتذكرت انها رأت الحسين خطيبها
مغلولا أو رأتهم يوثقونه ويضربونه كأنها رأت ذلك في لحظة

كانت هذه الخواطر تمر بذهنها في أواخر أيام النقاهة ، وهي
لا تجسر على مفاتحة أحد بها . فلما أذن لها الطبيب بذلك
طلبت يعقوب وسألته عما جرى في أثناء مرضها .. فقص عليها
ما كان من موت كافور وتنصيب أحمد بن علي

فقلت لمياء : « ألم تبعثوا بذلك الى القيروان ؟ »
 فابتسم يعقوب . ونظر الى مسلم ، فابتسم أيضا ..
 فقالت : « ما الخبر ؟ »
 قال يعقوب : « الخبر خير يا لمياء .. ان أهل القيروان علموا
 بكل ما جرى هنا ، وقد جاءوا إلينا بخيلهم ومعداتهم »
 فصاحت : « أتوا الى هنا ؟ القائد جوهر أتى ؟ أين هم ؟ »
 فقال يعقوب : « المعز لم يأت ولكن القائد جوهر جاء بجند
 كثير ونزل الاسكندرية ، فوقع الرعب في قلوب المصريين .. ولا
 ندرى ماذا يكون »
 فأطرقت لمياء وقد بان الشر في محياها وأحست بنشاطها
 الأول ، كأنها كانت في نوم وأفقت . وتذكرت مهمتها التي جاءت
 من أجلها وانها لم تستطع عملا تخدم به المعز لأن المرض أعاقها .
 وتذكرت للحال ما رآته من سالم فاقشعر بدنها فقالت : « وماذا
 جرى لذلك الخائن وعمه ؟ »
 قال يعقوب : « لا أدري .. لأنى لم أعد أراها منذ تلك
 الجلسة ، وأظنهما يعملان على دس الدسائس في قصر السيدة
 زينب بنت الاخشيد بعد موت كافور وضياع أمليهما »
 فلما سمعت اسم بنت الاخشيد ، تذكرت أشياء أخرى أهاجت
 أشجانها ، فأطرقت ومسلم ويعقوب يلاحظانها ولا يتكلمان . ثم
 اتبتهت فجأة ، وقالت : « ماذا جرى بأمتهنى وجوادى ؟ »
 قال يعقوب : « أى أمتة تعنين ؟ »
 قالت لمياء : « أعنى ماجملته معى من الثياب والأمتعة من ..

القيروان وتركه في الفندق مع الجواد والخادم والدليل
قال يعقوب : « أى فندق ؟ .. ان الفنادق كثيرة هنا .. »
فقلت لمياء : « في الفندق الذى أهدانى صاحبه الى منزلك »
قال يعقوب : « لم أتبه له »
قالت لمياء : « أنا أعرفه .. وقد آن لى أن أخرج من البيت
ولا خوف على .. أخرج بالثوب الذى يعرفنى صاحب الفندق
به فألقيه وأدفع له أجرته وآتى بالأمثلة .. ولحق يقال انى
أحسن بتقصيرى في خدمة أمير المؤمنين .. وقد شغلت عن
خدمته بخدمة نفسى ، ثم شغلنى المرض »
قالت ذلك ووقفت ، وقد عاد اليها نشاطها ، والتفت الى
مسلم وعيناها تنطقان بالشكر على ما أبداه من الغيرة . فأجابها
على الفور : « انك مستعودين الينا وتنزلين في دارنا .. أو الأفضل
أن تمكثى هنا ونرسل من يأتى اليك بالأمثلة والجواد »
قالت لمياء : « بل أفضل الذهاب بنفسى .. وسأعود الليلة
أو في صباح الغد ان شاء الله »
فقال مسلم : « بل تأتين الليلة »

- ٦١ -

في اليقظة

فأشارت مطيعة ، واختلت في غرفة. لبست فيها ثوب الصقالبة
الذى دخلت به التسطاط ، واستأذنت في الانصراف وخرجت
وهي تذكر الطريق التى جاءت منها ، وتتوهم أنها مرت في تلك

الطريق منذ بضعة أيام ، وقد مر على ذلك عدة أشهر .. وصلت الى الفندق فرآها صاحبه وقابلها بالترحاب ، وأبدى غاية الدهشة لما رآها فيه من الضعف .. وسألها عن سبب غيابها ، وأخبرها أنه شغل عليها كثيرا حتى خشى أن تكون قد ماتت .. قال ذلك بين الجد والهزل ..

فاستلظفت مجونه وقالت : « الحمد لله انى لا أزال حيا (لأنه يعرفها غلاما صقلييا) .. ولو مت .. ما الذى كنت تصنعه بالجواد ؟ »

قال صاحب الفندق : « أى جواد ياسيدى ؟ »

قالت لمياء : « الجواد الذى جئت عليه »

قال صاحب الفندق : « ان الجواد أخذه رفيقك ومضيا .. »

يعنى الدليل والخادم ..

قالت لمياء : « وكيف أذنت بذهابهما ؟ »

قال صاحب الفندق : « لما استبطأ قدومك استأذنا فى

الانصراف » وضحك لهذا التعبير

فقالت لمياء : « وماذا فعلتم بشابى وأمتعتى ؟ »

قال صاحب الفندق : « هى باقية فى الغرفة التى كنت نازلا

فيها ، وهى فى صندوق مقفل .. ولكن جاء بعض المسافرين واستأجروا الغرفة منى ، فأبقيت الصندوق فى أحد جوانبها على

ما أظن »

قالت لمياء : « أعطنى الأمتعة .. أين هى ؟ »

قال صاحب الفندق : « هى هنا .. تفضل ياسيدى » ومشى

نحو الغرفة التى باتت فيها ليلة وصولها الى القصر .. وهى

على الحسين .. ! »

فلما سمعت لمياء ذكر الحسين اختلج قلبها وتسارعت دقاته حتى شوشت عليها سماع الحديث ، فاذا سالم يقول : « قبضوا على الحسين ؟ لا لم أعلم بذلك بعد .. أين قبضوا عليه ؟ »

قال أبو حامد : « في فج الأختيار .. لأن لمياء اللعينة أفشت السر وأخبرت المعز بوجود المال هناك ، فتطوع هو بالذهاب ليحمل ذلك المال اليهم .. وجاءني الرسول أمس وأخبرني أن رجائنا هناك قبضوا عليه وأوثقوه ، وقد سألتني عما يفعلونه به .. فطلبت اليه أن يصلوه الى هنا .. فاذا جاء حبسناء وجعلناه رهنا .. ما قولك ؟ »

فقال سالم : « لم أكن أعلم ذلك .. بارك الله فيك .. كيف لم تخبرني به حتى الآن .. ؟ »

قال أبو حامد : « لأنني لا أثق بأحد ، ولو لم أتحقق من خوفك لم أخبرك به .. لكنني لم أعلم أين ذهبت تلك الفتاة المقتونة ، فقد أخبرني الجواسيس أنها خرجت من القيروان .. ولكنني لم أعلم الى أين ، لأنها أخفت جهة مسيرها .. »

قال سالم : « ما ظنك بها ؟ »

قال أبو حامد : « أظننها أتت الى هنا لأن يعقوب اليهودي هو الذي أنبأ المعز بعزمنا على قتله فنجا بذلك . ويعلب على ظني أن لمياء أتت الى القسطنطينية ، لكنني لم أستطع البحث عنها في حياة كافور لأنه كان يقرب ذلك اليهودي ويصغى اليه . أما الآن وقد مات كافور ، فاني أوغرت صدر ابن الفرات عليه .. »

فأصبح يطارده ولا يلبث أن يصادر أمواله .. وهو يسعى الآن في اقناع القواد بالاستسلام لجوهر .. ولكنه لن يفلح لأنهم مختلفون لا رابطة بينهم ، وكل منهم يطمع في المال لنفسه ، وهم طوائف أهمها الاخشيدية والكافورية والأتراك وليس عليهم أمير حازم يجمع كلمتهم . وفي عزمي أن أجمع شتاتهم بواسطة السيدة زينب بنت الاخشيد لأنها كانت نافذة الكلمة عليهم ، لكنها امرأة ولا تعلم كيف تعمل ، فضلا عن اشتغالها بأمر نفسها .. لا تخف يا بني ، كن على ثقة من تدييري »

وكانت لمياء تسمع كلامه وفرائصها ترتعد فاذا بسالم يقول :
« قد أدهشتني يا عماء بهذا التديير .. بارك الله فيك »

فقال أبو حامد : « كيف لا وقد قضيت عمري في دس الدسائس ، عملا بوصية ذلك المقتول ظلما . اني منتقم له .. اطمئن ، ولكن تلك الملعونة أين ذهبت ؟ .. لست أدري »
قال سالم : « مالنا ولها ؟ .. فلتكن حيثما شئت .. »

وتلت ذلك فترة صمت .. وكأن الرجلين ناما ، وأخذت تفكر فيما سمعته ، فرأت انها اطلعت على أشياء كثيرة لم تكن تعرفها وخاصة أمر الحسين والقبض عليه ، وان المصريين يسعون في مصالحة جوهر والتسليم له ، وان الأمر موقوف على بنت الاخشيد . وقد صدقت انهم قبضوا على الحسين لأنها رأت ذلك رأى العين في أثناء الغيوبة. فلم تعد تستطيع البقاء هناك واحتالت على الخروج فلقبها صاحب الفندق فسألته عن الثياب فقال : « هل أتى الضيوف ؟ » قالت : « أظنهم أتوا لأننى سمعت حركة »

فقال : « قبهم الله.. يدخلون كاللصوص ؟ » وأسرع وعاد إليها بالثياب . فتناولتها ودفعت إليه أجره ، وانطلقت تطلب بيت الشريف مسلم بن عبيد الله . وكان الليل قد أسدل ستاره فأسرت حتى وصلت فرأت الخيول متزاحمة أمام البيت ، والناس وقوف بالباب فاستأذنت في الدخول فأذن لها ، وسألت عن الشريف فقيل لها انه في خلوة مع جعفر بن الفرات .. فجلست وهي في غاية الاضطراب ، وأصبحت في شوق لمعرفة ما يدور بين الرجلين

- ٦٢ -

الصلح

وبينما هي جالسة ، اذ رأت جماعة عليهم ملابس المصريين الوطنيين من التجار والمزارعين ، وقد تجمعوا أزواجا وأثلاثا وهم يتدمرون ويتأوهون.. وسمعت أحدهم يقول: « مالنا وللحروب ، لقد خربت البلاد واختنق الناس من القحط والغلاء حتى فرغت أيدينا من النقود ، وهؤلاء الجند لا يزيدوننا الا في قيمة الضرائب.. وهم منعمون لا يهمهم الا أخذ الأموال. انهم معذورون طبعاً اذا خافوا على سيادتهم ، وأحبوا أن يحاربوا أولئك المغاربة » فأجابه آخر : « مالنا ولهم ؟ .. الصلح أفضل لنا .. وهذا الوزير قد وافقنا على طلب الصلح . ان هذه الدولة الجديدة رشيدة وقد سمعت الثناء على خليفتها ، وأنه زاهد في الأموال يعمل على اسعاد رعيته »

فتقدم ثالث وقال : « وقد بلغنى ان هذا الجند قادم الينا



.. وسمعت احدهم يقول : مالنا وللجروب ؟ .. لقد خربت البسلاد
واختلقت الناس من فرق الخط والفلل ، حتى فرقت ابدينا من النور .. »

وقد حمل أثقالا من الذهب على الجمال .. أين ذلك من اغتصاب
جندنا وحكومتنا لأموالنا ؟ »

ثم سمعت رجلا يضحك وفي وجهه هياة المجون وقال :
« كيف تدعون الفقر يا قوم ؟ .. أليست الأموال مخزونة في بيت
الاششيدية والكافورية ؟ هذه بنت الاششيد قد فرشت منزلها
بما لم تبلغ اليه زبيدة زوج الرشيد وعندها الجوارى بالمئات ..
وتقولون مع ذلك انا فقراء ؟ » .. فضحك الجميع من مجونه ،
ثم شغلوا بحركة وضوضاء ظهرت هناك ، فالتفت لمياء فرأت
ابن الفرات خارجا ، وقد خرج الشريف مسلم لوداعه وابن
الفرات يبالغ في احترامه والثناء عليه . ولما ودعه ، قال ابن
الفرات : « أتعدني ياسيدي بالذهاب غدا الى الاسكندرية ؟ »
قال الشريف : « كن مطمئنا .. انى سأبذل أقصى الجهد في اقناع
القائد أن يقبل الصلح ، وأنا ضامن ذلك باذن الله .. »

ففهمت أن ابن الفرات يسعى في الصلح .. وتذكرت ماسمعه
من أبى حامد في هذا الشأن . وأرادت أن تخاطب الشريف فرأته
قد تحول الى غرفته كأنه في شاغل عن المقابلات ، فأجلت مقابله
الى فرصة أخرى وذهبت الى دار الحريم .. وكانت قد تعبت
فاستلقت على الفراش ، ومالت الى الخلوة .. وأخذت تفكر فيما
سمعته ، فغلب عليها النوم فنامت رغم ارادتها

ولم تستيقظ الا في الصباح على وضوضاء القوم في الدار ،
فنهضت وسألت عن الشريف فقيل لها انه سافر الى الاسكندرية

مع وفد من أعيان المصريين ، ومعه كتاب الوزير ابن الفرات في طلب الصلح (١)

أما هي فأنها ظلت في قلق لما علمته من مساعي أبي حامد ، وأسفت لأنها لم تستطع مقابلة مسلم قبل ذهابه . وبينما هي في ذلك اذ رأت يعقوب داخلا ، فأحست براحة وأسرت اليه .. فلما رآها هش لها وتقدم نحوها ، فأومأت اليه أن يجلس وقصت عليه ما سمعته بالأمس .. فاستغرب قولها ، وأدهشه عزم أبي حامد وما دبره فقالت : « لا حاجة بي أن أخبرك عما هو أهم مما قصصت عليك »

قال يعقوب : « أما من حيث الحسين ، فإذا صح ما قالوه عنه وانه آت الى هنا فهو في مأمن ولا شك .. ان ذلك الغادر مغرور » ثم أطرقت وهو يحك أنفه وقال : « ولكن .. » وسكت فقالت لمياء : « ولكن ماذا ؟ هل أستطيع أن أعمل شيئا ؟ .. اني أشعر بتقصير في أداء مهمتي لأنني شغلت بنفسي عن خدمة مولاي المعز ، ما بالك ؟ قل .. »

قال يعقوب : « فهمت من حديثك ان ذلك الملعون يهدد سعيانا في الصلح بدسائسه عند بنت الاخشيد .. ولا سبيل لي الى هناك وأنا رجل ، فلا أستطيع التكر .. » فأدركت انه يلح الى أنها تستطيع ذلك لأنها فتاة ، فأطرقت ثم قالت : « هل أقدر أنا على ذلك ؟ » قال يعقوب : « طبعا .. ولكن .. »

قالت لمياء : « ماذا ؟ .. قل .. قد أدركت الآن مركز بنت
الاخشيد فى هذه الدولة ، ويظهر ان الجميع يثقون بها رغم
ما بلغنا من تهتكها وانغماسها فى الملذات .. فما الذى ترى أتنى
أستطيع أن أفعله ؟ »

قال يعقوب : « أرى أن تدخلى دار بنت الاخشيد ..
وتتسلطى على عقلها حتى تصير أطوع لك من بناتك »

فعلت انها لا بد لها من التجسس وهى أكبر نفسا من ذلك
فتوقفت عن الجواب لحظة وهى تنظر فى مرآة معلقة فى الحائط
أعجبها شكلها لأنها من صنع مصر ، ولم تكن قد رأت مثلها من
قبل .. كانت تنظر الى المرأة وهى تفكر فى أمر تتكرها ،
فابتدورها يعقوب قائلاً : « لا ترددى يابنية .. اذا كنت تحبين
المعز وتريدى الفوز لجوهر .. فالأمر فى يدك ، ولا يستطيع أن
يحققه سواك .. »

فلما سمعت قوله ، تحسست وهان عليها كل صعب ، فقالت :
« روحى فداء أمير المؤمنين ، وأحسب انى مت فى مرضى هذا ..
فما العمل ؟ »

قال يعقوب : « هل تعلمين شغف بنت الاخشيد باقتناء
الجوارى الحسان ؟ »

فقالت لمياء : « نعم أعلم ذلك »
قال يعقوب : أرى أن تتسكرى فى ثوب جارية مغربية وأن
أقدمك هدية لبنت الاخشيد .. ولا ريب عندى انها ما أن
تخاطبك حتى تستسلم لرأيك .. والأمر بعد ذلك لفطنتك »

فنهضت وقالت : « أنا مستعدة للذهاب ، من يأخذنى ؟ ..
وكيف أصنع ؟ »

قال يعقوب « تمهلى .. انى عائد بعد قليل ، وانما أرجو أن
تلبسى ثوبا مثل أثواب الجوارى .. » قال ذلك وخرج

فأصلحت شعرها ، وغيرت هندامها ، حتى أصبح من يراها
لا يشك فى انها جارية ، وقد زادها الضعف جمالا وهيبة . ثم
جاء يعقوب ومعه رجل عرف انه تاجر الرقيق الذى قبضوا عليه
فى القيروان ، ووقف بين يدى المعز واعترف انه جاء لبيتاع
جوارى لبنت الاخشيذ فتجاهلت

ثم تقدم يعقوب وقال : « هذه هى الجارية ياسيدى .. كيف
تراها ؟ »

قال الرجل : « لا بأس بها »
فضحك يعقوب وقال : « لا تقل لا بأس .. بل قل انها
جميلة ، وأظنها تعجب مولاتنا كثيرا نظرا لما فطرت عليه من
الذكاء والأدب فضلا عن الجمال »

فقال الرجل : « ما اسمها ؟ .. وكم ثمنها ؟ »
قال يعقوب : « اسمها سبئلا ، وأما الثمن فانى لا أتاخر
بالرقيق كما قلت لك ، وانما أردت أن أفعل ذلك خدمة لمولاتنا .
خذها اليها ويكفينى أن تقبل هذه الهدية منى . ولكن هذه الفتاة
عزيزة عالى لأنى أعرف منشأها ، فلا ينبغى أن تعامل مثل سائر
الجوارى .. أوص السيدة بنت الاخشيذ بذلك اذا شئت »
قال : « سأفعل » وأشار الى لمياء فتبعته وهى تتجلد

- ٦٣ -

بنت الاخشيد ولما

وكانت بنت الاخشيد تقيم في قصر قرب دار عبد العزيز أكبر دور القسطنطينية ، وقد تقدم ذكرها.. وتحدثنا عما فيها من الغرف وعدد من فيها من الناس ، وهى تقع على ضفة النيل الشرقية ، يقابلها في الغرب جزيرة الروضة . وقصر بنت الاخشيد فخم يطل على النيل ، قد فرش بأثمن الرياش . والدولة الاخشيدية يومئذ في ابان بذخها ، تقلد العباسيين بما في دورهم من الرياش الفاخر والأثاث الثمين ، والأبسطة المطرزة والستائر المزركشة قد شدت الى الجدران بمسامير الفضة ، وغرف النوم فيها أسرة من الذهب أو الأبنوس المطعم بالعاج .. ونصبوا منائر الفضة عليها العنبرية اذا أوقدت فاحت رائحتها حتى تملأ الفضاء

فلا غرو اذا دهشت لما عند دخولها ذلك القصر بعد أن رأت بساطة دار المعز في القيروان . وكانت تحجب دار أبيها في سجناسمة قبل سقوط دولته قد بلغت أرقى أحوال الحضارة ، فاذا هى لا تعد شيئا بالنسبة الى دور الاخشيديين وخصوصا هذه الدار ، لأن بنت الاخشيد كانت لفرط اعجابها بنفسها تقلد نساء الخلفاء العباسيين في البذخ والترف .. ولا سيما زبيدة زوج الرشيد ، فقلدتها باصطناع تحف من الفضة والأبنوس والصنديل وكلاسيها من الذهب ملبسة بالوشى والسمور

والدياج الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق (١) ، رغم ما كانت عليه البلاد من الضيق ..

تلك كانت طريقة الحُكام في تلك الأيام ، ولا سيما في أواخر الدولة .. انما يهم الحُكام أن يجمع المال لنفسه ويتلذذ بالشهوات ، وقد يبلغ من تمتعه بالملذات أن يموت من التخمّة والرعايا حوله يموتون من الجوع ..

وكانت بنت الاخشيد في حدود الكهولة تظهر لأول وهلة انها قوية الخلق وهي في الحقيقة ضعيفة الرأي ، لكنها جسورة لا تبالي بما تفعل ولا تقدر العواقب ، وكانت مثالا لطبقة المترفين من أهل ذلك العصر ، لا يفوتها ضرب من ضروب الملذات .. وكانت وجهية نافذة الكلمة ، ليس بين رجال الدولة من لا يخشى بأسها ولا سيما في تلك السنة ، وقد مات كافور وصارت الأمور الى أحمد بن على حفيد أخيها وهو غلام .. فأصبح طبعاً طوع ارادتها هو وكل رجال دولته الا جعفر بن الفرات : فقد أحب أن يستأثر بالنفوذ فأغضبها وأغضبته .. فمال مع الأهلين الى التسليم لجوهر قائد جند المعز . وأما سائر الجند فكانوا يلتسمون رضاها ولا يرمون أمرا الا برأيها ..

وكانت جميلة ، لا تزال الملامح التركية ظاهرة على محياها ، لأن أباهاً فرغانى . ويظهر أنها لم تتزوج رغبة في استبقاء عصمتها في يدها ، فانصرفت بكل مشاعرها الى التمتع بالحياة والتماس النفوذ والشهرة ، فجعلت قصرها مقصدا لرجال الدولة . وكانت

في تلك الأثناء مشغولة الخاطر لما بلغها من عزم المصريين على التسليم ومعهم ابن الفرات ، لكنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك فعلا اذ لم تكن على بينة من حقيقة حال المواطنين ، ولا مقدار ما بلغوا اليه من الضنك . ولم يخطر لها انهم يجسرون على مخابرة الأعداء ، وكان ينبغي أن لا يفوتها ذلك .. ولكن حكام ذلك العصر لم يكونوا يحسبون للأمة حسابا ، وإنما يهمهم ابتزاز أموالها

أصبحت بنت الاخشيذ في ذلك اليوم ، وهي تتوقع أن يأتي رجال الدولة يشكون اليها ما فعله ابن الفرات . وقبل نهوضها من الفراش أتها المواشط والولائد يخدمنها فيما تحتاج اليه من الغسل أو ارتداء الثياب أو تزيين الشعر وتصفيفه .. قضين في ذلك ساعة وهن يتسابقن الى استرضائها بالاطراء أو المجون . وبينما هي في ذلك اذ أتها جارية تقول : « ان صاحب الرقيق يستأذن في مقابلة مولاتي »

قالت بنت الاخشيذ : « دعيه ينتظر في البهو الكبير ريثما أخرج .. وهل هو وحده ؟ »

قالت الجارية : « معه فتاة لعلها جارية »

قالت بنت الاخشيذ : « جارية سوداء ؟ »

قالت الجارية : « كلا .. بل جارية بيضاء جميلة ، لم أشهد مثلها قبل الآن .. »

فاهتمت بنت الاخشيذ بذلك الخبر ، وأمرت الماشطة أن تسرع في معاوتتها على ارتداء ملابسها ..

أما لمياء فكافت قد أقبلت مع ذلك النحاس على قصر بنت

الاخشيد ، وهو يمتاز بفخامة بنائه وبوقوف الحجاب ببابه ..
 فمرت اليه في حديقة طرقها مرصوفة بالحصى الملونة على أشكال الطير
 والوحوش ، فتقدمها النخاس وهى تتبعه الى داخل باب القصر ثم
 الى ردهة واسعة فرشت بالسجاد . وبعض السجاجيد عليها وشى
 جميل بأشكال الزهور أو بعض الحيوانات أو أبيات من الشعر .
 فاستقبلتها القهرمانة قيّمة القصر وعليها الأساور والدمالج ،
 وحول عنقها العقود حتى تكاد تنوء تحت ثقلها .. فقالت لمياء
 فى نفسها : « اذا كانت هذه القيّمة .. فكيف تكون السيدة ؟ »
 فدعتهما القهرمانة الى بهو الاستقبال ، فدخلا ولمياء تزداد
 شوقا لمشاهدة بنت الاخسيد .. وذهبت القيّمة لابلاغ الخبر
 وبعد قليل أقبلت السيدة وهى تجر رداءها الوردى وراءها ،
 وعلى رأسها عصاية مرصعة قلدت بها العالية أخت الرشيد ،
 وصفت شعرها تصفيفا خاصا لا يجسر أحد من أهل القسطنط
 على تقليده ، وشبكته باكليل من الذهب بصورة طائر ..
 وتمنطقت بمنطقة مزركشة لها عروة مرصعة على شكل الكرويم
 قلدوا به بعض ما على الآثار المصرية من الرسوم . وأدركت لمياء
 قدومها من حركة الخدم فى الدهليز ومما توضع من الطيب ،
 فوقفت ووقف النخاس وتقدم حتى أكب على يد الأميرة كأنه
 يقبلها ، وفعلت لمياء مثل فعله فظهر التكلف فى حركاتها لأنها
 لم تتعود مثل ذلك ..

ولما رأتها بنت الاخسيد وقعت من نفسها موقعا جميلا ،
 وأعجبها ما فى عينيها من المعانى السحرية .. وقد زادها الضعف

سحرا . فتقدمت الى لمياء ووضعت يدها على كفنها كأنها تحاول ضمها .. فاستأنست لمياء بها ، ووقفت مطرقة ، فأشارت اليها أن تجلس ، وجلست على مقعد من الأبنوس فرشته مكسو بالحرير وقالت : « من أين لك هذه الفتاة ؟ »

قال النخاس : « هذه هدية من عبدك يعقوب بن كلس ، رآها لا تليق . بأحد سواك نظرا لما هي عليه من الأدب والذكاء . وقد كلفني أن أنوب عنه في تقديمها »

فلما سمعت اسم يعقوب ، بدا على ملامحها شيء من الانقباض .. لكنها أظهرت الامتنان وقالت : « انها هدية نفيسة لا أظن يعقوب أهدي مثلها في حياته ، فالظاهر انه يلتمس منا خدمة بعد أن أغضب الوزير جعفر بن الفرات .. ان أولئك اليهود أمرهم عجيب ، قد قبلنا هذه الهدية مع الشكر .. بارك الله فيك » قالت ذلك ومدت يدها فأخرجت خاتما من إحدى أصابعها ودفعته اليه فتناوله وقبله ومضى . وظلت لمياء صامئة وقد أدعشها ما رآته من التباين العظيم بين حال الأمة المصرية وحال حكامها وأهلهم .. وقارنت بين بنت الاخشيذ بمصر وأم الأمراء في القيروان ، وترجع عندها قرب سقوط هذه الدولة .. وبينما هي في ذلك ، اذ أتى الحاجب فوقف قرب الباب فعلمت بنت الاخشيذ انه يريد مخاطبتها في أمر ، فأومأت اليه فتقدم فقالت : « ما وراءك ؟ » قال : « ان بعض القواد الاخشيذية يلتمسون المقابلة »

فاظهرت استنكافها وقالت : « دعهم ينتظرون » ونهضت وأشارت الى لمياء أن تتبعها وسألته : « ما اسمك ؟ »

فبغت وأوشكت أن تقول اسمها الحقيقي فبلعت ريقها
وقالت : « سَلَامَة يا سيدتى »

فقال بنت الاخشىد : « اسمك جميل » وصفقت ونادت
القهرمانة فأتت فقالت لها : « كيف ترين هذه الفتاة المغربية ؟ »
فنظرت اليها وهى تبسم وقالت : « ما شاء الله انها جديرة
بأن تكون فى قصرك »

قالت بنت الاخشىد : « فاليك هى .. اختارى لها غرفة خاصة
ولتسرح الآن .. »

فأشارت مطيعة ، وانصرفت لمياء تتبعها ، حتى أدخلتها غرفة
بها نافذة تطل على النيل ، فاستأنست بمجرى الماء .. لكنها لم
تأت الى ذلك القصر وتركب ذلك المركب الحسن لتستمع بالمناظر
الطبيعية ، فأخذت تفكر فيما ينبغى أن تفعل .. وتذكرت ان
الحاجب أنبا بنت الاخشىد وهى فى حضرتها عن قدوم بعض
القواد لمشاهدتها .. وهى فرصة ينبغى أن لا تفوتها والوقت
ضيق لا يأذن بالتأجيل ، فأخذت تفكر فى حيلة تمكنها من حضور
تلك الجلسة لعلها تستطلع شيئا

- ٦٤ -

الطعام

واذا بالقهرمانة قد دخلت وهى تنهذى فى مشيتها تبا ،
وتشمخ بأنفها عجا .. ولما دنت من لمياء وقفت لها تأديبا ، فقالت
القهرمانة : « يظهر انك وقعت من نفس مولاتنا موقعا جميلا لم

توفق اليه عادة قبلك » قالت ذلك وضحكت فبانت أسنانها متفرقة لأن الزمان ذهب بنصفها .. وكانت تلك القهرمانة جميلة في صباها ، ولكن حياة الرخاء أسمنتها .. وداهمت الشيوخة فجعلت جلدها طيات يتقطر العرق من بينها .. وإذا مشت خطوتين أحست بالتعب .. لكنها مع ذلك كانت خفيفة الروح ، فاستأنست لمياء بها وسرّها ما سمعته من اعجاب بنت الاخشيد ؛ لأن ذلك يحقق ما ترجو الاطلاع عليه أو الوصول اليه في سبيل خدمة المعز . فأطرقت وقالت : « ليس فئى ما يدعو الى اعجاب سيدتى الأميرة .. ولكنها ربما أشفقت على الضعف الظاهر في وجهى »

فقطعت القهرمانة كلامها قائلة : « ان هذا الضعف يزيدك جمالا . ولطفًا .. والآن فان مولاتنا الأميرة قد كلفتنى بأن أصلح من شأنك وآخذك اليها لتناولى الغداء معها »

فشغلها ذلك التلطف عن التفكير في أبى حامد ورفيقه . واشتغلت القهرمانة بالاصلاح من شأنها ، فأنتها بثوب من الحرير الناعم الملون نسيج مصر ، وعليه صور تأخذ بالأبصار وحوله منطقة مذهبة . وأخذت الماشطة في اصلاح شعرها وتضفيره على نسق خاص .. فضايقتها ذلك وتوسلت الى القهرمانة أن تعفيها من هذا التصنيف فأجابتها : « هكذا تريد مولاتنا » فقالت لمياء : « اسألها لعلها تعفينى لأن ذلك يضر برأسى »

فمضت ثم عادت وهى تقول : « وهذا دليل آخر على حب مولاتنا لك ، فانها سمحت بأن تكونى كما تشائين .. وأن تمرعى في الذهاب اليها فان المائدة قد أعدت »

فسرّحت شعرها بيدها تسريحاً بسيطاً وضفرته ضفيريّتين
 أرسلتهما الى الوراء ، الا خلاصاً صغيرة أرسلتها على الصدين ،
 وأبت الاكتحال أو التزجج ، وبين يديها جارية سوداء تحمل لها
 المرأة فنظرت الى وجهها فرأت انها أجمل مما كانت تظن . ثم
 مشت في اثر القهرمانه في دهليز يؤدى الى قاعة واسعة في
 صدرها دكة مرتفعة قد نصبت عليها المائدة ، ويشرف الجالس
 اليها على ضفاف النيل فيرى السفن رائحة غادية ، ووراءها
 جزيرة الروضة وفيها الأبنية الفخمة ، وفي جملتها المقياس ..
 ووراء ذلك شاطئ الجيزة الى الأهرام ..

والقاعة مفروشة بالبسط والسجاد مثل أكثر غرف تلك الدار،
 غير الأرائك والوسائد والمقاعد ، وكلها مذهبة أو مطعمة .. وقد
 أرخيت الستائر المزخرفة على الجدران التي تكسوها .. ومنها
 ستارة في عرض القاعة مرفوعة بأمراس من الحرير ترخى عند
 الحاجة فتحجب مجلس الأميرة عن سائر الجلوس . كانت هذه
 القاعة قد فرشت لعقد المجالس الكبرى ، فاذا حضرت بنت
 الاخشيذ المجلس أرخت الستارة المشار اليها ودار الحديث أو
 المفاوضة ولا يراها أحد من الحضور . وأجبت أن تتناول طعامها
 فيها في ذلك اليوم لأنها تشرف على النيل .. فوضعوا لها بجانب
 المائدة مقعداً مكسوا بالخز المطرز باسمها ، فجلس هي عليه
 والتفت بملاءة كالمطرف من القטיפه الحريرية ، وقد طرزت
 بالقصب ورصّعت بالأحجار الكريمة بأشكال بديعة تمثل شجراً
 وطيوراً وحيوانات أخرى ، وهي من جملة ما قلدت به نساء

العباسيين في ابان بذخهم .. ولعلها قلدت بها بساطا لأم الخليفة ، كانت عليه رسوم مطرزة ومرصعة تمثل صور جميع الحيوانات من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها من يواقيت وجواهر (١)

دخلت لمياء وبنت الاخشيذ متكئة على ذلك المقعد ، والمطرف على جنبها يأخذ لمعانه بالأبصار والمائدة بجانبها عليها الأطعمة . وقد وقف الخدم من الجوارى يحملن الأطباق فيها الحلوى أو الفاكهة . وهن في أجمل يكون من الأثواب وتصفيف الشعور الا لمياء فانها ظلت على بساطتها

فتقدمت القهرمانة أولا وأنبات السيدة بنت الاخشيذ بقدمها ودخلت سلامة « لمياء » وعليها ذلك الثوب الباهر الذي زاد وجهها اشراقا وهية . ولم تتمالك بنت الاخشيذ عند دخولها عن الاعجاب بها ، ووسعت لها مجلسا على المقعد .. ودعتها الى الجلوس بجانبها فجلست ، فرحبت بها ، وقالت : « ان هدية ابن كلس اليوم قد كفرت عن سيئاته وسيئات شيعته » وضمتها وقبلتها ولمياء مطرقة وقد زادها الحياء وقارا .. والحياء من أجمل ما تزدان به المرأة ، بل هو أجمل أثواب زينتها الحقيقية .. ثم طلبت بنت الاخشيذ الى لمياء أن تتناول الغداء معها . وأشارت الى خادم بيده طبق أن يضعه على المائدة بين يديها ، وفيه مكباج فتناولت قطعة وناولت لمياء قطعة تشجعا لها فاطاعتها ، وتناولت مما أعد من الألوان .. ولم يكن بينها شيء

لم تعرفه الا لونا في جام أنكرته ولم تستلذ طعمه . ولاحظت بنت الاخشيد ذلك فقالت : « يظهر أنك لم تستطىي هذا اللون مع ان الدرهم منه يكلف مئات الدنانير ، انه مصنوع من أدمغة نوع من الطير لا يوجد في غير مصر ، ونحن نثقف في جمعه الأموال الطائلة لأن دماغه كثير الغذاء .. واللحمة منه تغنى عن عدة أطباق من أطعمة أخرى »

ثم أمرت بالحلوى ، فأتوا بعشرات من أنواعها بين معاجين ومطبوخات وفاكهة . وكانوا يقدمون في أثناء الطعام باقات الأزهار الطبية الرائحة ، غير ما يرشونه في أرض القاعة من ماء الزهر أو العطر ، وما يحرقونه في المباخر المنصوبة بين الأبواب من الند أو العود ..

وكان في جملة ما قدموه على المائدة سائل محمر اللون « خمر » لم تعرفه لمياء ولا مدت يدها اليه ، بل هي حالما وقع بصرها عليه اقشعر بدننها لأنها تذكرت الشراب الذي ذهب بحياة أبيها .. على انها كانت تنظر الى ذلك كله بدهشة بالغة .. وتقابل بين ما كانت تراه من تقشف المعز وأم الأمراء والأموال عندهم في الخزان وسלטانهم في ابانه ، وبين ذلك الرخاء والبلاد في ضيق والناس يتضورون جوعا ..

وكانت بنت الاخشيد تأكل بنهم ولذة ، وتعجب لتعفف لمياء وتحسبها تفعل ذلك بسبب علة ، لأنها تعودت أن ترى غاية الانسان في دنياه أن يتمتع بالملذات على اختلاف أشكالها وضروبها .. ولا تتصور أن أحدا يمتنع عن لذة الا اذا عجز عن

نيلها ، ذلك شأن المنغمسين في الشهوات وهم يكثرون في أواخر الدولة قرب سقوطها .. اذ تذهب ملذاتهم العقلية أو الأدبية بذهاب مجدهم وتفوذهم ، فلا يبقى لهم غير الملذات البدنية .. فينصرفون اليها ، فلا تزيدهم الا ضعفا وانحطاطا .. ان ملذات الرجال في أوائل الدولة تتركز في النصر أو الفوز ، أو التسابق في الفتح ، أو الظفر بالمناصب وتقويمها وتوسيع دائرتها ، لا تهتم الملذات البدنية الا قليلا . فاذا ذهب المجد وأخذ أصحابه في الضعف ، لا تبقى سوى هذه الملذات ..

أمرت بنت الاخشيد برفع المائدة ، وقد امتلأت معدتها ، وانتفخت عروقها ، وأسرت نبضات قلبها .. وظهر ذلك في عينها ، واستلقت على ذلك المقعد . وأحبت لمياء أن تنتقل الى المقعد الآخر فأمسكتها وأقعدتها بجانبها ، وأخذت تحادثها .. فبدأت بالسؤال عن بلدها فقالت : « من أين أنت يا سلامة ؟ » فلم تعرف ماذا تجيب لأنها لا تريد أن تكذب ولا أن تقول من هي ، فأجابت جوابا وسطا فقالت : « انى من افريقية .. بلاد المغرب »

فوقع اسم افريقية وقعا شديدا على سمعها لأنه شغلها الشاغل منذ عدة أشهر ، فتصاعد الدم الى وجهها .. لكنها تجاهلت وابتسمت وقالت : « ان افريقية واسعة .. فمن أى قسم منها ؟ » فقالت لمياء : « ان الجوارى ياسيدتى لا يطلب منهن معرفة أنسابهن لأنهن ينتسبن الى موالينهن .. فأنا الآن في دار السيدة بنت الاخشيد ، وأنا أنتسب اليها وكفى »

فاستحسنست جوابها الدال على الذكاء ، وأجبت أن تغير
الحديث .. واذا بالحاجب قد دخل وقال : « القواد الاخشيديّة
لا يزالون في انتظار الاذن لهم بالمقابلة ياسيدتى .. »

فتأففت وهزمت رأسها وقالت : « اقلقوا راحتى بمقابلاتهم ..
ماذا أصنع لهم ؟.. هذا أميرهم أحمد فليقابلوه .. » قالت ذلك
ونظرت الى المياء ..

فأرت المياء أن لا تضيع هذه الفرصة ، فابتسمت بحجارة لبنت
الاخشيدي ، وقالت : « صدقت ياسيدتى ان هذه المقابلات
تزعجك لكنك تعلمين ان الرأس كثير الأوجاع ، ولولا ثقتهن
بتعقلك وسداد رأيك لم يطلبوا مقابلتك .. فاذا جاز لى أن أشير
عليك ، أرى أن تأذنى بدخولهم وتقومين بتشجيعهم وتوجيههم ..
فان أميرهم صغير السن »

فقطعت بنت الاخشيدي كلامها قائلة : « أحسنت يا سلامة ،
لكننى لا أستطيع مجالستهم الآن بعد الطعام .. فأرى أن أوجل
الاجتماع الى المساء »

فقال المياء : « ذلك لك اذا شئت .. لكننى لا أظنهم يلحون
فى طلب الاجتماع بك فى هذه الساعة الا وهم فى أشد الحاجة
اليه ، واذا استقلت الانتقال الى قاعة أخرى فادعهم الى هنا
وانزلى هذا الستار بينك وبينهم وخطبهم بما تريدن »

فأعجبها هذا الرأى كثيرا لأنه يمكنها من التحرر فى أوضاع
الجلس أو الاتكاء ، وقالت : « هذا الرأى صواب على شرط
أن تبقى أنت معى »

ففرحت لمياء بتلك الدعوة وهى غاية منها لکنها قالت :
 « اذا لم يكن بأس من وجودى فانى باقية حسب أمرک »
 قالت : « ان وجودک يؤنسنى .. ولا تستغربى ما تريه من
 اعجابى بک منذ أن رأيتک لأول مرة ، فانى لم أجد هذه
 الأخلاق فى واحدة من الجوارى ، فانت أميرة بأخلاقک » ثم
 التفتت الى الحاجب وقالت : « اذا شاء القواد فليتنفصلوا الى
 هنا » وأمرت بعض الخدم أن يرخوا الستار ، فأصبحت القاعة
 قاعتين بينهما ذلك الستار وهو من الديباج المطرز وفيه ثوب
 ترى منها من شئت من الجلوس ولا يرونها

- ٦٥ -

الجلسة

ولبث لمياء جالسة ، وهى تنظر من أحد الثوب كى تعرف
 الداخلين ، وما لبثت أن سمعت وقع الأقدام وقلقلة السيوف ،
 واذا بثلاثة رجال عليهم الملابس الفاخرة والعمام الصفيرة
 والدراعات المزركشة مما يلبسه كبار القواد .. وقد تقلد كل
 منهم سيفاً يجر الى جانبه ، ولما دخلوا ألقوا التحية فأمرتهم بنت
 الاخشيد بالجلوس وهمست للمياء : « هؤلاء ثلاثة من قواد
 جندنا المخلصين ويعرفون بالاخشيدية نسبة الى والدى الاخشيد
 رحمه الله »

فأظهرت لمياء الاعجاب .. فقالت بنت الاخشيد بصوت عال :

« مرجبا بقوادنا الأجلاء .. عسى أن يكون مجيئكم لأمر ينطوى على الخير .. »

فأبطلوا في الجواب هنيئة ، لاحظت لمياء في خلالها ان كلا منهم يدعو الآخر للكلام .. ثم تصدى أكبرهم سنا وقال : « اتنا جئنا لخير ان شاء الله ، ونأسف لأننا أزعجنا مولاتنا بمجيئنا .. ولكننا لم نر بدا من ذلك والعدو على الأبواب ، وهؤلاء الكافورية لا يزالون ينازعوننا على هذه الدولة .. وكنا نصب أن مبايعة مولانا الأمير أحمد توقعهم عند حدهم ، فيكشفون عن تعدياتهم .. فاذا هم على ما كانوا عليه ، يفسدون الجند ويوغرون الصدور علينا ، والوزير جعفر لم يردد الا استبدادا في الدولة ، وقد استولى على الأموال فلم يترك بيضاء ولا صفراء .. وقد بلغنا انه كتب الى العدو في أمر التسليم ، فهل ترضى مولاتنا بهذا العمل ؟ أم هو قد استخف بأمرنا لأنه صغير السن »

فقالت بنت الاخشيذ : « أنا لا أرضى بذلك .. هذا لا يكون أبدا ، نسلّم البلد الى العدو وعندنا الجند والقواد ؟ كيف يفعل الوزير ذلك ؟ .. لا بد من عزله »

فأجاب أحد القواد : « انما فعل ذلك بإيعاز الكافورية لأنهم على رأيه ، وقد ساءهم كما ساءه أن يعود الأمر الى نصابه ويتولى الملك أهله وأصحابه وقد خرج من أيديهم ، فأرادوا أن يخرج من يد أميرنا ولو صار الى عدونا » قال ذلك ولحنق باد في كلامه ولم تكذب بنت الاخشيذ تدبر كلامه حتى سمعت ضوضاء بباب القاعة ثم دخل بضعة رجال عرفت انهم من قواد الكافورية ،

وكانهم كانوا بالباب وقد سمعوا الطعن فيهم وأرادوا الدخول فمنعهم الحجاب .. فدخلوا قهرا ، وتصدى واحد منهم للكلام ووجهه الى الطاعن قائلا : « تقولون اننا أفسدنا الدولة وانها لكم وقد اختلسناها مدة .. اننا لم نختلسها ، ولولا أميرنا كافور - رحمه الله - لصارت هذه الدولة في خير كان ، فهو الذى حفظها ونظمها وثبت دعائمها من أول أمرها منذ تولاهـا مولانا الاخشيـد - رحمه الله - فقد كان له خير ناصـح ومشير .. ولو ظل كافور حيا الى الآن لم يجسر العدو على محاربتنا ، وها أنتم ولادة الأمر الآن فأخرجوا العدو من الدار »

فأجابه الاخشيـد : « نعم اننا نخرجهم اذا تركتمونا ولم تمالئوهم وتطلبوا الصلح معهم .. دعونا نردهم على أعقابهم » فصاح فيه قائـل آ نر : « ويحك تقول ذلك بجسارة بين يدي مولاتنا .. تقول ان نمالئ الأعداء ! »

فأجاب : « نعم .. انكم تمالئونهم ، ألم يكن الوزير جعفر سيدكم ونصير أميركم .. وهو الآن يخـاير الأعداء فى طلب التسليم ؟ ! »

فضحك ضحكة مصطنعة وقال : « انه يفعل ذلك برأينا .. ومع ذلك فقد أحسن صنعا ، ان دولتكم قد شاخـت .. واذا أنكرتم ذلك فهلموا الى العدو وحاربوه وأخرجوه .. »

فحـمى غضب الاخشيـدية وصاحوا بصوت واحد : « اننا لا نقبل هذه الاهانة وخصوصا بين يدي مولاتنا ومولاتكم » وتقدم أحدهم ويده على قبضة حسامه وقال : « والله لولا حرمة هذا

المكان لضربت أعناقكم بهذا الحسام وألحقكم بأمركم العبد
الأسود الذى تفاخرونا به . صدق فيه المتنبى .. » اشارة الى
هجنوه اياه ..

فتصدى رجل من الكافورية واستل حسامه وقال : « ويحك
تظعن فى الأموات .. انها وقاحة لم يكن لمولاتنا بنت الاخشيد
أن تسكت عنها »

وعلت الضوضاء فصفت بنت الاخشيد وصاحت : « ويحكم
ما هذا ؟ .. تتشائمون فى حضرتى .. وأغرب من ذلك أن نسمع
الظعن فى أسلافنا بأذانتنا ، هذا أمر لا نرضاه . وليس هذا وقت
الخصام والعدو بالباب .. وأتم يا أصحاب كافور ، ان كافورا
كان خادما أميناً - رحمه الله - فما بالكم تفاخرونا به ، أما
امارته فقد كانت فلتة اتحلها لنفسه أو اتحلها له بعض أصحاب
الأغراض وزعم ان الخلعة أتته من بغداد .. مالنا ولهذا الآن ؟ ..
انه خصام فى غير أوانه »

فوقف الكافورية جميعا ، وقال كبيرهم : « أما وقد سمعنا
هذه الاهانة من فم مولاتنا ، فلم يبق لنا الا أن نخرج وترك
الأمر لأصحابه وولاة أمره » قالوا ذلك وانسحبوا فى عجلة
والغضب باد فى كل حركة من حركاتهم

وكانت لمياء فى أثناء ذلك لا تردد الا ثقة بنجاح جند المعز ،
فقد رأت بعينها وسمعت بأذنيها اختلال أمور الدولة واقسام
قوادها وتباغضهم مما لا سبيل الى اصلاحه

فلما خرج الكافورية التفتت بنت الاخشيد الى لمياء كأنها

تستشهدا على هذه الواقعة وقالت : « أرايت أجهل من هؤلاء ؟
وبلاء .. كيف نحارب الأعداء ؟ ! .. انا لا تقوى على حربهم »
فاستبشرت لمياء بالفوز ، وقالت : « يؤلمنى ياسيدتى أن
تكونى قد نطقت بالصواب .. وعسى أن تكونى مخطئة »

وكان بنت الاخشيد قد ندمت على ما صرحت به ، فاستأثفت
الكلام قائلة : « بل مخطئة .. لا ، لا أريد أن أتصور ذلك ولو
في الحلم .. يدخل البلاد عدو غريب يتحكم في رقابنا ؟ ! » ورأت
انها كان ينبغي أن تستعطف الكافورية باللين وانها أخطأت فيما
قالت ، فأرادت أن تلقى التبعة على سواها — شأن ضعيف الرأي
في مثل هذه الحال — فالتفت الى الاخشيدية وكانوا لا يزالون
واقفين يتحدثون عما أتاه الكافورية ، وقالت : « لم يكن ينبغي
لكم أن تنجفوه بمثل هذا الكلام ، وهم اخوانكم وعليهم
المعول في الحرب فأغضبتموهم »

فأجابها أحدهم : « وأنت يامولاتنا تلقين هذه التبعة علينا ؟ ..
وقد سمعت الالهة التي لحقت بنا وبك وبسائر آل الاخشيد ..
فليكن ماثئين .. أو لعلنا أخطأنا بمبايعة الأمير أحمد مع صغر
سنه ، لكننا لم نفعل ذلك الا اعتمادا على نصرتك .. فاذا كنت
ترين اننا غير كفء لشيء فلنذهب » قال ذلك وتحول وتبعه رفاقه
فأحست بنت الاخشيد عند ذلك بضعف العزيمة وانها أصبحت
منفردة لا نصير لها الا اذا تذلت واستعظفت ، فاقبضت نفسها
وظهر الاقباض في وجهها .. وسكنت هنية ولمياء تراقب حركاتها
وتقرأ ما يجول في خاطرها . فلما رأتها على تلك الحال قالت :

« ما بال سيدتى يبدو عليها الضيق ؟ .. أمن أجل كلمة تنقبض نفسك ! »

فتنهدت وقالت : « آه يا سلايمة ليس من أجل كلمة ولكن هؤلاء لا يقدرون العواقب ، وقد خرجوا من هذه الجلسة خصوما يتوعد بعضهم بعضا ، وهم يدنا وساعدنا وجندنا .. فبمن نحارب عدونا ؟ لا نصلح ولا نستطيع أن نحارب .. ويلاء ما العمل ! »
ودمعت عيناها .. فأكبّت لمياء عليها ، وضمتها ، وقبّلتها ، وقد أشفقت عليها وقالت : « لأبأس عليك ياسيدتى .. لا تخافى »
فاستأنست بذلك الحنان وقالت : « كيف لا أخاف ؟ وإذا كان العدو قويا — كما يظنون — وقدّر له النصر ، فماذا يصينى ؟ »

قالت لمياء : « لا يصيبك شئ يامولاتى »
قالت بنت الاخشيد : « لا تلتفتى الأمر على .. »
قالت لمياء : « انى ألتفت ولا يجب مع ذلك أن تيأسى من النصر . ولكن هبى لا سمح الله ان العدو اغتنم هذا الضعف وتغلب ، فأنت فى أمان لأن هؤلاء المغاربة مع أنهم أعداؤكم فانهم أقرب الى الضن بكم من هؤلاء الجنود المتمرذين »

فأرت فى لهجتها شدة وعزيمة فقالت : « وكيف عرفت ذلك ؟ »
قالت لمياء « أعرفه بالاختبار لأننى من بلاد المغرب كما تعلمين ، وكان سيدى الأول له علاقة كبيرة بأهل القيروان ، وتعرف الى المعز وقائده . وكثيرا ما سمعته يتحدثون وعرفت طباعهم .. انهم أقرب الى الخير من هؤلاء الجنود و . . . »
فقطعت كلامها قائلة : « هل تعرفين المعز وقائده ؟ »

قالت لمياء : « نعم ياسيدتى أعرفهما معرفة جيدة وهما يعرفاننى أيضا »

فضحكت من السرور بهذه البشارة ، وأحست بنفوذ تلك الفتاة وأحبت أن تقول شيئا فمنعها الحياء ، وحالت دونه الانفة.. فأدركت لمياء غرضها فبادرتها قائلة : « انظرى يامولاتى .. ان ما لقيته من لطفك ومحبتك يوجب على أن أغار على مصلحتك فإذا أذنت لى أن أقول كلمة .. »

قالت بنت الاخشيذ : « قولى .. »

قالت لمياء : « انكم الآن فى حرب مع المغاربة ، وسمعت الآن ان ابن الفرات يسعى فى الصلح.. فإذا وفق اليه فكونى على ثقة من أنك ستكونين معززة مكرمة ، فانى أعرف أم الأمراء زوج المعز وهى من أطف خلق الله وتحبنى جبا جبا .. وإذا لم يفلح ابن الفرات فى الصلح واشتعلت نيران الحرب ، فإن المصريين إذا فازوا .. فأنت صاحبة السيادة طبعا ، وإذا غلبوا على أمرهم فأنا أفديك بروحى وأكون واسطة فى حفظ كرامتك وأموالك .. فاطمنى .. »

ففرحت بنت الاخشيذ بهذا الوعد ، ولكنها أحست بصغر النفس وندمت على تصريحها بما قالته ، وخشيت أن تستضعفها لمياء أو تحقرها فقالت : « ولكن الفوز لنا بإذن الله »

فقالت لمياء : « ان النصر من عند الله يؤتته من يشاء .. لكنى قلت لك ما أستطيع أن أخدمك به والأمر لله »
فضممتها بنت الاخشيذ الى صدرها ، وقالت : « انى أشكره ياعزيزتى على كل حال »

- ٦٦ -

جلسة أخرى

وكانت الشمس قد مالَت الى الأصيل، فتحفزت بنت الاخشيد للنهوض ، فوقع بصرها على قارب يجرى فى النيل بسرعة ، فالتفت لمياء وتفرست فيمن فيه .. فلم يطل تفرسها حتى رأت فيه جماعة فيهم أبوحامد وسالم ، فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وعلتها البغته وتوردت وجنتاها ، لكنها تجلدت وتجاهلت فقالت بنت الاخشيد : «هل ترين ذلك القارب؟ يظهر انه قادم إلينا وقد تعبنا اليوم من المقابلات » قالت ذلك ونهضت حتى أطلت من الشرفة ولمياء معها ، فرأتا القارب قد وقف عند المسناة بقرب باب القصر فقالت : « انهما قادمان إلينا بلا شك .. فهل أقابلهما ؟ »

قالت لمياء : « تسأليننى ياسيدتى ؟ انى لا أرى بأسا من المقابلة من وراء هذا الستار .. لعل مع القادمين خبرا جديدا ، فإذا أعجبنا استفدنا منه والا أهملناه »

قالت بنت الاخشيد : « لله درك من حكيمة عاقلة .. يا ليتنى ظفرت بك من قبل »

وبعد هنيهة جاء الحاجب يستأذن لرجلين من أعيان المغرب . فأذنت بنت الاخشيد فى ادخالهما ، وأخذ قلب لمياء فى الحفقان حتى خشيت أن تخونها عواطفها .. فتشاغلت بالالتفات الى النيل لئلا يبدو ارتباكها . ثم دخل الرجلان فرأت من وراء الستار انهما أبوحامد وسالم ، فجعلت تغالب عواطفها لترى ماذا يكون ،

وهي تتوقع أن ترى شيئا جديدا يتم لها به ما كشفته في تلك الجلسة ، وكان قد أقلقها ما سمعته من القبض على الحسين فلما دخلا ألقيا التحية كالعادة ، فأمرت لهما بنت الاخشيدي بالجلوس ورحبت بهما ، ولياء تنفرس فيهما قرأت سالما على غير ما تعرفه من الوسامة فظنت ان السفر قد غيرته .. والواقع ان ما عرفته من خيائه وغدره قد قتل كثيرا من هذه الوسامة في نظرها ، كما ان ضعف خلقه واندفاعه في تيار الخلافة والاثم ألقى ظلالا كثيفة كئيبة على ملامحه ..

فلم يكن غريبا ما ظهر لنا من تغير سحنه ، وقد مضت سنة وبعض السنة وهو ينقاد لأبي حامد ، ويتظاهر بما يريد له من المظاهر المختلفة .. أما أبو حامد فقد كان أقوى خلقا وأثبت عزيمه . يدلك على ذلك بقاءه على المطالبة بدم أبي عبد الله الشيعي دهر لا يرى لنفسه عنه متحولا ، رغم ما لقيه من القتل بصوره المختلفة ، وآخر صورة له كانت في أمر كافور .. وقد أوشك أن ينجح لو بقي كافور حيًا ، ولم يصب جند مصر ما أصابه من الانقسام . ومع علمه بانقسام الجند وضعفه ، فإن عزمه ظل ثابتا ، ولم يرجع عما عزم عليه منذ أعوام ، وهو يسوق سالما معه فيطيعه ويؤيد أقواله

فلما جلسا بعد القاء التحية ، قالت بنت الاخشيدي : « مرحبا بالضيوف من أين أنتم ؟ ومتى كان قدومكم ؟ »

قال أبو حامد : « أتينا الى مصر منذ بضعة أشهر .. ونحن من أمراء المغرب في سجناسه .. أصابنا ما أصاب سائر أمراء المغرب

من ظلم العبيدين ، ففتحوا بلادنا واستبدوا بنا ، وطلبوا إلينا التسليم فلم نقبل ، فأتينا إلى مصر لنعيش في ظل الاخشيديين حيث لا يقع بصرنا على أحد من أعدائنا ، ولعلنا نستطيع خدمة هذه الدولة . وقد بلغنا أمس ان دعاة الخلافة في المغرب زحفوا على مصر بقيادة المملوك الصقلي ، فصرنا نتوقع أن تجتمعوا لدفعهم لأن هذا الأمر يهمنا كثيرا ، وعدو عدوى صديقى.. لكننا سمعنا بما أصاب قلوب بعض القواد والوزراء من الخوف حتى تحدث بعضهم في طلب الصلح.. فدهشنا لهذا الضعف وأحينا أن نبرهن للجنود خطأهم فلم نر سبيلا أفضل من بنت الاخشيد، لأن الأمير حفيد أخيها وهو غلام فهي صاحبة الصوت الأقوى» وتحنح أبو حامد ومسح شاربه بيده وأرسلها على لحيته وحك أنفه وقالت بنت الاخشيد : « بارك الله فيك .. ولكن ما الذى

جئتنا به من أسباب الاطمئنان ؟ »

قال أبو حامد : « ان ماجئتك به يامولاتى انما هو أن أسعى في التوفيق بين القواد الاخشيدية والكافورية.. ولا يتحقق ذلك الا اذا أثبت لهم ان جنود المغاربة لا يستطيعون أن يفتحوا هذه البلاد ، لأن انقسامهم انما وقع بسبب خوفهم من الفشل ، وهذا طبيعى في كل زمان ومكان - لا يختصم شريكنا الا اذا خسرت تجارتها - فاذا برهنت لهم على يدك أن أولئك الدعاة لا يمكن أن يفتحوا مصر تشددوا واتحدوا وطرادوا العدو عن بلادهم » فأعجبت بنت الاخشيد بفصاحته وقوة حجته ونظرت الى لواء فوجدتها مصغية بكليتها .. ولم تقطن الى ارتباكها ، فقالت

لأبى حامد : « وما هو دليلك ؟ »

قال أبو حامد : « دليلي ان قائد جند المغاربة رجل اسمه جوهر الصقلى ، ولهذا الرجل غلام اسمه الحسين هو عزيز عليه .. وقد علم الحسين هذا بمال كنا قد خبأناه فى بعض الأماكن قرب سجلماسة لنستعين به على استرجاع ملكنا ، فاعتنم فرصة غيابنا وذهب بشرذمة من الجند ليستولى على ذلك المال .. لكن رجالنا هناك قبضوا عليه وأرسلوه إلينا مغلولاً ، فإذا شئت دفعناه إليك ليكون رهنا تهددون به أباه إذا توهّم أنه قادر على فتح مصر »
وتذكرت بنت الاخشيد قول لمياء انها تعرف المعز وقائده وسائر رجال الدولة فى القيروان .. فلما سمعت ما قاله أبو حامد عن الحسين بن جوهر ، التفتت إليها فوجدتها لا تزال شاحصة تتناول بعنقها لسماح بقية الحديث فقالت لها همسا : « هل تعرفين الحسين بن جوهر ؟ »

قالت لمياء « نعم أعرفه .. وأحب أن تأمرى باحضاره لئلا يكون هذا الرجل كاذبا »

قالت بنت الاخشيد : « وهل تعرفين هذين الرجلين ؟ »
قالت لمياء : « نعم رأيتهما فى القيروان وسمعت عنهما ما يضعف الثقة بهما .. فإذا أمرت باحضار أسيرهما لنراه كان ذلك أدعى الى الاطمئنان على صحة ما يقولان »

فالتفت بنت الاخشيد من وراء الستار وقالت : « أين هو ذلك الأسير ؟ »

قال أبو حامد : « هو عندنا .. وإذا شئت مولاتى أتيناها به »

قالت بنت الاخشيد : « افعل .. ولك الفضل »
 فأشار أبو حامد الى سالم أن يمضى لاستقدامه ، فمضى
 ولبت لمياء على مثل الجمر تتماسك وتتجلد لئلا تغلبها عواطفها ،
 وهى تحب أن يكون كاذبا فى قوله فيكون الأسير المزعوم رجلا
 آخر ، لكنها ما لبثت أن سمعت ضوضاء قرب الباب وسالم
 يقول : « تقدم يا جبان لتراك مولاتنا بنت الاخشيد »

فتطاولت لمياء بعنقها حتى وضعت عينها على ثقب الستار ،
 واذا بالحسين نفسه داخلا والأغلال الحديدية فى عنقه ويديه ،
 ولكنه مشى بقدم ثابتة والتفت الى سالم وقال له : « متى رأيتى
 أحاول الفرار حتى تدعونى جباناً ؟ »

فالتفت بنت الاخشيد الى لمياء لتستطلع رأيها فى الرجل ،
 فقرأتها ترتعد وقد احمرت عيناها وكادت تغلب على أمرها فقالت :
 « هل هذا هو الحسين كما يقولون ؟ »

فأشارت برأسها أن « نعم » ولم تفه بكلمة لئلا يختنق صوتها
 فينفضح أمرها ، فاستغربت بنت الاخشيد ما بدا من اضطرابها ،
 لكنها وجهت خطابها الى الحسين قائلة : « هل أنت الحسين بن
 جوهر قائد جند المعز ؟ »

فأجابها وهو رابط الجأش ثابت الجنان : « نعم أنا الحسين بن
 جوهر فاتح افريقية وقائد جند المعز .. وسيفتح مصر عن قريب »
 فوخزه سالم بيده وقال : « اخرس يا نذل .. أبمثل هذه
 الوقاحة تخاطب مولاتك ؟ »

فرفسه الحسين برجله وقال : « اخرس أنت ... انها مولاتك

أنت .. ولعلها لو عرفتك لتبرأت من هذه الولاية . أما مولاي فهو المعز لدين الله الفاطمي »

فتصدى أبو حامد للكلام ، وهو يضحك ضحك الاستخفاف وقال : « ألا تزال تسمى ذلك الدعي فاطميا وفاطمة بريئة من نسبه .. »

فقال الحسين : « انه فاطمي رغم خيانتك وغدرك »

فقال بنت الاخشيد : « الذي أوقعك في هذا الأسر ، ما كان أغناك عنه »

قال الحسين : « وقعت فيه تفانيا في خدمة مولاي المعز وقد فرت والحمد لله بما أردت .. فأخذت المال الذي خزنوه في فيج الأخيار وبعثت به الى القيروان ، وهو الآن مع والدي وقد صبوه قطعا كالأرجية حملوها معهم على الجمال .. »

قال أبو حامد : « لا تكذب .. »

قال الحسين : « انما الكاذب أنت .. اني قد فعلت ما طلب مني وأرسلت ذلك المال الى مولاي المعز ، وسيستعين به في فتح مصر .. ولا يغرنك ما أتاه رجالك من الخيانة في القبض على ، فإن ذلك لن يضرني .. فقد أديت واجبي ، وإذا مت الساعة فلا أبالي .. فإن الأعلام الفاطمية لا تلبث أن تخفق فوق القساطر ، وإذا لم أوفق الى رؤيتها وأنا على قيد الحياة فإن عظامي سترها وتفرح بها .. »

فأعجبت بنت الاخشيد بتلك الجسارة التي لم يسبق أن شهدتها ، ولا سمعت بمثلها .. لما نشأت عليه من الحمول

والرخاء ، فالتفتت الى لمياء فرأتها مع عظم تأثيرها قد غلب البشر على حيائها فقالت لها همسا : « استغرب ما أسمع »

قالت لمياء : « لا تستغربى ياسيدتى .. فان ذلك شأن أولئك القوم ، وهم لم يفتحوا افرقية الا بمثل هذا التفانى .. »

قالت بنت الاخشيد : « وبرغم ما سمعته من هذا الشاب ، فانى شعرت بعطف اليه.. ولم يعجبني تطاول هذا السجلماسى . فلم تتمالك عن الانتصار لجبيها فقالت : « فكيف لو علمت الفرق بين الرجلين فى الأخلاق ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « هل تعرفين شيئا عنهما ؟ »

قالت لمياء : « ان أهل القيروان يتحدثون بذلك .. أما الآن فاذا شئت فمرى أن يكون هذا الأسير فى دارك ، ولينصرف الرجلان ثم ترين ما يأتى به الغد »

قالت بنت الاخشيد : « أحسنت رأى .. وقد أصبحت لا أطيق أن أرى الحسين مغلولاً » وصفت فأتى أحد غلمانها فقالت : « خذ هذا الأسير الى غرفة يقيم فيها حتى ننظر فى أمره ، لكن احلل وثاقه اذ لا خوف من فراره »

فأمسكه الغلام بيده وخرج ، فوقع هذا العمل من لمياء موقعا جميلا وكاد قلبها يطير من الفرح . ولاحظت بنت الاخشيد ذلك عليها ، فظنت أنها فعلته لشعور مثل شعورها فعذرتها .. والتفتت الى أبى حامد وقالت : « سننظر فيما عرضته علينا .. وسأقص ما سمعته على قوادنا فعسى أن ينفعنا ذلك » ففهم أبو حامد انها تطلب انصرافهما فنهض وخرج مع سالم ، وقد

أسقطا في أيديهما ، وان لم يفهما ما جال في خاطرها

- ٦٧ -

الرأى

وفهضت بنت الاخشيد للحال وهى تشاءب وتقول : « ما أكثر شغل هذا اليوم وما أثقله ، فقد تعبت من المفاوضات .. أن هذا لا يستطيعه الا كبار الرجال وقد أخطأنا بتولية هذه الامارة غلاما صغيرا »

فنهضت لمياء معها ، وقد غربت الشمس ، وأخذت الظلال تتكاثر وتتحول الى ظلام . وأصبحت تود الاختلاء بنفسها للتفكير فيما تراكم فى ذهنها من الحقائق الجديدة ، وما أصاب قلبها من الصدمات المتوالية .. فرأت بنت الاخشيد قد تحولت الى غرفتها ، وأشارت اليها أن تتبعها فأطاعت .. وقد أدهشتها تلك الغرفة بما فيها من الرياش الثمين ، وفى صدرها سرير من الأبنوس المطعم بالعاج والذهب ، فوقه فاموسية من الحرير الشفاف «الملس» وكل ما فى الغرفة زاه زاهر على عكس ما فى قلب صاحبه المسكينه ، فانها غادرت تلك الجلسة وقد تراكمت عليها الهموم والمخاوف.. ولم تكن تشعر بشئ من ذلك قبالا . وأصبحت شديدة التعلق بلمياء ولاسيما بعد ماأنسته من تعقلها والخدمة النافعة التى عرضتها عليها ، فأحبت أن تستوثق منها .. فجلست على سريرها ، وأمرت لمياء أن تجلس بجانبها .. فجلست وهى تفضل الخلوة لكنها أطاعتها ، ولاحظت ما هى

فيه من القلق فاشتركت معها في احساسها وشعرت بأنها قد امتلكت قلبها .. ظلتا هنيهة صامتتين وبنت الاخشيد مطرقة ويمناها على كنف لمياء ، واليسرى على قلبها كأنها تتقي صدعا أصابه .. ثم تنهدت ونظرت الى ما حولها لتتحقق من خلو المكان من الناس ، ثم التفتت الى لمياء وضمتها الى صدرها وقبلتها في عنقها وأطالت تقييلها ، فشعرت بشيء ساخن يلمس عنقها .. فأجفلت وعلمت أن بنت الاخشيد تبكى وهي تجبس أنفاسها لئلا تلاحظ لمياء ضعفها ، فتلظقت لمياء ورفعت رأسها وضمتها وهي تقول : « ما بالك ياسيديتي ؟ خففى عنك .. انى لا أرى باعثا على ذلك . ومن كان فيما أنت فيه من الوجاهة والنفوذ لابد أن يتعرض لمثل هذه المشاكل »

رفعت رأسها وتنهدت ثانية ، وقالت : « لا تعجبنى من اظهار ضعفى أمامك فى أول يوم عرفتك فيه .. فانى أشعر كأنى أعرفك منذ أعوام .. وقد اطلعت على حالنا الليلة فأشيرى على ، أشيرى يا حبيبتى .. »

فسرّت لمياء من ثقة تلك المرأة بها .. وأحسّت فعلا بالمطف عليها ، واستغربت تحولها بهذه السرعة عما كانت عليه من الزهو والفيه حين قابلتها فى ذلك الصباح .. وشاركتها البكاء ولم يكن أسهل عليها من ارسال الدمع فان مصائبها تتوالى واحساسها حى ، فقالت : « هو منى عليك يامولاتى .. فانى لا أرى باعثا على هذه الشكوى ، ولقد أوضحت لك ما أستطيع أن أخدمك به .. وقد فتح لنا باب جديد بوجود الحسين بن جوهر أسيرا

فى قصرىك وتحت رعايتىك ، ولا ينفعك أن تثقله بالقيود والأغلال
فان ذلك لا يؤذيه .. ولا أقول لك أطلقه فان فى ذلك خيانة
لبلدك ، ولكننى أقول لك لأطلقه واحسنه وفادته .. فاذا قدر
النصر لجند مصر كان الحسين هذا من جملة أسرى الحرب .
واذا فاز القروانيون وانهزم المصريون ، عرف الحسين فضلك
وسعى فى المحافظة على سلامتك وصيانة كرامتك »

فدهشت بنت الاخشىد لهذا الرأى الذى لا يقبل التعديل
فقلت : « بورك فيك .. ولعلك علمت انى غضبت لهذا الشاب
من تلقاء نفسى ، وساءنى ما آتاه ذلك السجلماسى من الفظاظة
فى معاملته .. وشعرت بما علمته منك بعد ذلك من التباين فى
أخلاقيهما ، فأنا ميالة الى محاسبة الحسين وسأفعل »

فأطرقت لمياء لحظة ثم قالت : « وعندى رأى أظنك توافقينى
عليه .. اعنى انه اذا صارت حالنا الى الخطر ، استكتبناه خطابا
الى أبيه فى الوصاية بك وبمن فى دارك »

فأظهرت امتنانها .. ونهضت لمياء تظهر رغبتها فى الانصراف
فأحست بنت الاخشىد انها أتعبتا فى ذلك اليوم ، فنهضت
وودعتها بقبلة وقالت : « اذهبى الى فراشك يا عزيزتى
واسترىحى فقد أتعبتك فى هذا اليوم »

فودعتها وانصرفت الى غرفتها وقد امتلا صدرها آملا بالفوز ،
وأصبح همها أن تنقل ما شاهدته من فساد أحوال الدولة
ولجند الى يعقوب حتى ينقله الى معسكر جوهر بالاسكندرية ،
فلبثت تترقب الفرص ..

أما الحسين فانه كان قد ذهب الى فج الأخيـار مع فرقة من
الفرسان ، وتمكن من اخراج الأموال وارسالها الى القيروان ، ثم
غافله حراس ذلك المخبأ واستفردوا به ففقروا فرسه .. وبعد
معركة جاهد فيها جهاد الأبطال تكاثروا عليه حتى سقط ، فشدوا
وثاقه ووضعوا الأغلال في يديه ورجليه وعنقه ، وبعثوا به الى
أبي حامد بمصر ولم يخبروه انه تمكن من أخذ المال قبل القبض
عليه .. أو لعلمهم أخبروه وتجاهل ، ثم وصل الحسين بأغلاله ..
ومصر في تلك الحال ، فرأى أبو حامد أن يتخذ طعمة لمسايعهم
فحمله الى بنت الاخشيد كما رأيت .. لكنه أحس قبل خروجه
من حضرتها انه لم ينجح في ذلك التدبير ، ولكنه تجاهل أمام
سالم .. وأوهمه أنهما سيظفران بما يريدان عن قريب ، وان الجند
القيرواني سيعود منهزما . وكان يحسب أن التوفيق بين الجنود
أسهل مما رآه على أثر ذلك النزاع في مجلس بنت الاخشيد

أما الحسين فشعر انه سيق الى ذلك القصر لحسن حظه ..
واستبشر بحل أغلاله .. فبات تلك الليلة مرتاحا ، وفي صباح
اليوم التالي أتوه بثياب نظيفة ، وفرشوا له احدى الغرف ،
وخصصوا له خادما للقيام بما يحتاج اليه من طعام وشراب ، كل
ذلك باسم السيدة بنت الاخشيد .. فلم يكن ينقصه شيء غير
الخروج من ذلك القصر ، فقد كان ذلك محظورا عليه .. فكان
يقضى أوقاته مفكرا فيما مر به ، ولم تبرح صورة لمياء من
ذهنه . ولم يكن يعرف الى أين ذهبت ، وكلما تصور معاملة سالم
وأبي حامد له يغضب ويتوعد . وكان وهو في أثناء الطريق قد

علم بحيلة أبيه على مصر ونزوله الاسكندرية ، وسمع وهو في قصر بنت الاخشيدي أن بعض المصريين خابروه بشأن الصلح والتسليم وودء لو انه مطلق ليشارك في المعارك . وبقدر ما كان من نعمته على أبي حامد وسالم - بل وبأكثر منه - كان امتنانه من بنت الاخشيدي لآكرامها إياه بغير سبب يعرفه

وبعد أيام جاء رسول يدعوه الى مقابلة بنت الاخشيدي في قاعتها ، فلبس ثيابه وصعد .. فأدخله الحاجب الى تلك القاعة ، ونادى السيدة من وراء الستار قائلاً : « هذا ياسيدتى الحسين بن جوهر في حضرتك .. وها أنا خارج وقد تركته وحده كما أمرت » فتقدم الحسين وألقى التحية فردت السلام وقالت : « كيف ترى نفسك يا حسين ؟ »

قال الحسين : « أرانى مقيداً .. ! »

قالت بنت الاخشيدي : « ألم تحل قيودك ؟ »

قال الحسين : « بلى وهذا فضل لا أنساه لك ، وقد فعلت ما هو جدير بالكرام ، ولكننى لا أزال أرانى مقيداً .. انى كالحبس في هذا القصر »

قالت بنت الاخشيدي : « لا ألومك لضجرك من هذا الحبس ، ولكن لو كنت في مكاننا هل كنت تفعل غير ذلك ؟ ان أباك حامل علينا بخيله ورجاله وقد وقع ابنه في أيدينا ، وبلغنا انك من خير القواد ، فهل نطلقك لتكون عوناً لعدونا علينا ؟ ألايكفى اننا حللنا قيودك وأطلقنا لك الحرية وقمنا بما تحتاج اليه من أسباب الراحة ؟ » فأعجب بتلك الحجة الدامغة وقال : « لا أنكر فضلك يامولاتى

والحق يقال اننى لا أنسى هذا الجميل .. والدنيا دول ..
 فقالت بنت الاخشيذ : « عسى أن تنتهى هذه الحرب بالصلح ،
 ونجتمع على مودة .. وقد بعث اليك الآن لأطمئن على
 راحتك ، فاذا كنت ترى تقصيرا فيما تحتاج اليه فأخبرنا »
 قال الحسين : « كلا .. انى لا أرى تقصيرا قط .. »
 قالت بنت الاخشيذ : « تقدم قليلا لأقول لك كلمة »

فتقدم حتى دفا من الستارة فقالت له : « سأرسل اليك بعد
 قليل جارية من عندى اسمها سلامة ، تطلب منك أمرا فاقضه
 لها .. وقد لا أحتاج الى ارسالها ، فاذهب بسلام »
 فتراجع حتى فتح الباب فلقية الحراس فرافقوه الى سجنه
 باحترام واکرام ، وقد شغل باله ما اقترحته عليه .. وكان ذلك
 بتدبير من لمياء لزيادة اطمئنانه ، حتى اذا احتاجوا الى كتاب
 توصية لا يكون ثمة مانع من الاجابة فى الحال ..

- ٦٨ -

الحرب

قضت لمياء أياما وهى تعلم بقرب الحبيب وقدرتها على الوصول
 اليه ، لكنها لم ترض أن تلقاه لأنها عاهدت نفسها على الصبر حتى
 تنتهى الحرب .. وهى تخشى من جهة أخرى اذا عرف الحسين
 بوجودها هناك أن يحدث ما يمرقل مساعيها ، فتجلدت وهى
 تبحث طبعاً عن راحته وسلامته .. وبرغم شجاعتها ورغبتها فى أن
 يشترك الحسين فى الحرب ، فقد كانت فى قرارة نفسها تميل الى

أن يتفادى خطر الحرب .. وكانت على ثقة من قدرة جند المعز على الفتح بدون الحسين ، فلماذا تعرضه للسهم ؟ وقد يجئ سهم يصيب منه مقتلا وهي حريصة على حياته . وفي ذلك من التعقل والحكمة والتسلط على العواطف ما هو جدير بلمياء . لكن الفرصة لم تبطئ ، فقد أفاقت ذات يوم على أصوات المنادين في أسواق القسطنطينية .. وكانوا لا يفعلون ذلك الا لأمر هام يريدون نشره سريعا مما يعلن عنه في الصحف أو يدعون في المنشورات الرسمية في هذه الأيام .. فكانت حكومة ذلك العصر تذيعه عن طريق المنادين .. فسمعت لمياء صوت المنادى وله لحن خاص ينادى به ، وعبارات خاصة ينادى بها ، تدل على فحوى ما بعده .. كما يقرأ الكتاب من عنوانه

سمعتة يقول : « يا أهل القسطنطينية قد جاءنا عدو من افريقية يتعدى على بلادنا بلا ذنب اقترفناه سوى طمعه في الاستيلاء علينا . وبلغ مولانا الأمير ان بعض الخوثة المارقين أغرى جماعة من الأعيان على التسليم ، وكتبوا بذلك كتابا بعثوا به الى الاسكندرية . فاعلموا أن هذه الخديعة انما الغرض منها الايقاع بالدولة . واعلموا ان الأمير أعزه الله وسائر رجال الدولة والقواد الاخشيدية والكافورية والأتراك وغيرهم لا يقبلون الصلح أو التسليم ، وانما يتحاكمون الى السيف .. ولذلك وجب الاعلان حتى يكون الناس على بينة فلا يخدعون بقول ولا يصغون لو شاية . وهذه جنودنا المظفرة قد خرجوا بمضاربهم الى شاطئ الجزيرة للالقاء العدو .. اذ جاءت الأنباء انهم يتقدمون الى

هناك ، فيا أهل القسطنطينة عليكم أن تأخذوا بأيدي الجند وتقدموا ما في طاقتكم من المعاونات المالية .. تقدمونها الى من يأتيكم من عند الوزير أو الأمير ، ولا تضنوا بالمال فانه أقل ما يبذل في سبيل الدفاع عن الدولة والملة .. والنصر من عند الله يؤتاه من يشاء وهو على كل شيء قدير .. »

فأطلت لمياء من نافذة عالية تشرف على الشارع ، فرأت ذلك المنداد يسير وراء الجماهير من الرجال والأولاد ، وقد علت الضوضاء وساد الاضطراب . فقالت في نفسها : « لابد أن يكون لذلك اللعين أبى حامد دخل في جمع قلوب الجند على الدفاع ، ولكن سعيه سوف يذهب عبثا .. فالقلوب متافرة والنيات فاسدة والضغائن متبادلة »

وبينما هي في ذلك إذ أتها القهرمانة تدعوها الى بنت الاخشيده فأسرعت فأتها جالسة في شرفة من ذلك القصر ، تطل على النيل وما وراءه الى الجيزة فابتدرتها لمياء قائلة : « يظهر ان ذلك السجلماسى قد أفلح في جمع قلوب الجند . انظرى كيف يعبرون النيل في القوارب الى الجيزة .. وهذا الجسر بين القسطنطينة والروضة يكاد ينكسر من تراحم الأقدام عليه ، ولا بد أن يكون الجسر الآخر بين الروضة والجيزة كذلك أيضا . وهذه الجسور مصنوعة من السفن متجاورة جنباً لجنب .. وفوقها ألواح من الخشب وطبقة من الرمال والحصى يتوهم غير العارف انها ضعيفة وهي متينة .. هل ترين معسكر الأعداء ؟ .. انى لا أراه »

وكانت لمياء في أثناء ذلك تبحث ببصرها عن ذلك المعسكر، ولم

تكد تفرغ من كلامها حتى ظفرت بمكانه ، فصاحت :
 « انظري ياسيدي الى ذلك الغبار المخيم الى اليمين والأعلام
 تخفق من خلاله ، وقد نصبت الحيام والفساطيط .. هل ترينها ؟ »
 فقالت وقد امتقع لونها : « نعم قد رأيت ويظهر انهم جند
 كثير .. ما العمل الآن ؟ .. ماذا ترين ؟ .. هل تظنين ان جندنا
 سوف ينتصر ؟ »

قالت لمياء : « أما سمعت قول المنادى ان النصر من عند الله
 يؤتية من يشاء ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « وما العمل الآن ؟ »
 فقالت لمياء : « أما نحن هنا فلا خوف علينا كما قلت لك
 قبلا .. »

قالت بنت الاخشيد : « هل أخذت الكتاب من الحسين ؟ »
 قالت لمياء : « هذا وقته .. هل تأذنين لى بتدبير ذلك ؟ »
 قالت بنت الاخشيد : « افعلنى .. ولكن من يوصله الى القائد
 جوهر ؟ »

قالت لمياء : « أنا أوصله .. اطمئنى ، وانما أحتاج الى ثوب
 أتكر به فى زى الرجال .. فمرى لى بذلك وبفرس أركبه »
 قالت بنت الاخشيد : « وهل تستطيعين ركوب الخيل ؟ »
 قالت لمياء : « نعم .. وقد تعودت على ذلك منذ صباى »
 فأمرت لها بما طلبته ، فلبست ثوب أحد الجنود وتلشت ونزلت
 الى الحسين .. وقلبها يخفق من هول ذلك اللقاء ، لكنها صمت
 على التكتّم ..

وكان الحسين قد سمع المناذرة كما سمعها غيره ، وأصبح كالأسد الهائج حينما يرى الفريسة وهو مقيّد . وقد جلس على سريره منفردا .. وإذا بذلك الجندي قد دخل عليه ، فقال :
« من أنت ؟ وماذا تريد ؟ »

فخفضت لمياء صوتها ، واجتهدت في تغييره ، وقالت : « أنا سلامة الجارية ، أتيت لأطلب اليك ما وعدت به مولاتي بنت الاخشيذ .. »

فقال الحسين : « وما ذلك ؟ »
قالت لمياء : « أن تكتب خطابا الى والدك تقول فيه اذا قدّر له النصر ودخل القسطنطينية فأمر رجاله بحماية هذا القصر جزاء ما لقيته من رعاية أصحابه .. هل تفعل ؟ »

قال الحسين : « نعم .. ان لصاحبه فضلا على أن أنساه .. »
قال ذلك وتناول قوطاسا وكتب بخطه رسالة في هذا المعنى ودفعها الى لمياء .. فتناولتها وأسرعت في الذهاب خوفا من أن تغلب على أمرها ويتسلط قلبها على عقلها . وركبت جوادها وخرجت تخرق الصفوف تطلب منزل مسلم بن عبيد الله .. وهي تراقب ما تراه من أحوال الناس في أثناء تلك الغوغاء . فرأت تلك الحماسة مقصورة على الجنود ، وانهم قد اتخذوا ذلك النداء ذريعة لابتزاز الأموال . والمصريون لا يريدون حربا لأنهم ملّوا استبداد هذه الدولة ومالوا الى استبدالها بدولة أخرى ، قد تكون أكثر استبدادا منها .. لكنهم يحبون الجديد . فرأت بعض الجنود يسوقون جماعة من أعيان التجار ويضربونهم ويهينونهم لأنهم لم

١٩ - فتاة القيوان

يؤدوا الاعانة والناس يصيحون ويستغيثون ويشكون فراغ جيوبهم . ثم أجفلت لسماعها صوتا كصوت سالم ، فالتفتت فرأته ومعه عنه في جماعة من القواد سائرين على أفراسهم نحو الروضة ، وهم يحرضون الناس على الطاعة . وسمعت سالما يقول لبعض الأغنياء من الأهليين ، رآه يستغيث من تطاول الجند عليه في طلب المال : « اخرجوا الأموال فان هذا الجند يدافع عن أرواحكم وأموالكم .. ألا تسعفونهم بالمال على الأقل ؟ » فعلمت ان لهذين الرجلين دخلا في جمع كلمة الجند ونقض الصلح .. وبعد قليل وصلت الى بيت الشريف مسلم ، فرأت بابه مزدحما بالناس بين راكب وواقف ، وأكثرهم من الأهليين جاءوا يتظلمون أو يهتمون به ، وسمعت تقمتمهم على الجند وغضبهم لنقض الصلح فاخترقت الصفوف حتى وصلت الى الباب ، فوسّعوا لها رغم ارادتهم ، وهم يحسبونها جنديا جاء لمصادرة أو اغتصاب ، حتى دخلت من الباب وطلبت أن ترى الشريف ، فقبل لها انه في شاغل .. فقالت : « قد جئت في رسالة عاجلة »

- ٦٩ -

الرسالة

فوسّعوا لها حتى دخلت عليه بعد أن ترجّلت وسلمت الجواد الى أحد خدمه .. وكان مسلم مختليا في غرفته مع بعض الأعيان والتجار ، وقد علت أصواتهم من النقمة على نقض الصلح . فلما قيل لهم : جاء أحد الجنود ، سكتوا .. فدخلت لمياء

بلثامها ، وأشارت الى مسلم انها تريد مقابلته على حدد . فدخل معها الى غرفة فأوصدت الباب ورائها ثم أزاحت اللثام ، فدهش لرؤيتها وقال : « ما وراءك ؟ .. من أين أتيت ؟ .. »

فقصّت عليه حكايتها .. وأخبرته عن وجود الحسين في القصر بمأمن ، وانها احتالت في المجيء اليه بحجة تلك الرسالة ، وانما غرضها أن تبلغ القائد جوهر عن حال الدولة من الاختلال والضعف حتى لا يخدع بهذا الصباح .. فأعجب الشريف بحميتها وبسالتها ، وقال : « لله درك من فتاة مخلصه بأسلة ، هل تريدن الذهاب الى القائد بنفسك ؟ »

قالت لمياء : « نعم .. لأنني أستطيع بذلك أن أزيده يسانا وتوضيحا .. »

قال مسلم : « تفعلين حسنا وسيفرح بلقائك لأنك تنقلين اليه خبر الحسين ، وانه على قيد الحياة .. وقد سبق أن سمع بوقوعه في الأسر ولا يدري أين هو .. »

قالت لمياء : « أين المعلم يعقوب ؟ »

قال مسلم : « ألم تسمعي بما أصابه ؟ »

قالت لمياء : « كلا .. ماذا جرى له ؟ »

قال مسلم : « ان الوزير بن الفرات قبض عليه بسبب أربعة آلاف وخمسمائة دينار عرف بوجودها عنده ، وأراد قتله فالتجأ اليه مدة ثم فرّ الى معسكر القائد جوهر (١) وقد حملته ما استطعت من الأخبار والملاحظات . ولكن رسالتك أعظم أهمية عنده لأنك استقيت الخبر من مصادره .. اركبي ، وسأرسل

معك بعض رجالى .. ليس خوفا عليك ، ولكن لأنك لا تعرفين الطريق .. فيدلونك عليها »

فقبلت ذلك منه وخرجت فامتطت فرسها ، وركب معها بضعة من رجال الشريف ، وساروا يطلبون معسكر القائد جوهر من الخلف .. فقطعوا جسرا على النيل قبيل الغروب . وكان رفاقها قد عرفوا فسطاط جوهر ، فساروا توا لايترضهم معترض

وكان جوهر جالسا فى فسطاطه ، وقد أوقدت الشموع واجتمع قواده حوله ، وهم جلوس ، وجوهر مطرق يفكر فى مصير ابنه الحسين . وكان قد سمع من الذين حملوا اليه الأموال من فج الأختيار أنه تخلف عنهم .. ولعله قتل أو وقع أسيرا . وبينما هم فى ذلك ، اذ دخل الحاجب وقال : « ان بالباب رسولا من الفسطاط يشترط أن يلقي القائد فى خلوة »

فأشار الى الحضور بالانصراف وأمر بادخال الرسول ، فدخلت لمياء بثوبها ولثامها ، وأزاحت اللثام وأكبّت على يده تقبلها فلم يتمالك عن النداء : « لمياء .. لمياء .. »

فأشارت بأصبعها على شفتها أن يكتم أمرها ، فضمها الى صدره كأنها ابنته وهو يحبها كما يحب الحسين . لكنه تذكر الحسين ، فاقبضت نفسه ، وكادت الدموع تترقق فى عينيه ، فقالت : « جئتك ياميدى ببشرى مزدوجة »

قال جوهر : « وما هى .. ؟ قولى .. »

قالت لمياء : « الأولى ان سيدى الحسين فى أمان ، ولو عرفنى عندما أعطانى رسالته هذه اليك لكلفنى أن أبلغكم التحية .. »

ولكننى اضطررت للتكر .. والثانية ان عدوكم الذى يحاربكم
وتسمعون صياحه ونداءه .. أشبه بالقصبة المروضه أو الطبل ،
صوته قوى وقلبه فارغ »

قال جوهر : « بارك الله فيك يا لمياء .. جئت ببشارتين
سارتين ، أهمهما بقاء الحسين على قيد الحياة .. بعد أن يست
من وجوده .. ولكن أين هو؟ وكيف عرفت ذلك ؟ .. أخبرنى »
فجلست وقصت عليه ما رآته وقاسته ، منذ برحت القيروان
الى أن أخذت تلك الرسالة من الحسين ودفعتهما اليه فقرأها
وقال : « سأفعل ذلك حبا وكرامة .. وأين ذلك الخائن وعمه ؟ »
فتنهدت وقالت : « رأيتهما مع الجند يحرضانهم على الحرب
وسينالان الجزاء .. كيف فارقت مولانا المعز وأم الأمراء ؟ »
فهز رأسه مبديا إعجابه بها ، وقال : « ان مولانا المعز أعزه
الله وأتم نصره من معجزات الزمان .. »

قالت لمياء : « ومن أكبر أسباب سعادته انك قائده »
قال جوهر : « كلا يا لمياء .. فلو انى سفكت دمي عند قدميه ،
فانى لا أكافئه على صنيعه .. انت تعلمين منزلتى عنده ، ولكننى
لو أخبرتك ما فعله يوم خروجى من القيروان بهذه الحملة لرأيت
عجبا .. انه أمر بافراغ الذهب فى هيئة الأرحية وأن تحبل معى
ظاهرة . وأمر أولاده واخوته الأمراء وولى العهد وسائر أهل
الدولة أن يمشوا فى خدمتى وأنا راكب . وكتب الى سائر عماله
بأمرهم اذا أنا قدمت أن يترجلوا مشاة .. فكنت حيثما سرت فى
طريقى من القيروان ، كل من مررت به فعل ذلك .. فلما أتيت

برقة ، عَظَّم على صاحبها أن يفعل ذلك .. فافتدى ترجله ومشيه
في ركابي بخمسين ألف دينار ذهباً، فأبیت الا أن يفعل ما أمر به أمير
المؤمنين ففعل^(١) أمثل هذا الخليفة يكتر فيه أن يفتدى بالروح؟
قالت لمياء : « صدقت والله .. انه نايعة الخلفاء . وهل أنسى أنا
ما أكرمنى به حتى كان ينادينى بابتنته . وهل مثل هذا الخليفة
يكون نصيبه من الحرب غير النصر ؟ وهل تصلح الدولة ان لم
يكن رجالها قلبا واحدا في طاعة أميرهم ؟ أين ذلك من جنود
مصر ودولتهم ؟ .. فقد سمعتهم يختصمون على أمور تافهة ،
ورأيتهم يضربون الناس لا بتراز المال منهم .. وهذا أمير المؤمنين
قد بعث المال معك بشكل الأرحية . لاشك ان الله أذن باقتضاء
دولة الاخشيديين .. هل ترى أن أعود الى الفسطاط ؟ .. وما
هى العلامة التى تجعلها على دار بنت الاخشيد حتى لا يقربها
أحد بسوء ؟ »

فضحك وقال : « كأنك واثقة من دخولنا ظافرين ؟ »
قالت لمياء : « لاشك عندى فى ذلك »
فربت على كتفها بيده وقال : « بارك الله فيك .. ضعوا على
باب القصر علما أخضر ، وسأوصى الجند أن يجتنبوا ذلك الباب »
قالت لمياء : « أتأذن بانصرافى ؟ »
قال جوهر : « تبيتين الليلة هنا ونرى ماذا يكون فى الغد ،
ولا باعث الى العجلة فى الذهاب »
فأطاعت .. أما أهل الفسطاط فقد رأيت ما كان من اضطرابهم ،

وما ساءهم الجند من الذل والاهانة والسلب ، حتى أصبحوا
يفضلون الفاطميين عليهم .. وأما بنت الاخشيذ فانها مكثت بعد
ذهاب لمياء ، وقد تولتها الدهشة لما شاهدها من مروءة هذه الفتاة
وبسالتها . ولبتت تنتظر رجوعها ، وقضت أكثر أوقاتها في الشرفة
المطلّة على الجيزة لترقب حركات الجندين ، وقلما كانت ترى أحدا
منهما لبعدهما عن مجال البصر ، لكنها كانت تتلهى بذلك ..
ووجهت عنايتها خصوصا للحسين وأمرت باكرامه ورعايته

— ٧٠ —

العلم

وكان الحسين بعد ذهاب لمياء ، قد أحسّ بشيء ذكره
بجيبته .. فلم تمكّ تذهب صورتها من ذهنه ، ولم يكن يدرى
السبب الذى بعث على ذلك .. ولكن الواقع أن صوتها وهى
تخاطبه لم يخل من غتّة تعوّذ قلبه أن يطرب لها منذ اجتماعه
بها .. فطرب لها الآن وهو لا يعلم ان التى تحدّثه هى خطيبته ..
وكثيرا ما يحدث ذلك والناس لا ينتبهون له . فقد يخطر لك أمر
يتردد فى ذهنك وأنت لا ترى باعثا على تذكره ، وانما تذكرته
لأنك رأيت أو سمعت شيئا تعودت أن تراه أو تسمعه مصاحبا لذلك الأمر
قضى الحسين ليلته ، وهو يفكر فى لمياء وأين هى .. وتذكر
قولها يوم وداعه انها ستلاقيه فى القسطنطينية ، وتصور تحمسها
وهمتها بالظفر من ذلك الحين .. فاختلف قلبه ، وأحسّ بشوق الى
.. لئلا أه معرفة أخارها .. ولم يكن قد نسيها من قبل ، لكنه

تذكرها على الخصوص في ذلك اليوم .
مضت أيام ولم ترجع لمياء بالجواب من جوهر ، فقلقت بنت
الاضشيد وهي في كل يوم يترجع عندها النصر للفاطميين ،
فأصبحت تخشى على حياتها .. وانما طمأنها أن الحسين بن جوهر
أسير عندها تحتمى به عند الحاجة .. وحين اشتد قلقها بعثت
إليه ، فجاءها فسألته عما يراه من أمر تلك الحرب
فقال الحسين : « لا ريب عندي في فوز جندنا يا سيدتي »

فقلت بنت الاخشيد : « عجباً .. كيف تؤكد ذلك ؟ »
قال الحسين : « لأننا متحدون قلباً وقلبا في خدمة أمير
المؤمنين ، نساء ورجالا ، ليس فينا الا من يفدى أمير المؤمنين
بروحه .. فهل أتم كذا ؟ »
فقلت وقد غلبت على عواطفها : « لا يا بني .. لسنا كذلك
لسوء الحظ .. » وغصت بريقها ..

قال الحسين : « أما نحن فإن أحدا لا هم له الا التفاني في
نصرة الخليفة .. أضرب لك مثلا على ذلك ، فتاة خطبتها في
القيروان .. وجاء ذكر الحملة على مصر ، فأبت أن يتم الزواج الا
في القسطنطينية بعد فتحها .. وقد هجرت بيتها وسافرت في خدمة
مصلحة الدولة تمهيدا لهذا النصر ، ولا يعلم أحد الآن أين هي ..
ولا أنسى قولها ساعة الوداع : « سنلتقي في القسطنطينية في قصر
مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل » ذلك هو مدى إيمانها
بالنصر ، والجند لم يتحرك من القيروان . وأعترف لك ياسيدي
أنى أومن بصحة قولها ، وأن ذلك لا بد من إتمامه »

فاستغربت بنت الاخشيد قوله وقالت : « لله درها من فتاة
فادرة المثل .. أين هي الآن ؟ وما شعورك نحوها ؟ »
قال الحسين : « اتنى على مثل الجمر .. ولكننى واثق اننا
سنلتقى هنا .. »

قالت بنت الاخشيد : « يظهر ان نساء بلادكم أقوى من
نساء بلادنا وأشد حماسة ، فانى عرفت جارية مغربية أهدها
الى يعقوب بن كلس بالأمس لم تر عينى أعقل منها ولا أطيّب
من قلبها ، وهى مع ذلك شجاعة بأسلة لا تبالى بالتعرض
للأخطار ، وقد قالت انها تعرفك وتعرف أباك والخليفة ، وتعرف
أيضا الأميرين السجلماسيين اللذين حملاك الينا أسيرا »
قال الحسين : « وما اسمها ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « سلامة .. »

قال الحسين : « هل هى التى أتتى متتكرة فى ثوب جندي ،
وأخذت الكتاب الى والدى ؟ »

قالت بنت الاخشيد : « نعم هى بعينها لله درها .. انى لم
أعهد مثل هذه الحماة والبسالة فى النساء حتى قلت لها مرة :
ليست هذه الأخلاق من أخلاق الجوارى »

فرأى الحسين تشابها بين أخلاق لمياء وما سمعه عن سلامة
وتذكر خروج لمياء من القيروان لخدمة المزم .. فأطرق وهو يقول
فى نفسه : « هل يمكن أن تكون سلامة هى لمياء متتكرة .. »
واستبطأت بنت الاخشيد جوابه ورأت اطرافه : فتصورت
انها جددت ذكرى خطيبته وهو بعيد عنها ، فلم ترد أن تشغله

عن تأملاته فحولت بصرها نحو النافذة المظلة على النيل والجيزة ورائه ، فرأت الروضة تعج عجيجا بالناس وفيهم الفرسان بالرماح والسيوف والمشاة بالحرب في غير زى المصريين ، وقد تطايرت السهام وأبرقت السيوف فصاحت : « ويلاد هذه هي الحرب .. قد دخل العدو بلدنا »

فالتفت الحسين الى الروضة ، وأجال نظره في تلك الجهات فقال : « قضى الأمر يامولاتى .. هذا جندنا يقطع الجسر ، وهذه أعلامنا ، ولايلبث أن يدخل الجند الفسطاط ظافرا .. لكن كوني مطمئنة ، انى أفديك بدمى .. ها أنا نازل لأقف بالباب وأمنع رجالنا من دخوله ، طمئنى أهل القصر جميعا » قال ذلك وأسرع نحو الباب الخارجى الكبير ، وكان مغلقا وقد أوصدوه .. فرأى جنديا مغربيا يتسلقه ، وخدم القصر يستغيثون به ويتوسلون اليه أن لايفعل لأنهم لايعاربون ، وهو لايبالي.. فصاح فيه الحسين : « انزل يا رجل .. ان الذى يخاطبك هو الحسين بن جوهى »

فلم يكثرث الجندى لقوله ، وظل يتسلق حتى وصل الى عتبة الباب العليا ، فأخرج من جيبه علما أخضر نصبه فوقها وتحول الى الداخل ، وأشار الى أهل القصر أن يتركوا الباب مقفلا . فنظر الحسين فى وجهه فرآه ملثما فقال له : « من أنت يا رجل ؟ لماذا لم تجبنى ؟ .. »

فأومأ اليه بوضع السبابة على شفتيه : « أن اسكت الآن » ودخل مسرعا فتذكر الحسين الجارية سلامة كيف تركته متكررة بشوب جنسدى مصرى ، وما خامره من الشك فى أمرها عند

سماع خبرها من بنت الاخشيد .. فأصبح شديد الميل الى تحقيق ذلك ، فلحق بها .. ولم ينتبه له أحد من أهل القصر لما كانوا فيه من الحذر والخوف ، بسبب ما قام من الضوضاء في المدينة بين عويل وصياح .. وقد زاد من رعبهم دخول ذلك الجندي المغربي ولكنهم ما أن رأوه ينصب الراية الخضراء حتى اطمأنوا قليلا .. ولكن الذين رأوه داخلا يعدو ، ولم يروا الراية ذعروا ..

أما الحسين فانه ظل مسرعا حتى دخل القاعة ، وطلب الى الحاجب أن يدعو له السيدة بنت الاخشيد .. فنادها فأتت ، ولم تنزل الستارة بينها وبينه وانما اكتفت بالنقاب ، فلما وقع نظره عليها استغرب ما عليها من الأثواب الثينة والحلى ، وهو يسمع بما عليه أهل مصر من الضنك .. أما هي ، فجالما رآته صاحت : « ماذا جرى ؟ .. »

قال : « كل شيء في أمان . وهذا عكس الذي قد نصب فوق الباب وهو علامة الأمان ، فلا يجسر أحد أن يمس هذه الدار بسوء .. كوني مطمئنة »

قالت بنت الاخشيد : « ومن أقامه هناك ؟ »

قال الحسين : « جندي مغربي .. أظنه نفس الجندي الذي حمل رسالتى الى والدى ، وقد أسرعت لأراه .. »

قالت بنت الاخشيد : « أظن أن سلامة رجعت ؟ .. أين هي ؟ .. » وصفت فأتت القهرمانة وهي تلهث من الخوف ، فضحكت بنت الاخشيد من منظرها ، وقالت لها : « ما بالك يا خالة ؟ .. لماذا تلهثين ؟ .. »

قالت : « إن الأعداء دخلوا .. القسطنطين .. و .. و .. دخل
إحل منهم هذه الدار .. »

قالت بنت الاخشيدي : « لا تخافى ان هذا الجندي جاءنا بعلم
الأمان من قائد جند المغاربة . كوني مطمئنة ، لا بأس علينا ..
وهذا الحسين ابن ذلك القائد .. أين سلامة الجارية ؟ »

قالت القهرمانة : « لم أعد أراها منذ أيام »

قالت بنت الاخشيدي : « ابصني عنها في غرفتها الآن وادعها
إلينا حالا .. »

وجلست وأشارت الى الحسين أن يجلس ، فجلس وعيناه
شائعتان نحو الباب ينتظر وصول تلك الجارية ، ولاحظت بنت
الاخشيدي قلقه فقالت : « مالى أراك قلقا كأنك تنتظر سلامة
بكتاب من والدك ؟ »

قال الحسين : « كلا .. فان هذا العلم يكفى جوابا ..
ولكننى أتوقع أن تكون سلامة هذه غير ما تنوهمينها »

قالت بنت الاخشيدي : « وكيف ذلك ؟ »

قال الحسين : « تمهلى ريثما نرى ».

واذا بالقهرمانة عادت وهى تقول : « لم أجد سلامة هناك
ولكننى رأيت جنديا فخفت ورجعت »

فنهض الحسين وقال : « أين هو ذلك الجندي ؟ أوصلينى
إليه .. »

- ٧١ -

النصر

فمشت القهرمانه وبنت الاخشيده والحسين حتى وصلوا الى
 الغرفة ، فوجدوا ذلك الجندي واقفا الى النافذة يراقب حركات
 المحاربين لا ينتبه الى أحد في الدار ، فمشى الحسين بخفة حتى
 وقف وراءه بحيث يرى ما يراه . فرأى المغاربة قد تكاثروا
 والاخشيديه يقرون من أمامهم الى المدينة ، وقد تراكم القتلى
 منهم على الجسر ، وتجاوزهم بعض المغاربة على خيولهم ، وظهر
 الفوز واضحا لهم فصاح الجندي : « الحمد لله قد كتب النصر
 لنا » والتفت فوجد الحسين وراءه فبغت ، ووقف لا يبدى
 حراكا .. فصاح فيه الحسين قائلا : « من أنت ؟ »

فلم يجب وانما أشار الى ثوبه أنه جندي فقال : « أنا الحسين
 ابن جوهري .. فانزع هذا اللثام عن وجهك »

فأطرق ولم يجب .. فقالت بنت الاخشيده : « هذه سلامة
 حبيبتنا .. اكشفى عن وجهك للحسين يا بنية ، انه حامى ديارنا »
 فلم تجب .. فتقدمت بنت الاخشيده ورفعت اللثام بيدها ،
 فأرادت لمياء تحويل وجهها حتى لا يراها الحسين ، فرآها وعرفها
 وصاح : « لمياء .. » وأمسك بيدها وأدارها نحوه ليتحقق من
 بطنه وهي تحول وجهها عنه حياء ، فدهشت بنت الاخشيده لما
 رآته وتذكرت ما قاله عن خطيئته فعلمت انها هي نفسها ،
 فتقدمت وأمسكت بيدها الأخرى ، وقالت : « أفتسليكو خطيئة

هذا البطل وتزعين انك جارية ؟ تكلمى .. »
 فالتفتت الى الحسين لفتة تمودها منها .. أثرت في قلبه تأثير
 السهم ، وقال : « تكلمى .. ما بالك ؟ »
 فقالت وعيناها تلمعان : « قد تعاهدنا أن نلتقى هنا بعد فتح
 مصر .. فهل فتحت ؟ »
 قال الحسين : « أوشتك أن تفتح .. »

قالت لمياء : « اصبر لا تفرح قبل تمام النصر .. انت هنا منذ
 أيام وأنا أعلم ذلك ، ولم أشأ أن أطلعك على نبأ وجودى لئلا
 نشغل بالقلوب عن السيوف ، ولا أزال على ذلك حتى الآن .
 ان خدمة المعز مقدمة على كل شئ ، فاذا فرغنا منها وفتحنا البلد
 واستقر لنا الأمر ، فانى أمستك أترامى عند قدميك .. » قالت ذلك
 وغصت بريقها ، وأبرقت عيناها وظهر الهيام فيهما . واسترخت
 عزائمه .. والحسين ينظر اليها باعجاب وخجل .. وقال : « أبيت
 يا لمياء الا أن تكونى السابقة الى الفضل فى خدمة أمير المؤمنين ..
 انى متفان فى خدمته ، ولكننى دهشت لرؤيتك هنا ، وأنا أعهد
 مقرك - منذ افترقنا - بالقيروان .. الحمد لله على هذا اللقاء »
 فنظرت اليه نظرة عتاب ، وقالت : « وذانك الرجلان اللذان
 ساقاك الينا فى القيود والأغلال .. انى لا أعد النصر قد تم ؟
 وهذان الرجلان على قيد الحياة .. وأنا فى شوق الى سماع
 ما جرى لك فى أثناء هذا الغياب ، وأنت مشتاق الى حديثى ..
 فاذا تم النصر كما نريده نتحدث كثيرا »

فلما تذكر أبا حامد وسالما هاج الدم في عروقه فقال : « أين هما ؟ .. »

قالت لمياء : « سأخبرك عن ذلك بعد قليل »
والتفتت بنت الاخشيدي الى لمياء وقالت لها : « سنتركك هنا
تبدلين ثيابك »

قالت لمياء : « كلا ياسيدتى لا أريد أن أغير شيئا قبل
الفراغ من هذا العمل . وهل ترين منظرا أجمل مما أرى هنا ..
ليس في الدنيا ألد من النصر في ساحة الحرب .. لا صبر لى عن
هذا المنظر هيا بنا الى المعركة » قالت ذلك وأسرت فتبعها
الحسين وهو يقول : « المعركة .. لست أشد منى غيرة على الدولة
ولكنك شغلتنى .. » ونزلا فركب كل منهما فرسه وتسكحا
وبنت الاخشيدي ترى وتعجب . فلما خرجا قالت في نفسها : « ان
قوما أنصارهم مثل هذين ، أجدر بهم أن يفتحوا العالم »
ولم يسيرا الا قليلا حتى رأيا رجلا من أتباع الشريف مسلم
حاملا علكما أبيض يؤمّن الناس ، فنادته لمياء فوقف فقالت :
« من أرسلك بهذا العلكم ؟ .. وكيف الحال ؟ »

قال : « لما غلب الاخشيديّة وقتل منهم خلق كثير ارتدوا الى
مصر وأخذوا من دورهم ما قدروا عليه وانهزموا ، فخرج حريمهم
مشاة الى الشريف أبى جعفر وكلّفنه أن يكتب القائد جوهر
بإعادة الأمان . فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله إعادة الأمان وهذا
جوابه معنى يؤمّنهم ، وهذا العلكم الأبيض شاهد على ذلك .
فاطمأن الناس وخرج الأشراف والعلماء ووجهاء البلد في موكب

حافل يتقدمه الوزير ابن الفرات وجماعة الأعيان الى الجيزة لملاقاة القائد عند دخوله الفسطاط ، ولا يلبثون أن يعودوا به .. ألا تسمع المنادى ينادى بذلك ؟ .. »
فالتفت لمياء الى الحسين ، وقالت : « قد تم النصر والحمد لله .. فلا حاجة الى الخروج بل ننتظر وصول الموكب »

ونحو العصر (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) أقبل الموكب حتى دخلوا الفسطاط وعليهم السلاح والعدة ، فدخل جوهر وطبولة وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مقل وتحت فرس أصفر (١) فرافقوا الموكب حتى شق البلد ونزل في مكان أناخ فيه جوهر جيماله وبنيت فيه القاهرة بعد ذلك . فالتفت الحسين الى لمياء يستشيرها فيما ينبغي أن يفعل فقالت : « هلم بنا الى مقر ذينك اللعينين في الفندق .. أظنهما هناك »

فتبعها وساقا الجوادين ، وقد أوشكت الشمس أن تغرب ، حتى بلغا الفندق .. فلما رآهما صاحبه رحب بهما خوفا منهما ، وإن كان المنادون قد نادوا بالأمان ، ثم وقع نظره على لمياء فمرقها ورآها بملابس جند المغاربة فاستأنس بها وتقدم اليها وهو يقول : « هذا صديقنا الصقلي »

فضحكت له وقالت : « اتنا في حاجة الى تلك الغرفة الآن »
قال : « قد دخلها الرجلان في هذه الساعة »

- ٧٢ -

قتلهما الفضل !

فالتفتت الى الحسين وقالت : « قد تم سعدنا » وساقا
الجوادين الى داخل الفندق حتى صارا في وسطه ، وترجلا
وأسرعا الى الغرفة فطرقا بابها .. فسمعا لفظا ولم يفتح الباب ،
فاستل كل منهما خنجره ، وصاح الحسين : « افتح »

فاجابها أبو حامد من الداخل : « لن أفتح لكما .. ليس
خوفا على حياتي ، ولكنني لا أريد أن أموت بيد أحدكما ..
ولا ينبغي أن أبقى حيا بعد هذا الفضل . وأخاف أن يجبن هذا
الغلام فيستعطف ويتذلل وأنا أعرف ضعفه وجبنه .. فأنا الآن
قابض على عنقه وها أنا أضعه في قلبه .. قد طعنته فمات ،
وهذه طعنة في قلبي ، وهذا الباب قد فتحت لكما .. فاستلما
جنتين بلا روح .. »

ثم سمعا وقوع الجثة وفتح الباب ، فوجدا الرجلين يتخبطان
في دمهما ، فغطت لمياء عينيها حتى لا ترى ذلك المنظر الرهيب ،
ولا تريد أن ترى سالما حبيبا الأول في تلك الحالة رغم ما رأت
منه أو سمعت عنه . وتحولت الى فرسها وهي تقول للحسين :
« هلم بنا الى المعسكر لنرى قائدنا العزيز .. فقد قضى الأمر
وتم النصر »

فتبعها وهو يقول : « كنت أود أن أقتلهما بيدي .. »
قالت لمياء : « قتلهما الفضل ! .. »

وينما هما خارجان اعترضهما صاحب الفندق وهو يبكي
ويقول : « قتلتما الرجلين .. وذهبتما ، الآن يقبضون عليّ »
ويتهموني بقتلهما .. بالله لا تذهبا »
فتقدمت لمياء اليه ، وقالت : « قتلا ، بأمر القائد جوهر ..
وهذا هو الحسين بن جوهر القائد .. لا تخف »
فاكبء على ركاب الحسين يقبله ويقول : « اعذرنى يا سيدي
والله ان هذا الصقلي رجل طيب .. مع السلامة يا سيدي .. »

وانصرفا حتى بلغا المعسكر ، وقد أظلم الليل .. ولكن الأنوار
كانت تسطع في تلك الأنحاء وقد أقبل المصريون زرافات ووحدا
على جوهر يهشونه بالنصر ، وعرفا فسطاطه من كبره وكثرة من
حوله من الحجاب ، فما زالا حتى وقفا بالباب واستأذنا في
الدخول . فلما قيل لجوهر ان الحسين يستأذن عليك نهض له
وضعه الى صدره وقبله ، فقبل الحسين يده .. ثم تقدمت لمياء
بثوب الجند فقبلت يد القائد فدعاها الى الجلوس هي من جانب ،
والحسين من الجانب الآخر . وكان في جملة الحاضرين هناك
أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الشريف فمر به بهما ، فهما بالنصر
ورحبت بهما ، واذا بصوت خرج من جوانب الخيمة يقول :
« ويعقوب ؟ » فعملت لمياء انه صوت يعقوب بن كلس فالتفتت
الى جوهر وقالت : « لا أستطيع أن أصف لك الفضل الذي
أولاني إياه الشريف أبو جعفر والمعلم يعقوب ، فاتنا مدينون لهما
بكثير من أسباب هذا النصر وبخياتي أيضا .. ولولاها لكنت

الآن فى عالم الأموات» .. فقال الحسين : «فاتفضل اذن على - أنا» وبعد قليل انصرف المهثون ، وبقي جوهر ومسلم ويعقوب والحسين وملياء .. وكان اجتماعهم ممتعا على أثر ما عانوه من التعب حتى كتب لهم النصر ، فقص كل منهم ما عاناه فى أثناء الغياب والتفت جوهر الى ملياء وقال : « قد صحت نبوءةك يا بنية فالتقينا فى الفسطاط بعد فتحها.. ألم يحزن موعد العقد عليك؟» فقالت ملياء : « الحمد لله على ذلك ؛ لكن العقد اشترطت فيه أن يكون فى قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل .. » قال جوهر : « ألم تكن الفسطاط كلها قصرا له ؟ » قالت ملياء : « بلى .. لكننى أريد قصره الخاص » فضحك جوهر وقال : « انك تريد أن يؤجل الزواج حتى يحضره المعز بنفسه فانك أهل لذلك .. وفى الغد نبدأ ببناء القصور لمولانا ، وبعد قليل يأتى الى مدينته ويعقد لكما .. »



وأخذ جوهر فى اليوم التالى فى بناء القاهرة ، ثم بنى القصور وبعث الى المعز بأخبار الفتح ، فانتقل المعز الى مدينته وأقام بها وتوارثها أعقاباه بعده على ما هو مدون فى كتب التاريخ . وكان أول عمل قام به انه عقد للحسين على ملياء فى احتفال لم يسع بمثله

طبع
بمطابع دار الهلال

العهد القديم

من روايات تاريخ الإسلام

صلاح الدين الأيوبي

لجرجي زيدان

ترقبه أول ديسمبر ٨٤